مكتبة ٧١٨

تَسَكُّعْ

في أمريكا اللاتينية

عبدالكريم الشطي

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

مكتبة | 718
سُر مَن قرأ

عبدالكريم الشطي
تَسَكُّعٌ في أمريكا اللاتينية
الكويت: ذات السلاسل، ٢٠١٧
٢٥٤ ص؛ ٢١ سم.
الردمك: ٩٧٨-٩٩٩٦٦-٨٠-٨١-٦

مكتبة
t.me/t_pdf

صورة الغلاف: حمود الجلاهمة
إخراج الخرائط: مريم مندني
تدقيق: سارة العسكر
للتواصل مع المؤلف:
Q8backpacker@gmail.com
Twitter: @Q8backpacker
Youtube: Q8backpacker
الصور في الصفحات ٨ و٩، ٢٨ و٢٩، ١٤٠ و١٤١، ١٧٢ و١٧٣ من تصوير حمود الجلاهمة
الصور في الصفحتين ١٧٠ و ١٧١ من تصوير wainmaaro7

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

٢٠٢١ ٧ ١٣

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

الناشر: ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - ص.ب: 12041 الشامية 71651
تلفون: 22466266/55 (965+)
فاكس: 22438304 (965+)
E-mail: ths@thatalsalasil.com.kw
Web site:www.thatalsalasil.com.kw
@THATALSALASIL
@THATALSALASIL
thatalsalasilbookstore

مكتبة | 718
سُر مَن قرأ

تَسَكُّع

في أمريكا اللاتينية

عبدالكريم الشطي

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

حينما أشـاهد قوام أمريكا على الخريطة.
حبيبتي، أشاهد فيك:
رأساً مطلياً بالنحاس.
ثديـان هما القمح والثلج.
خصرٌ نحيل.
أنهارٌ سـكّرية، جارية خافقة.
التلال والمروج.
وفي أخمصـك البارد النهاية.
حيـث تلد الجغرافية الذهب.[1]

بابلو نيرودا[2]
شاعر تشيلي

---

١. الأبيات من ترجمتي، واعتذر في حال عدم دقتها.
٢. بابلو نيرودا أشهر شعراء أمريكا اللاتينية. شيوعي الهوى نُفي إلى إيطاليا وجاب العالم. وساند الثورات وله قصيدة شهيرة في مدح فيديل كاسترو. وهناك فيلم شهير يحكي قصة حياته في إيطاليا باسم ساعي بريد نيرودا. الفيلم يستحق المشاهدة.

ابن شطوطة

مكتبة
t.me/t_pdf

كتب رحالة الزمان وجهبذ المكان العلامة «ابن شطوطة» في كتابه «غرائب التطبع في أخبار التسكع»:

(واعلم - يا رعاك الله - أن المسافرين على ثلاثةٍ:

المسافر: كل من خرج عن بلده بأي قصد. يحتاج فقط تذكرةً وسكناً.

السائح: هاربٌ من شيء؛ عمل، ملل، روتين. يريد أن يرتاحَ ويستجم، قد يزور بعض المتاحف والأماكن السياحية، يتعلم كلياتٍ يقمن صلبه. يعود وقد صَفَتْ نفسه، وتذوق شيئاً من توابل البلاد.

الرحالة: باحثٌ عن شيء؛ ثقافة، تحدي، حضارة، طبيعة، تغيير. يشمّر لهدفه مهما كانت المشقة. يعيش غربةً مؤقتة. تنحته وتعيده شخصاً آخر.

وفي كلٍّ خَيْر، ولا فضل لعربي على أعجميٍ إلا بالتقوى.)

ثم يقول - لا رحمه الله - كاشفاً عن حقيقته:

(والعرب بلغوا منتهى الرحلة، لكنهم تركوها اليوم. ودوري أن أغوي العرب، بالوسوسة من الشمال واليمين، حتى يعودوا للطريقِ مرةً أخرى!) انتهى كلامه.

الله الله في وطنك. واحذر - حفظك الله - أن تقع في شرك قرين السوء: ابن شطوطة. شياطين السفر مثل شياطين الشعر؛ في كلّ وادٍ يهيمون. تعوذ من وسوستهم. وإلاّ لقيت مصير جيفارا والمتنبي، وكاتب هذه الحروف.

اقـرأ هـذا النـص سراً. كلمـا أنهيـت صفحـةً احرقهـا وانـثرْ رَمَادَهـا في المحيـط. سَـتَعْلَقُ رائحـة النـص في يديـكَ. اغتسـلْ بمسـكِ أرضـك. تَيَمّـمْ بِكافـورِ بـلادك. لا تـترك أثراً لقرائتـك. وإلا فقـدت جلالـك وهيبتـك بـين القبيـلة.

والآن تلفت حولك. تأكـد أن لا عـينَ تُراقبـك. تمتم: سبحان الـذي سخـر لنـا هـذا... واقـرأ. اقـرأ باسم الرحـلة. باسم الجنـون. باسم التغيـير الكبـير الـذي ينتظـرك.

. . . . خط سیر جیفارا

• کوستاریکا

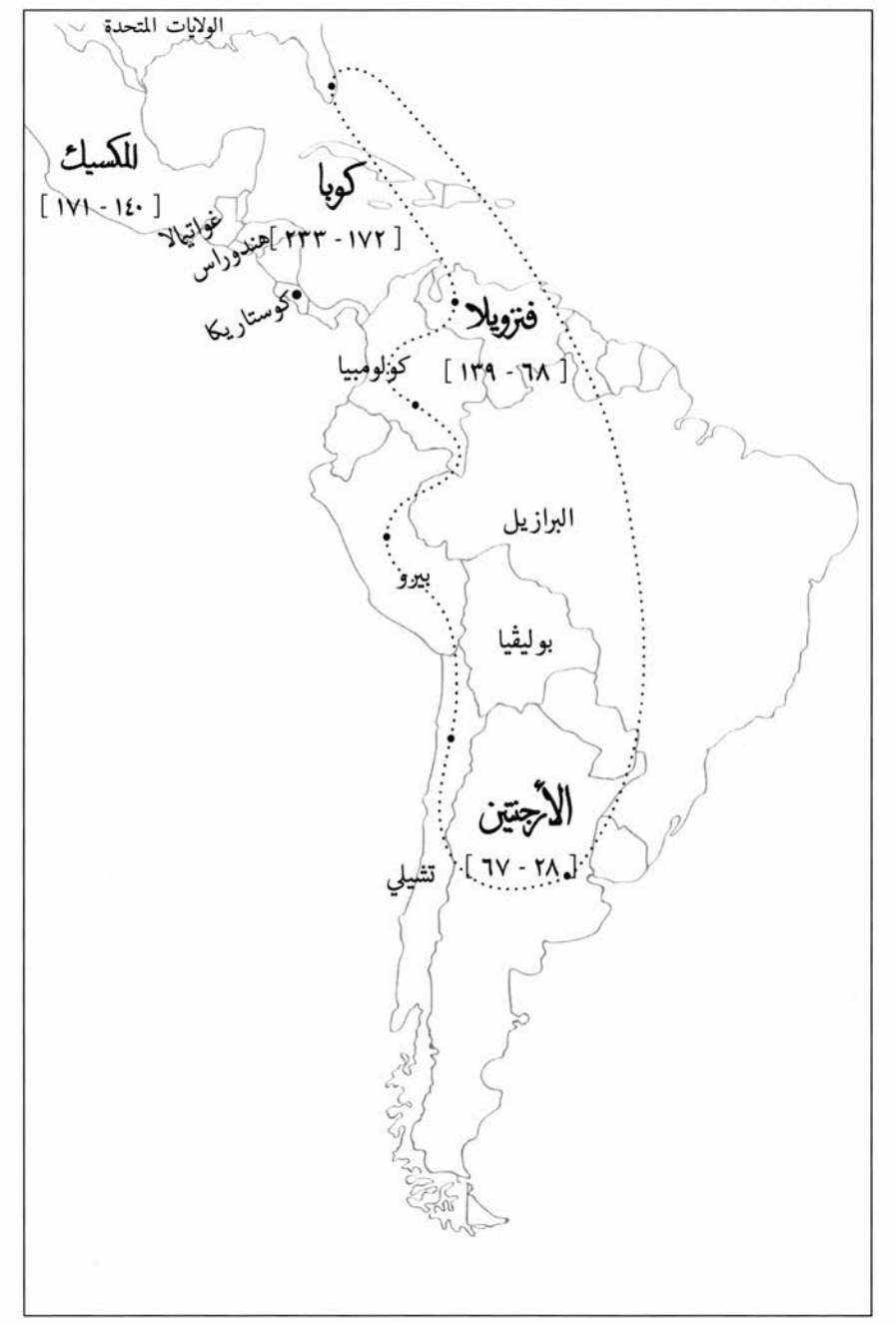
الولايات المتحدة
المكسيك
[١٤٠ - ١٧١]
كوبا
[١٧٢ - ٢٣٣]
غواتيمالا
هندوراس
كوستاريكا
فنزويلا
[٦٨ - ١٣٩]
كولومبيا
البرازيل
بيرو
بوليفيا
الأرجنتين
[٢٨ - ٦٧]
تشيلي

تعريف وترحيب

وَفي الجسْمِ نَفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ ... وَلَوْ أنّ مَا في الوَجْهِ منهُ حِرَابُ[1]

غَنِيٌّ عَنِ الأوْطانِ لا يَستَخِفُّني ... إلى بَلَدٍ سَافَرْتُ عنهُ إيَابُ

وَأُعْلِمَ قَوْماً خَالَفُوني فشَرّقُوا ... وَغَرّبْتُ أنّي قَدْ ظَفِرْتُ وَخَابُوا[2]

---

١. الأبيات في صدر كل فصل ستكون للشاعر، والشاعر في عقيدتنا هو المتنبي، أما بقية الشعراء «فادعوهم لآبائهم..».

٢. أي أن الشيب لا يؤثر في روحي، حتى لو كانت كل شيبة مثل الرمح أو الحربة.

٣. هنا ترك الشاعر بغداد والشام وتوجه غرباً إلى مصر. لذا فهو يرى بأن الغرب خياره، شأن هذا الكتاب الذي يختار الغرب الاقصى، وطالما تمثلت بهذا البيت في وجه لائمي على زيارة أمريكا اللاتينية.

«وكان في رفقة المكتشفين رجل اسمه (ميريكو) من إيطالية من مدينة فلورنسا. وكان نوتياً في المركب ذا تدبير وعلم وعقل. فشخّص تلك الأرض وهنودها على ورقة (خارطة) وعرضها على ملك أسبانية فحينئذٍ سميت تلك الأرض (ميريكا). كان الواجب أن تدعى كولون (كولمب) لأنه المبتدئ والمجتهد في هذا الأمر. لكن بعدما انتشر هذا التكني في أفواه الخلائق وشاع على مسامع الناس جميعاً، لم يكن ممكناً أن يتغير فبقيت تسمى ميريكا.»

إلياس حنا الموصلي[1]

---

١. أول عربي يحصل على ترخيص من ملك أسبانيا ليزور أمريكا اللاتينية. زارها عام ١٦٦٨ ودوّن رحلته بكتاب أصدرته دار السويدي بعنوان «الذهب والعاصفة». كل الشكر لدار السويدي على إحيائها لمدونات الرحلة المفقودة. وإلياس قيس من حلب. عائلته لها علاقات قوية مع الفاتيكان فتوسطوا له عند الملك لزيارة أمريكا اللاتينية، في وقت لم يكن يسمح لأحد بزيارتها إلا بإذن البلاط الاسباني.

شبهُ مقدمة

مكتبة
t.me/t_pdf

قبل هبوط الطائرة، حاصرتني الأشباح: الكوكايين، المافيا، البغاء، الأسلحة، الملاح القاحلة، الشوارع القذرة، البيوت السردينية، الخطف، السرقة.. وكل الأطياف النمطية الملاصقة لاسم «أمريكا اللاتينية». لعنت ابن شطوطة على هذه التهلكة. مجرد عودٍ غضٍ طريٍ بالكاد دخلت العشرينات، لماذا اخترت طواعية أن آتي هنا. هل لثقة ذلك الشاب أم عذوبة تلك الفتاة؟ لنشربَ نخبَ القصتين من أولهما...

***

القصة الأولى: المشرد الواثق.
الزمان: ١٩٩٨.
المكان: مطار بانكوك.

«عذراً مستر عبدالكريم، طائرتك بعد ثلاثة أيام وليس ثلاث ساعات!»

أخذت أحدق في عيون الموظفة الضيقة، طلبت من موظفة مكتب تحويل

---

١. فتح كوستاريكا كان عام ٢٠٠١، وفي كتابي «تسكع على الخريطة» تكلمت عنها في مقدمة الكتاب. وأنا مدين لهذا الفتح كثيراً، فقد فتح الله به علي الكثير من مغاليق عقلي وهواجسي نحو السفر، فتحٌ من الله ونصرٌ مجيد.

الرحلات أن تتوثق مرةً أخرى، أكدت عليّ بثقة الآسيوين ودقتهم أنّ هذا موعد الرحلة. تركت مكتب تحويل الرحلات في مطار بأنكوك، متلفتاً حولي، باحثاً عن شيء مجنّح ينزل من السماء ينقذني. وصلت من أستراليا ظاناً بأن الترانزيت ثلاث ساعات وبعدها إلى الكويت. تبين لي بأن خطأً ما في الحجز يرغمني على الجلوس ثلاثة أيام. جلست في ركن ضيق، أخرجت ما في حوزتي عملات: دينار كويتي، دولار أمريكي ودولار أسترالي، المجموع اثنان وثمانون دولاراً وعشرون سنتاً، فقط لا غير. كيف يمكنني أن أتدبّر ثلاثة أيام بهذا المبلغ.

الاتصال الدولي يحتاج شراء بطاقةٍ سعرها عشرون دولاراً، هل سيردّون على اتصالي؟وكيف سيحولون لي المبلغ؟ هل أُلقي بنفسي بين تجمعات العرب وأستلف مبلغاً؟ هل أتّصل بالسفارة الكويتية؟ أثناء التقليب والتفكير، وقعت عيناي عليه، شابٌ مشرد، نائمٌ على الأرض، متوسدٌ شنطة ظهرٍضخمة، شعيرات لحيته الشقراء نابتة، قبعته ملقاة إلى جانبه. هل أطلب من مشردٍ مالاً! طردت الفكرة من رأسي. توضأت، رجعت إلى زاويتي، صليت ركعتي إنقاذ، أخرجت الكرسيّ والمعوذات من داخلي، قويت أملي بأدعية بطن الحوت. رفعت بصري إلى السماء، لم يأتِ المخلوق المجنّح لإنقاذي. وحده المشرد الأشقر، فتح عينين خضراوين، ومد ذراعيه في كسلٍ، بدا لي غولاً علجاً، تَثَاءَب بعاصفة كادت تبتلع ما حوله. هدوؤه يقتلني، المطار في حركة ديناميكية، عدا هذا الثابت الجامد. انتبه لتحديقي فيه، فنبهني بسخرية:

أنا حرٌ حالياً، تستطيع أن تواعدني إن أردت.

صحوتُ من سهوي، وابتسمت لدعابته، اقتربت من الغول المشرد، شرحت له حكايتي، ضحك كأحد قراصنة الفايكنغ، قال:

أعطني نصف هذا المبلغ وسأعيش في تايلند أسبوعاً كاملاً، مع مساجٍ يومي!

أنا لا أمزح معك.

- وأنا جادٌ كذلك.

- وكيف يكون ذلك؟

أخرج ورقة وقلماً وسأعلمك السر.

أخرجت الورقة والقلم، كتلميذ خائفٍ نجيب، أصغيت إلى خطّته وخطواته. لا خيار لي إلا اتّباع مرشدي المشرد. تقاسم معي بسكويتاً وقطعاً من المانجا المجففة، سألته عن حياته وأسفاره، مهندس ميكانيكي، ترك عمله، وقرر أن يهيم لمدة سنتين انقضت سنة، دون أن يشعر بها، وبقيت أمامه سنة، سألته:

أي بلاد الله أجمل؟

قطعاً «كوستاريكا».

كم قضيت فيها؟

لم أزرها بعد.

وكيف علمت بأنها أجمل بلاد الله.

الحدس يا صديقي. هناك علاقة بين الأرض والبشر، كلاهما من تراب، نعرف الأرض قبل أن نلتقيها، تنادينا وتغوينا قبل أن نطأها.

تركت شنطتي أمانةً لديه، ذهبت إلى الحمام، شنطتي يتيمة في مكانها، وملهمي ذهب مع الريح دون أن أعرف اسمه.

ظهر أمامي «أنا». توأمٌ يشبهني تماماً. يجلس بجانب شنطتي. يرتدي نظارة ويقرأ كتاباً قديماً. تسمّرت أمامه. أنزل كتابه ونظارته عن عينيه. أمرني بثقة:

اتبع نصائح المشرد. لا حل لديك.

من أنت؟

صديقٌ قديم، اسمي ابن شطوطة.

تركني وذاب في الزحام.

***

فتحت الورقة، اتبعت إرشاداته: أخرجْ ما تحتاجه من شنطتك، ضعه في كيس، اترك شنطتك في مخزن المطار، اخرج من باب القادمين، لا تأخذ تاكسي من باب المطار، اتجه يميناً، سر لمسافة كيلو تقريباً، تصل إلى الشارع العام، هناك محطة باص رقمها كذا، خذ الباص رقم كذا... سيحملك إلى كاو سان، نهرٌ صغير تنمو حوله بيوت الشباب، قيمة السرير في الغرفة المشتركة ثلاثة إلى خمسة دولارات. ضع أغراضك في الغرفة، تعرف على الأسرّة المجاورة لك، تحدث مع الشباب في الهوستيل، اختر لك رفقة وانطلق.

مشيت على الخطة بحذافيرها. وهل كنت أملك خياراً غيرها؟ تعثرتُ بوجوهٍ أتت من كل فجٍ عميق، تبحث عن الصداقات والثقافات، كل مجموعة بأفكار مختلفة. اندسست مع مجموعة شبابٍ، محورهم برازيلي شهم، يعرف بانكوك حق المعرفة. خرجنا إلى الشوارع، إلى الحياة دون تكلف، نمشي، نتعلق بالباصات، ننحشر في التوك توك، نشتري فواكه طازجة، نأكل النودلز من عربة شارع. شبابٌ مذهلون، ممتعون، مستمتعون بالحياة. معلوماتهم كثيفةٌ عن البلد والجغرافيا. كلهم قرؤوا دليلاً سياحياً متكاملاً عن البلد. شرحوا لي عن الأحوال السياسية في تايلند، البوذا، التاريخ، الملك، القمصان الحمراء، العادات، الأصول، الأعراق. البرازيلي أخذني إلى بيتِ تايلندي، كان يساعد ابنتهم ذات الأعوام العشرة في تعلم اللغة البرتغالية، ويعلل ذلك ضاحكاً: من يدري لعلها تضطر للعمل كمدلكةٍ في البرازيل. في ليلتي الأخيرة، أخذوني إلى تلةٍ مرتفعة تطل على بانكوك، قطعنا الفاكهة، تقاذفنا القشور. تبقت معي عشرة دولارات! أخذت ما يكفيني للمطار وأعطيت الباقي للبرازيلي كي يستمتع. في المطار كان ابن شطوطة يلّوح لي من بعيد ويصرخ:كوستا ريكا. انتهت الرحلة وانتهت الحياة.

عدت إلى قضبان الوطن، وكلمة المشرّد تؤذن في داخلي: كوستاريكا!

***

القصة الثانية: الفتاة.
الزمان: ٢٠٠١.
المكان: المقهى الأخضر، ماربيا، أسبانيا.

هذا المقهى له قائمة طعام صيفية، مصممة خصيصاً لتناسب قبائل قريش. لا كحولٌ، ولا كعكٌ معجونٌ بالنبيذ، الأسعار - طبعاً - مضاعفة. مؤمنو قريش يتزاحمون في المكان. ساعتان من الانتظار لكي نحصل على طاولة. صديقي الجالس إلى جنبي، قال بصوت خافت:

لا تنظر إلى يمينك، لن تصدق من دخل إلى المقهى، فتيات لندن، في الصيف الماضي، هن الآن هنا.

حدق صاحبي الثاني فيه، فرحٌ مهتمٌ بهذه البشرى العظيمة. صاحبنا الأول رجع للوراء نافثاً سيجارته في الهواء، انعكاس الرولكس التي يرتديها أصاب عيني. كانت جلسة إثبات وجود، تهدف إلى إيصال رسالة إلى باقي قريش: نحن لا نقل عنكم شأناً ونسافر مثلكم وأكثر. تذكرت أيام تايلند الثلاثة، الراحة النفسية، المتعة، البساطة، الصداقات، الثقافة. شعرت بالاختناق يطبق على رقبتي، لم أعد أحتمل مثل هذا النفاق، أعمل بجدٍ طوال السنة، ثم أصرف مالي هكذا! جاءت الفاتورة، السعرُ باهظ، طلبت من النادل أن ينادي المدير، ارتبك اصدقائي، فأنا أحرجهم أمام الجماهير القرشية، خرجت غضباناً أَسِفاً.

فجأة ظهر «الأنا» مرةً أخرى، أمسك بيدي دون أن يتكلم. قلت مستغرباً: ابن شطوطة! ابتسم وسحبني بقوة وأوقفني أمام مكتب سفريات، دفعني إلى الداخل وتبخر في الزحام. نادتني موظفةٌ إنجليزيتها ضعيفة، جلست أمامها:

أريد أن أسافر.

إلى أين؟

أي مكان مريح.

أنت سائحٌ هنا؟

نعم.

- سائحٌ يريد أن يسافر!

معها حق! أي جنون هذا، أنا مسافرٌ، يريد أن يسافر. كيف أشرح لها بأني مسافرٌ يحمل وطنه معه. تأملتها، كانت عذبة الملامح، شعرها كستنائي مرسل، تميل إلى البياض، عيناها سوداء واسعة. شعرت أني في حضرة جمال عراقي وليس أسباني.

- أنا هنا مكبلٌ بأصدقائي، مسيّجٌ بقبيلتي، لا أشعرُ بالسفر.

تريد طبيعة واسترخاءً؟

- ليس بالضبط، أريد مغامرة جديدة، أريد أن أشعر بالتغيير، أن أتقاسم الحياة مع أناس لا أعرفهم.

صمتت طويلاً، استجمعت شجاعتها وكلماتها وقالت:

- لديَّ مكان، لا أريدك أن تظن بأني اخترت هذا المكان، لأنه بلدي. بل لأنه مطابقٌ لرغبتك.

- غريب ظننتك أسبانية، فأنت تتكلمين الأسبانية بطلاقة!

- في بلدنا نتحدث الأسبانية.. أنا من أمريكا اللاتينية، من كوستاريكا!

فوراً، تذكرت وجه المشرد. طلبت منها مهلةً للتفكير. ظهر قريني: ابن شطوطة. زنّ

في أذني: ماذا استفدت من العقل والتعقل؟ لماذا تؤجل جنونك؟ جبان، يجب أن تكون هناك مرةٌ أولى. قرين السوء يريدني أن أنتقل إلى قارة أخرى. رفعت عيني إلى السماء مردداً: اهدنا الصراط المستقيم.

***

عبرت بوابة مطار كوستاريكا[1]، هَرَبَتْ الأشباح، شعرت بأني بالونٌ خفيف يطير مع الهواء، نفسيتي تمددت وانشرحت. أخطو بلا ثقل الغربة، أتبادل الإبتسامات بلا تكلف. لم أشعر بأي وحشة، أدركت أني أنتمي لهذه الأرض من الوهلة الأولى.

مضى الباص صامتاً يقطع صباح سان خوسيه (عاصمة كوستاريكا). من الغريب أن تلتقي عاصمةً هادئة، الوجوه تغمرها السكينة، البيوت متراصة وساكنة، الأطفال وحدهم يوزعون الحيوية على المدينة. نزلت إلى قلب المدينة، لم أكن خططت لشيءٍ: سكن، أكل، نشاطات. وددت أن اسمح لهذه المدينة أن تفاجئني، أن أعرف قوة حدس المشرد، وصحةَ رأي الحسناء.

في ساحة المدينة، أنزلت حقيبتي، شرّعت ذراعي في السماء، أعانق المدينة، أحتفي بهروبي من السجن. أنا حرٌ أخيراً، تفصلني محيطات عن أهلي ووطني، أنا الغريب، أنا العابر، أنا النكرة، أنا أنا. راحةٌ لا توصف، أنستني الضياع. حملت شنطتي ومضيت، حينما تكون بلا هدف، فإن كل الجهات الأربع تقبلك، كل الأرصفة تحملك. وجوهٌ مفعمة بالطيبة، لم أجرؤ على الحديث معها، أنا لا أعرف من الأسبانيةإلاّ: السلام، الوداع، بونيتا (جميلة)، ريباخو (خصم)، في أسبانيا لم نكن نحتاج لأكثر من هذه الكلمات، كنا نقضي وقتنا في تباهينا أمام بقية العرب المستعربة. اشتريت من

---

١. كتابي «تسكع على الخريطة» تطرقت إلى يوميات في كوستاريكا. والكتاب من إصدار ذات السلاسل - الكويت.

مكتبة قاموس الجيب (إنكليزي - أسباني). فتحت القاموس، ركبت جملتي الأولى:

- أبحثُ عن فندق. Busco hotel.

أشعر بطعم حليب أمي في فمي، تعلم لغة جديدة يعيدك للطفولة، الحبو والحليب وكلماتك الأولى. تركيب الجمل البدائية، البحث عن معاني الكلمات. جلست في مطعم يبيع الدجاج المشوي. استمعت للناس يتحدثون من حولي، حاولت أن أقلّد نطقهم دون أن أفهم شيئاً. لا بأس، في طفولتي فعلت ذات الشيء، الفرق الآن أن لساني تصلب، تقليد اللهجات يتطلب أن تعيد تمرين لسانك من جديد. لاحظت أن الناس يسلمون على بعض بكلمةٍ لا تستخدم في أسبانيا: بورا فيدا. استجمعت شجاعتي وسألت رجالاً منغمسين في الدجاجة المشوية:

- بورا فيدا.. بوسكو هوتيل.

نظروا إليّ باستغراب، دون أن يتخلّوا عن لطفهم، قال أحدهم بصيغة استفهامية:

قرينقو[٣]!

حدقت بجهل، لم أعرف بماذا أجيب، تدخل الآخرون، وفهمت من حديثهم، أن هناك فنادق في الناصية المجاورة. اللغة الأسبانية، تُسمَعُ وتُقرأُ كما تُكتبُ، لا حروف مهملة مثل الإنجليزية. لذا محاولة تعلم الإنجليزية على الأسبان شاقة. الإنجليزية - لغة غبية وغير منطقية، السبيل الوحيد لتعلّم كلماتها هو حفظ التهجئة. وقعت عيني على لافتة: لينجويستا - إينستيوتو ديل إنجليز، لم تكن بحاجة إلى تخمين، كان معهد لغات. تذكرت في تايلند الأجانب الدارسين في معاهد اللغات، يسكنون عند عوائل محلية (كما يفعل الطلبة العرب في بريطانيا وأمريكا). قطعاً سأجد من يتحدث الإنجليزية هنا. درج رطب قديم، شقتان متجاورتان عليهما اسم المعهد،

---

٣. Gringo كلمة يطلقها المكسيكيون وبعض دول أمريكا اللاتينية على البيض القادمين من الولايات المتحدة، يقال أن أصل الكلمة جاءت من الحرب الأمريكية المكسيكية حينما كان جيش الولايات المتحدة يغني أغنية Green Grow the Rushes، فالتقط المكسيكان أول كلمتين من باب التهكم وأصبحو يسمونهم قرينقو، والكلمة منتشرة بشكل كبير، وقد يشعر بعض الأمريكان بالإهانة من استخدامها ضدهم. وفي مدريد يطلقونها أحياناً على القادمين من إيرلندا.

دخلت فوجدته يمور بالشباب، أجانب يتعلمون الأسبانية، وكوستاريكيون يتعلمون الإنجليزية. قابلت فتاةً ألمانية، اقترحت عليّ:

لا تذهب إلى فندق، المعهد لديه اتصال مع عدد من العوائل المضيفة، العائلة تكلفك بالأسبوع مئة دولار تشمل الغرفة والوجبات وغسيل الملابس.

أردف شاب أوروبي آخر:

ولست مضطراً إلى التسجيل في المدرسة وحضور الدروس، بإمكانك أن تختار العائلة فقط. وددت لو أفعل ذلك لكني مضطرٌ لتعلم اللغة بأسرع وقت.

نحن نلتقي على الغداء يومياً، نجتمع في الساحة بجانب زاوية الشطرنج، ننطلق منها إلى الغداء وشوارع المدينة.

اتفقت مع إدارة المعهد على خيار العائلة المضيفة. خلال ساعتين، دخلت ماريا. في أواخر الخمسينيات، لها وجه مريح، شعر قصير، ممتلئة القوام، من أصولٍ أسبانية. قدمتها لي موظفة الاستقبال على أنها أمي الجديدة.

٢

دعونا نختصر آلاف السنين في بضع سطور.

قبل عشرات آلاف السنين، كانت سيبيريا متصلة بألاسكا بجسر بيرينغ الثلجي. قررت مجموعة من سكان سهوب آسيا عبور روسيا إلى أمريكا للمرة الأولى. عبروا من الثلج إلى الثلج، هل انهار الثلج بعدها وعزّت عودتهم؟ لا أحد يعلم. ثم هربوا من الثلج إلى الشمس، عبروا كندا والولايات المتحدة، اختاروا أدفأ مناطق أمريكا وأخصبها: المكسيك. أُطلق عليهم شعب **الكلوفيس**. خلال آلاف السنين، انقسموا إلى شعوب وقبائلٍ، تعاونت وتقاتلت.

بنوا حضارات عريقة، اخترعوا ديانات، غازلوا النجوم وغزلوا منها تقاويم. زرعوا الذرة والفلفل والفول. عاشوا بلا خيولٍ وأبقارٍ. عاشوا منفصلين تماماً عمّا يجري في الشرق الأوسط وأوروبا وآسيا.

على الضفة الأخرى، في الجزيرة الآيبيرية (أسبانيا)، قام الكاثوليك بمجزرتهم الثقافية الأولى. تدمير الثقافة العربية وإقامة الثقافة القشتالية (الأسبانية) على أنقاضها، مستعملين كل وسائل الرعب ومحاكم التفتيش لإطفاء رائحة العود العربي ومحو كل «ضادٍ» منقوش. بعثوا إرسالياتهم للقضاء على الهند المسلمة، ومصادرة زعفرانها وهيلها. لكن كريستوفر كولمبس وصل إلى أمريكا اللاتينية. ظن أنه وصل إلى الهند، ومات وهو يعتقد ذلك. لذلك أطلق على سكان أمريكا لفظ الهنود، وحرفت التسمية إلى الهنود الحمر.

حينما وصلت خيول الأسبان إلى المكسيك، وقفت على الجبال المطلة على المدينة، رأت منظراً ساحراً: جزر مائية مربعة، مقسمة بطريقة هندسية، متصلة مع بعضها بجسور، تتهادى مراكبٌ بينها، جزرٌ مزروعة، وأخرى معمرة، في قلبها أهرامات ضخمة، منظراً يخلط فينيسيا بالجيزة بغرناطة. انقضوا على هذه الحضارات بنهم، سلبوا الذهب، ذبحوا الملوك، سبوا النساء. دمروا الثقافة الأزتكية كما دمروا الثقافة العربية من قبل، سواء بحرق مصنفاتهم[٤] أو قتل سادتهم، أجبروهم على اللسان الأسبانيولي، وأرغموهم على الصليب، فكانت النتيجة قارة مستعبدة ذليلة، ذات ديانة واحدة ولسانٍ واحد.

---

٤. في عام ١٥٣٥ ميلادي أمر زوماراجا (أول أسقف أسباني لكنيسة في المكسيك) بجمع كافة مخطوطات الأزتك من أسواق مدينة المكسيك، لأنها تخالف العقيدة الكاثوليكية، آمراً بحرقها، ولم يسلم منها سوى ستة عشرة مخطوطة. وللأسف، فإن هذا النهج انتشر وقتها في عدد من الحضارات الأخرى حول العالم، فأصبح المنتصر يلغي ثقافة الآخر نهائياً كجزء من انتصاره.

كان الأسبان يبحثون عن الحضارات والدفء (لأنهم جاؤوا من بلدٍ مشمس). ركزوا على الأراضي الممتدة من المكسيك إلى بيرو، وهجروا الأماكن الباردة والفارغة في الشمال(أمريكا وكندا) والجنوب (الأرجنتين وتشيلي). بعد مئات السنين، اشتعلت أوروبا حروباً، فانتقل أهلها مهاجرين إلى الفراغات في العالم الجديد المسالم، أمريكا الشمالية والأرجنتين، بينما بقيت منطقة المنتصف تُصْلى عذابات الاستعمار. حمل المهاجرون ثقافة أوروبا في العمل والإنتاج والمساواة والديموقراطيات معهم، دخلوا في حروب داخلية مطولة، لكنهم في آخر المطاف استقروا. أما المستعمرات الأسبانية القديمة في المنتصف كانت بحاجة إلى زمن أكثر، وطريقٍ أكثر وعورة: بدءاً من طرد الأسبان ثم تثقيف وتنظيم أنفسهم سياسياً، مروراً بمحاولتهم لصد هيمنة الولايات المتحدة على خيراتهم، وانتهاء بدفع عجلة الإنتاج والتطور. الكثير من هذه الدول دخلت في الإنتاج والتطور، منها المكسيك والبرازيل وكولومبيا، ومنهم من ينتظر.

في الشارع، وقفنا أمام لوحة صغيرة تحمل أرقام الحافلات، علمتني ماريا أرقام الحافلات التي أركبها للوصول إلى المنزل، كتبت لي على ورقة عنوان المنزل، وطلبت مني حفظ العنوان عن ظهر قلب. علمتني دروس الحياة العملية: احمل معك نقوداً معدنية، في الحافلة اجلس بجانب النساء، احذر من الواقفين في منتصف الباص، وزّع نقودك في مكانين، تجهز قبل نزولك، افتح الخريطة وتتبع مسار الحافلة لتحفظ أسماء الشوارع، ساعد النساء في حمل الأكياس، وسع المقعد للعجائز، وأخيراً عليك

الرحلات أن تتوثق مرةً أخرى، أكدت عليّ بثقة الآسيوين ودقتهم أنّ هذا موعد الرحلة. تركت مكتب تحويل الرحلات في مطار بأنكوك، متلفتاً حولي، باحثاً عن شيء مجنّح ينزل من السماء ينقذني. وصلت من أستراليا ظاناً بأن الترانزيت ثلاث ساعات وبعدها إلى الكويت. تبين لي بأن خطأً ما في الحجز يرغمني على الجلوس ثلاثة أيام. جلست في ركن ضيق، أخرجت ما في حوزتي عملات: دينار كويتي، دولار أمريكي ودولار أسترالي، المجموع اثنان وثمانون دولاراً وعشرون سنتاً، فقط لا غير. كيف يمكنني أن أتدبّر ثلاثة أيام بهذا المبلغ.

الاتصال الدولي يحتاج شراء بطاقةٍ سعرها عشرون دولاراً، هل سيردّون على اتصالي؟وكيف سيحولون لي المبلغ؟ هل أُلقي بنفسي بين تجمعات العرب وأستلف مبلغاً؟ هل أتّصل بالسفارة الكويتية؟ أثناء التقليب والتفكير، وقعت عيناي عليه، شابٌ مشرد، نائمٌ على الأرض، متوسدٌ شنطة ظهرٍضخمة، شعيرات لحيته الشقراء نابتة، قبعته ملقاة إلى جانبه. هل أطلب من مشردٍ مالاً! طردت الفكرة من رأسي. توضأت، رجعت إلى زاويتي، صليت ركعتي إنقاذ، أخرجت الكرسيّ والمعوذات من داخلي، قوّيت أملي بأدعية بطن الحوت. رفعت بصري إلى السماء، لم يأتِ المخلوق المجنّح لإنقاذي. وحده المشرد الأشقر، فتح عينين خضراوين، ومد ذراعيه في كسلٍ، بدا لي غولاً علجاً، تَثَاءَب بعاصفة كادت تبتلع ما حوله. هدوؤه يقتلني، المطار في حركة ديناميكية، عدا هذا الثابت الجامد. انتبه لتحديقي فيه، فنبهني بسخرية:

أنا حرٌ حالياً، تستطيع أن تواعدني إن أردت.

صحوتُ من سهوي، وابتسمت لدعابته، اقتربت من الغول المشرد، شرحت له حكايتي، ضحك كأحد قراصنة الفايكنغ، قال:

أعطني نصف هذا المبلغ وسأعيش في تايلند أسبوعاً كاملاً، مع مساجٍ يومي!

- أنا لا أمزح معك.

- وأنا جادٌ كذلك.

- وكيف يكون ذلك؟

أخرج ورقة وقلماً وسأعلمك السر.

أخرجت الورقة والقلم، كتلميذ خائفٍ نجيب، أصغيت إلى خطّته وخطواته. لا خيار لي إلا اتّباع مرشدي المشرد. تقاسم معي بسكويتاً وقطعاً من المانجا المجففة، سألته عن حياته وأسفاره، مهندس ميكانيكي، ترك عمله، وقرر أن يهيم لمدة سنتين انقضت سنة، دون أن يشعر بها، وبقيت أمامه سنة، سألته:

- أي بلاد الله أجمل؟

- قطعاً «كوستاريكا».

- كم قضيت فيها؟

- لم أزرها بعد.

- وكيف علمت بأنها أجمل بلاد الله.

الحدس يا صديقي. هناك علاقة بين الأرض والبشر، كلاهما من تراب، نعرف الأرض قبل أن نلتقيها، تنادينا وتغوينا قبل أن نطأها.

تركت شنطتي أمانةً لديه، ذهبت إلى الحمام، شنطتي يتيمة في مكانها، وملهمي ذهب مع الريح دون أن أعرف اسمه.

ظهر أمامي «أنا». توأمٌ يشبهني تماماً. يجلس بجانب شنطتي. يرتدي نظارة ويقرأ كتاباً قديماً. تسمّرت أمامه. أنزل كتابه ونظارته عن عينيه. أمرني بثقة:

اتبع نصائح المشرد. لا حل لديك.

- من أنت؟

- صديقٌ قديم، اسمي ابن شطوطة.

تركني وذاب في الزحام.

الأرجنتين

. . . . خط سير المؤلف.

- البحيرات السبع: آخر نقطة توقف فيها جيفارا في الأرجنتين.
- أرض النار: مسقط رأس إيليه.

البرازيل
تشيلي
الأرجنتين
ساكرمنتو دي كولونيا
بوينس آيرس
البحيران السبع
جزر الفولك
أرض النار
أوشوايا

الجبَّارة المُهترِئة

المكان: الأرجنتين.
الزمان: ١٩٥١.

مجنونان، والجنون جزءٌ من النجاحات العظيمة. يركبان دراجة نارية متضعضعة، يسميانها «الجبارة»، والتسميات تضفي على الفشل نكهة العظمة. يعتمران قبعتين جلديتين ويضعان نظاراتين مدورتين، خلفهما هرم من الأشياء: ملابس، خيمة، لحاف، متّة[٥]، جروٌ، إطار احتياطي. الشاب الأول: ألبيرتو، درس الكيمياء. والثاني: إرنستو جيفارا. تقاسيمهما تشبه أهل الحوض المتوسط: أسبانيا وإيطاليا.

انطلقا بـ«الجبارة» - موديل ١٩٣٩ - في الطريق العام، تلعب الريح بتوازنهما، تاركين «قرطبة» و«بوينس آيرس» الغنية، ذات الطابع الإيطالي، عازمين إلى تشيلي. شعرا بقدرٍ هائلٍ من الحرية، صاروخٌ تحرر من الجاذبية الأرضية منطلقاً إلى سواد الفضاء. لم يكونا يعرفان ما يريدان تحديداً، اتفقا شفهياً على الوصول إلى أمريكا الشمالية، دون خطة واضحة. سيطرت عليهما فكرة السفر المجنون، فلسفة إبليسية حكيمة توسوس لهما: لماذا تؤجل جنونك إلى سن الحكمة! لم يكونا يتخيلان أنهما سيقطعان مسافة ٨,٠٠٠ كيلو في هذه الرحلة (المسافة من دبي إلى مراكش).

توقفا لعدة أيام عند «تشيشانا» عشيقة جيفارا، في المزرعة الصيفية لعائلتها

٥ مشروب عشبي ساخن، يشرب بأعواد حديدية، ينتشر في الأرجنتين والأوروغواي والباراغواي وجنوب البرازيل.

البرجوازية، تزوّد منها بالطعام والقُبَل، لم تتفهم المسكينة الجميلة جنون عشيقها، لماذا يسافر ويتركها؟ لم يستطع عقلها البرجوازي تفهم المغامرة الطائشة. أكلا طريقهما وسط تعثرات وسقطات - بلغت تسع سقطات في اليوم - إلى بيرلوتشي (إقليم البحيرات السبع)، من أجمل بحيرات العالم وأزهاها. أثناء مبيتهما في حديقة عامة، عرض عليهما حارس الحديقة السمين أن يساعداه في تنظيم حفل شواء ضخم، مقابل حصولهما على اللحم الفائض كزوّادٍ لرحلتهما. سرقا زجاجات النبيذ في الحفلة وأخفياها في حفرة. بعد انقضاء الحفلة لم يجدوها، فاكتفوا باللحم للطريق.

بدخولهما إلى تشيلي، بلغت نشوة جيفارا ذروتها، كتب في مذكراته: «***والآن أشعر أن جذوري العظيمة مقتلعة..***». هنا تعلم جيفارا الفصل الأول في كتاب الرحلة: «كيف تقنع الناس باستضافتك؟». هو وصديقه يختلقان الحوارات أمام الغرباء، إما لإثارة فضولهم أو استدرار عطفهم ليحصلوا على منامة دافئةٍ ووجبة. ولأن أهل تشيلي مشهورون باللطافة والكرم، لم يجدوا صعوبة في الحصول على وجبات دسمة ومنامات مريحة.

تطوعا للعمل في إحدى مشافي الجذام، تصدرت صورتهما صفحة إحدى الجرائد مضافاً إليها تعليقات تشجيع ساخنة. اشتهروا بين الناس، أصبحت أمورهما أيسر وأسهل. كانا يقضيان وقت فراغهما بالاندماج مع الناس، لعب الكرة، القراءة في المكتبات العامة.

دون أن يشعر جيفارا، كانت هذه الرحلة تنحته، تحوله من شاب غضٍّ مترف، إلى رجل صلبٍ. تعبر به من حرير الأغنياء إلى صوف الفقراء.

حينما وصلا إلى مناجم تشيلي الغنية - تستحوذ عليها الشركات الأمريكية - تقطعا حسرةً وألماً على حال العمال في المناجم، ساعات عمل لا تنتهي، ظروف كئيبة، أحوال صحية سيئة، العشرات من الموتى شهرياً، أجور متدنية. وجدا على الطريق

رجلاً وزوجته على سفح، بالرغم من رثاثة الزوجين إلا أنهما دعوهما لمشاركتهما فتات الأكل. استغرب جيفارا من كرمهما، وأعلى الكرم ما يكون مع الفاقة. الزوج سُجِنَ لثلاثة أشهر بسبب انضمامه للحزب الشيوعي المُجَرّم في تشيلي. خرج هو من السجن بينما رُمِيَ باقي رفاقه في البحر. ترك أولاده عند جاره، وجاء مع زوجته يبحث عن عمل. لم يحتمل جيفارا رؤيته مع زوجته في برد الصحراء، تبرع لهما بلحافه، وتدثر هو وألبيرتو بلحافٍ واحدٍ في صقيع الصحراء، متأملاً حال هذا الرجل وزوجته، يأتيان للعمل في أغنى مناجم العالم، الملايين تذهب للشركات الأمريكية والشعب يحصل على الفتات! (كانت تشيلي تصدر ٢٠٪ من نحاس العالم).

رحل جيفارا من أجل المتعة الخالصة، لكن تحسس البؤس جعله يتأمل ويتألم: كيف عاش كل هذه السنوات متجاهلاً الضنك الذي يعيشه جيرانه في القارة؟ كيف لا يهتم الآخرون بالظلم الذي يملأ المعمورة؟ أي أنانية تنغمس فيها الشعوب المرفهة.

كان من المستحيل عبور صحراء تشيلي الأكثر جفافاً في العالم. حاولا ركوب سفينة تقلهم إلى شمال تشيلي، لكنهما لم يملكا الثمن. انتظرا طوال الليل بجانب الرافعة التي تنقل البضائع إلى أن حانت لحظة القفز والاختباء في حمام السفينة. رائحة الحمام ساءت بعد إقلاع السفينة، وانتابت ألبيرتو حالة إفراغ، اضطرا للخروج وتسليم أنفسهما للقبطان، الذي حكم عليهما بتنظيف السفينة وتقشير البطاطا.

أنزلتهما السفينة، أكملا نصف الطريق مشياً ونصفه عبر شاحنة أوصلتهما إلى أرض المناجم.

في تشيلي، أعلنت الجبارة استسلامها، اشتراها منهم ميكانيكي على الطريق، كيف سيكملان الطريق؟

ادّ رحلتين

أبَداً أقْطَعُ البِلادَ وَنَجْمي ... في نُحُوسٍ وَهِمّتي في سُعُودِ

وَلَعَلّي مُؤمّلٌ بَعْضَ مَا أبْـ ... ـلُغُ باللّطْفِ من عَزِيزٍ حَمِيدِ

«اللاتينيون عاطفيون جداً. في شوارع البرازيل، سيلقون عليك الورد. في الأرجنتين، سيلقون عليك أنفسهم!»

مارلين ديتريتش
ممثلة ومغنية أمريكية شهيرة في السبعينيات

أكفانُ الفقيرِ

وصلت الأرجنتين في الثامنة صباحاً. زيارتي الأولى. قراءة المدينة من شباك التاكسي تؤكد أن المدينة بعيدة عن أمريكا اللاتينية، قريبة من أوروبا. العمران كلاسيكي راقٍ ومعتق، العاصمة أشبه بحيٍ باريسي منسي، فلل صغيرة من ثلاثة أدوار، تشمخ بالأعمدة الرومانية والأقواس الفرنسية واللمسات الباروكية، لا أثر لعمران حديث متطاول. أقلني التاكسي إلى منزل في ضواحي العاصمة بوينس آيرس، نزلت لأقرع الجرس، فوجدت عند بابِ المنزلِ شاباً وفتاتين يقرعون الجرس، ويطرقون الباب الحديدي بقوة، يقذفون النافذة، ويصرخون:

«إيليه»، «إيليه»، افتح الباب...

كنا في شهر سبتمبر، الجو باردٌ، الشتاء في سكرته الأخيرة. نظروا إليّ وأنا أضع شنطتي على ظهري ماشياً نحو الباب في «ثقة»، «الثقة» هي التي تنفي عنك تهمة الغربة، سألتني الفتاة بتوجس:

تبحث عن «إيليه»؟

لا أنا من أجل إليخاندرو.

إيليه هو اسم الدلال لإليخاندرو، غريب الكل يناديه بـ «إيليه» لماذا تناديه

---

١ نشرت مقالاً في مجلة العربي الجديد: بعنوان الفقير يأكل لحماً. وهي تختلف في مضمونها عن هذا الفتح. فتح الأرجنتين ٠٠٠م في العام ٢٠١٣، وتكرر في العام ٢٠١٤.

بأليخاندرو.

أجبتهم بثقة «الكويتي» المعهودة:

- ظننتكم لا تعرفونه، فاستخدمت اسمه الرسمي، هل أنتم أصدقاؤه؟

قالت الأولى:

أنا لا أعرفه.

أكمل الشاب:

- أنا أيضاً، لكن هذه (مشيراً إلى الفتاة الثانية) تعرفه جيداً، وقد طلبتُ منهُ منزله للتصوير، نحن نعمل في مجال تصوير الملابس.

- لهذا يبدو شكلكم جديداً على المكان. إيليه شابٌ طيب وسيسعد بخدمتكم.

انغّروا بخدعتي، ظنوا أني أعرف المكان. لم يعلموا أنها ساعتي الأولى، في منزله والبلاد. الفتاة التي تعرف إيليه كانت تنظر إليّ بريبة. سألتني:

- ما دمت صديقاً لإليخاندرو، لماذا لا تتصل به؟

انتهى شحن جوالي.

ألقت نظرةً على شنطتي «سمرقند»[٧]، قالت لي:

- لماذا لا تطرق باب المطبخ الخلفي؟

- شنطتي ثقيلة.

قالت بانتصار:

- كذّاب. إيليه ليس لديه جوّال. والبيت ليس له بابٌ خلفي!

حينما تنهزم وأنت تعزف على «مقام» الثقة، انتقِل برشاقة إلى مقام المزح. قلت بشبح ابتسامة ساخرة:

- أنتِ أذكى من رأيت. عقلية منتزعةٌ من «أجاثا غريستي». لم ألتقِ إيليه من

٧. يروق لي أن أدلل حقائبي بأن اسميها باسماء المدن. وسمرقند اسم اطلقته على شنطة ظهر فئة ٦٠ ليتراً.

قبل، يبدو أنه محاطٌ بأصدقاءٍ أذكياء.

راقها الإطراء، أرجعت البصر كرةً أخرى إلى سمرقند:

- تحملُ شنطتك وأغراضك، هل تنوي المبيت هنا؟

- نعم.

- وكيف تبات في منزل شخص لا تعرفه؟

مممم ... تواصلت معه عن طريق Couchsurfing.

نظر الثلاثةُ إليّ بتوجسٍ، قال الشاب:

لا أعرف مالذي تتحدث عنه، لكن من أين أتيت؟

- من الكويت.

- وكم تبعد هذه عن بوينس آيرس (ظناً منهم أن الكويت مدينة أرجنتينية).

عشرون ساعة تقريباً.

بالباص؟

لا بالطائرة.

نظرات الاستغراب التهمتني، لم يعُد لي مقامٌ أعزف عليه. في هذه اللحظة فتح الشباك العلوي، ليطل منه شاب أشقر طويل، يفرك عينيه في كسل ولا مبالاة. هللوا جميعاً لرؤية إيليه، إطلالته كانت كفيلة بإنقاذي.

ما هي فكرة «ضيافة الكنبة» (CouchSurfing)؟

قبل ولادة الانترنت، كان الرحالة الاجتماعيون المهتمون باكتشاف المجتمعات من الداخل يواجهون صعوبة في التعرف على الناس والسكن عندهم. وهذا نوع الرحلة الذي أقترفهُ شخصياً، سفرٌ يكشف

الوجه الحقيقي للمجتمع. مهمة شاقة جداً، تتطلبُ الابتكار للتلصصِ على حياة الناس بِحيلٍ واهية. كانت هذه المهمة تحتاج منا بين ٦ إلى ٤٢ أسبوعاً بحسب قدرات كل رحالة ودرجة انفتاح كل مجتمع. مع دخول عصر الانترنت، قام أحدهم بفتح هذا الموقع، الذي يسمح لك باستضافة أحدٍ في منزلك، أو السكن لدى الآخرين مجاناً، حيث يضع كل شخص ملفاً تعريفياً عنه، ثم يبدأ في التعرف على الآخرين والتواصل معهم، لكن لا تنتظر أكثر من كنبة صغيرة في صالون البيت للنوم عليها.

وجدتها تجربة ناجحة، تختصر علي أسبوعين من محاولات اختراق المجتمع، إذ أجد نفسي - ومجاناً - داخل أحد البيوت من اليوم الأول، وذاك ترفٌ لا أعرف كيف أشكر الانترنت عليه.

استقبلنا إيليه، طويل القامة، ذقن أشقرٌ لم يُحلق، ملابس مدعوكة، شعر أشقرٌ ناعمٌ رث، يبتسم ويحكّ شعره باستمرار، فيه شيء يشبه جيفارا. طلب من الشباب الصعود إلى السطح للتصوير. أدخلني صالة المنزل, فيها كمبيوتر قديم، طاولة طعام عليها بقايا معلبات، قطة تعيث فساداً في المكان، أريكتان معتقتان بينهما طاولة صغيرة، بقايا شمع ذائب في كل زاوية، أشار إلى الأريكة:

- هنا سريرك ومكانك. هناك المطبخ، وهذا الحمام. عذراً لم نغسل الحمام منذ فترة، فأنا وأخي نستخدم الحمام العلوي. إذا لم تجد ماءً ساخناً، بإمكانك أن تسخن ماءً من المطبخ.

حكّ شعره وعيناه تغوران كسلاً:

- كريم، سأرجع للنوم، هذه نسخة من مفتاح البيت، افعل ما يحلو لك، لا يوجد ممنوعات في هذا المنزل.

- شكراً إيليه على كرمك، وعذراً على تطفلي، من يقيم هنا معك؟

- أخي. هذا المنزل منارة للحرية، فنحن نعيش بلا والدين، مسقط رأسنا من «أرض النار»[٨] في الجنوب، حيث يعيش والدي. اكتريت هذا المنزل مع أخي. منزل قديمٌ وكبير، استأجرناه بثمن بخس. وحولناه إلى ثكنة للأصدقاء، كل من يجد فراغاً يقرع الباب ويدخل.

البيت نسخة قذرة من «شقة الحرية»[٩]. يعجُّ بالزوار طول الوقت، مما يحرمك النوم، ويرزقك الصداقات. إيليه شبه مفلس، يعمل من المنزل في البرمجة، هو وصديقه يصممان برامج للشركات، عملٌ غير مربح، لكنه يشبع فضيلة الكسل والتمتع بالحياة. ليس لديه موبايل بالرغم من عمله في تقنية المعلومات! يحب لقاءات الشباب في منزله. لا يحب الخروج من المنزل إلا للسفر! درس في الولايات المتحدة فترة، لم يحتمل غباء الأمريكان الاجتماعي، فرجع إلى الأرجنتين.

نظفت كنبتي/بيتي. ألقيتُ نظرةً على المطبخ والحمام. سأعيش هنا لمدة ٤ أيام، سكنٌ وأصدقاء، لا حاجة للتسكع في الشوارع تسولاً لحوارٍ أو صديقٍ مؤقت يكشف لي خبايا المدينة وأسرارها. كنت أتضور جوعاً. والتميرات السكرية التي أحملها قررت أن أهديها لإيليه. صعدت إلى الأعلى حيث التصوير، كانوا يصورون شيئاً إبداعياً على وصفهم.عرض أزياء لملابس صيفية تلبس في الشتاء. عزفت على مقام «المَسْكَنَةِ» وأنا أتحدث عن رحلتي الطويلة والجوع، لم يهتموا لأمري. عزفت على

---

٨. منطقة في أقصى جنوب الأرجنتين، تعتبر أقصى مدينة مأهولة في جنوب الأرض، يقال بأن اسمها كان أرض الدخان، نسبة الدخان النار الذي رآه مستكشف برتغالي مر بها، حيث كان أهلها يشعلون نيراناً ضخمة. وكانت في الماضي قاعدة عسكرية، وهي اليوم مدينة سياحية وبوابة للقطب الجنوبي.

٩. رواية كتبها غازي القصيبي، تحكي مجموعة شبان مثقفين يتقاسمون شقة في قاهرة السبعينات، وتستعرض الأفكار المنتشرة وقتها.

مقام «الاستفزاز»:

- قالت لي صديقةٌ تشيلية بأني سأخسر وزناً في الأرجنتين، بسبب رداءة فطورهم.

التفتوا إلي بحنق، نجحت الخطة معهم. سردوا لي أنواع وجبات الإفطار. انتبهت فتاة «أجاثا غريستي» للمطب:

- ألا تعرفونه، لقد كذب عليكم عند الباب، و يكذب من جديد!

قلت لهم مبتسماً:

- أتضور جوعاً، وأريد أن آكل.

قالت الذكية:

- لماذا لا تحب أن تكون صريحاً، لماذا تقسط أفكارك هكذا؟

- من باب الأدب والذوق.

- جرب الآن وقل ما تريده لنا بشكل مباشر؟

أنا جائع وأريد أن آكل.

- كذابٌ مثلك لايستحق الـ «ميجا ساندويتش» اللذيذة، لكني مدفوعة بطيبتي سأسمح لك بتذوقها. ارتدي شيئاً دافئاً وسنخرج حالاً.

التفتت على أصدقائها:

- لا يُسمح لكم بالاعتراض، لأني سأحضر لكم إفطاراً ريثما يجلب كارليتوس الفلاشات.

شخصية الفتاة الأرجنتينية تميل إلى الأسد قليلاً.

***

لا اذكر اسم الفتاة، اسميتها أجاثا واسمتني الـ«مونتيريسو»[١٠]. الأسماء لا تهم. الطريق

---

١٠ مونتيريسو تعني الكذاب باللغة الأسبانية.

إلى محل الساندويتش يستغرق ربع ساعة، لم تسكت خلالها لثانية واحدة. مرشدٌ سياحيٌ يسبب لك الصداع. تتحدث بلهجة أرجنتينية سريعة يصعب عليّ فهمها، لم أجرؤ على مقاطعتها، لأنني لا أملك إلا دولارات وليس معي «بيزو أرجنتيني». كيف سأدفع؟

«ميجا ساندويتش» (بالأسبانية Sandwich de Miga) فكرة بسيطة وعبقرية. عبارة عن رول طويل وعريض من التوست الأبيض، ليس له حواف، تصنع منه ساندويشة ضخمة (٣٠سم×٣٠سم) تقطّع إلى ساندويتشات صغيرة. جدة أرجنتينية تتولى إعدادها. سألتها عن فكرة الساندويتش، باغتتها أجاثا قائلةً بحقد:

يقال أن حفنة من خنازير الإنجليز جاؤوا لمشروع هندسي في بوينس آيرس وطلبوا ساندويتش بالتوست الذي لم نكن نعرفه، فاخترعها لهم شاب بورتيني[١١]. خنازير!

تجاهلت الجدة تعليقي - وهي تغرف من الزبدة من سطل كبير - مكملة القصة:

كان ذلك قبل أن يحاول الإنجليز احتلال أرضنا، يقال أنهم اشتاقوا لسندويتش الخيار[١٢] السخيفة التي يأكلها بخلاء الإنجليز، فصنعنا لهم ساندويتشاً يعكس كرمنا وحبنا للطعام.

لم تسمح لي أجاثا باختيار المكونات، فهي ستطلب للمجموعة، وعليّ مشاركتهم. قلت لها - بكل صراحة هذه المرة - بأني جائع ويجب أن آكل الآن، البيبروني بالماسترد كانت حدثاً تاريخيا ذاب في فمي.

في الطريق أكملت أجاثا حقدها:

---

١١ تعادة أهل أمريكا اللاتينية، يطلق على أهل كل مدينة لقب خاص، سكان بوينس آيرس يسمونهم بورتونيوس Portones، إلى الميناء Porto، وتترجم بالعربية إلى «أبناء الميناء».

١٢ Cucumber English Sandwich توست الجبنة بالخيار التي يأكلها الإنجليز مع شاي العصر.

- الظلم له مراحل، أعلاها الإنجليز. يخطفونك، يغيرون اسمك، يمسحون تاريخك، يغسلون عقلك، ثم يدعون أنهم أحسنوا إليك وطوروك! احتلوا جزر المالديفانز في جنوب الأرجنتين. غيروا اسمها إلى جزر الفولك، هجّروا أهلها. أتوا بمهاجرين من بريطانيا، ثم ادعوا أنها جزر بريطانية! كيف يمكن أن تكون بريطانية وهي تبعد آلاف الكيلومترات عنها. فعلوا نفس الشيء في جبل طارق، وفي فلسطين وفي كل مكان يتواجدون فيه..

- فعلاً نفس الخطوات التي فعلوها في فلسطين! أراكِ حاقدةً على الإنجليز؟

- رصاصة إنجليزي أهون من صفعة ابن عمك. في الوقت الذي احتل الإنجليز جزرنا، احتل الجزار كلنا. الجنرالات انقلبوا على الديمواقراطية، قتلوا كل الشعب باسم قتل المعارضة، قتلوا اقتصاد الأجيال باسم استقرار البلاد. كيف يمكن لعسكري يقود دبابة، أن يقود بنوكاً ومشاريعاً وسياحةً وزراعةً وشعباً فناناً؟ لعشرات السنين أمسكوا البلاد وأذلّوا العباد، حتى هزمهم الإنجليز، احتلوا جزرنا وطردوا جزارنا.. صدقني الإنجليز خيرٌ من الجزارين.

***

كان على المجموعة أن تنهي التصوير باكراً، لأن مباراة منتخب الأرجنتين ضد منتخب إيران (ضمن كأس العالم ٢٠١٤ في البرازيل) ستبدأ في ١١,٣٠ ظهراً، سألوني أين سأشاهد المباراة، كنت قرأت أن الحدائق العامة توضع فيها شاشات كبيرة للمباريات، أشاروا علي بالاستعجال للخروج لكي أصل للحديقة، لم أهتم بذلك، لأنني لو تأخرت سآخذ تاكسي. سألتهم عن السوق السوداء لصرف الدولارات، حملت شنطتي وخرجت.

«السوق السوداء» متعة. مجموعة من الأفراد يقفون في أحد الشوارع العامة،

يحدقون في المارة، يفحصك ثم يرحب:

- تشي[١٣]، كيف أخبار الدولار معك؟

سعر الدولار يتغير كل ساعتين تقريباً، السوق السوداء هي التي تحكمه، وشتان بين سعر البنوك الذي تفرضه الحكومة وسعر السوق، يصل الفرق بينهما لأكثر من النصف. عليك أن تتصرف كرجل عصابات، تختار السعر الأنسب، وتذهب مع «تشي» الذي اتفقت معه على السعر أسفل درج عمارةٍ قديمة لتصرف المبلغ. حينما يصبح المبلغ في جيبك، تكتشف بأن البلد رخيصة جداً، أرخص من كولومبيا والبرازيل وتشيلي.

لفتت انتباهي المقاهي، كلها خشبية، أرضياتها تحكي اشكالاً هندسية معتقة، تبدو أشبه بمقاهي إيطاليا وباريس. بساطة وفخامة في آن واحد. أدركت بأني أعيش في ثقافة أوروبية وليس لاتينية. صحوت من تأملاتي على يد النادل وهو يهزني:

- تشي، حان وقت إقفال المقهى.

كانت الساعة ١٠,٣٠ صباحاً، سألت معترضاً:

- لكن الوقت ما زال مبكراً..

لا تلفاز في المقهى، ومن حقي أنا وزملائي أن نتابع المباراة.. ألسنا بشراً؟

أهلا وسهلا بكم في الأرجنتين!

***

خرجت من المقهى، الشوارع فارغة، المحلات بدأت تقفل، حتى أن سوبرماركت

---

١٣. كلمة تشي تطلق على أي شخص في الأرجنتين، ولا علاقة لها بالرفاق ولا الاشتراكيين، بل هي كلمة شارع.

ضخم من سلسلة تارجت Target كان يقفل هو الآخر. لاشك بأن الشركة الأم لا تعلم عنهم شيئاً. الشوارع مملوءة بالتاكسيات، التي ترفض أن تتوقف لأحد، كلهم متوجهون إلى منازلهم لمشاهدة المباراة! وخلال دقائق، تحولت بوينس آيرس إلى مدينة أشباح، ليس فيها إلا بدويٌ واحد يحث الخطا نحو حديقة تبعد عنه أكثر من ثلاثة كيلومترات. لمحت من بعيد زحمة بشر، سيارات شرطة، وإسعاف. امتلأت المدرجات بآلاف البشر. تعلمت من أجاثا أسلوب المهاجمة والمصارحة، ذهبت للمسؤول، أريته بطاقتي:

أنا ضيفٌ من بلد بعيد، وأريد أن أحضر المباراة، لأنقل للعالم حب الأرجنتينيين للكرة.

ضحك، وأوقفني جانباً مع الداخلين. تنظيم الدخول والخروج، وجوه المشجعين مصبوغة بالأبيض والأزرق، أعلامٌ مرفوعة، صور اللاعبين، شنط الطعام، عاشقة مراهقة في حضن حبيبها، فتاة مكسورة الرِجل، عجوز سبيعنية. شعرت بأني أحضر المباراة الفعلية وليس نقلاً للمباراة. محسوبكم - بفضل الله - يكره الكرة. آخر مباراة حضرتها كانت سنة ١٩٨٩ ونمت في الملعب!

المباراة هناك عبارة عن حفلة كبيرة، الكل يعرف بعضه وإن لم يلتقوا مسبقاً! هم فوضويون، لكنهم يغنون ويصفقون في أوركسترا منظمة في الملعب. هم ثرثارون، لكنهم يصمتون في خشوع وقت ركلة الجزاء. هم مسالمون، لكنهم همجيون في حالة الخسارة. جبت الأرجنتين كلها وحيداً دون خوف، لكن حينما أذهب إلى مباراة في لابوكا، فإني أذهب برفقة أرجنتينين خوفاً مما يحصل لي في حالة الخسارة!

جلست بجانبي فتاتان مراهقتان، تحللان خطة المدرب في المباراة السابقة بشكل دقيق، وبشكل يجعلني أشعر بالحرج من قلة معلوماتي الرياضية. وأزعم بأن اهتمام الأرجنتينيات بكرة القدم يشكل ظاهرة تستحق الدراسة! (تحذير وتنويه: إياك، ثم

إياك، ثم إياك أن تتفاصح أمام فتاة أرجنتينية بمعلوماتك الكروية مهما بلغ عمقك ومستواك.)

ناولتني جارتي كأساً ساخناً يرتفع منه عود معدني، حان وقت «المتة»، الكثير من الحاضرين مع قناني «المتة»، يملؤون الكأس ويديرونه على من حولهم دون أن يعرفوهم. شربت بكل ثقة متي الأرجنتينية الأولى، ولكن الثقة العمياء، جعلتني أسحب جرعة كبيرة ساخنة حرقت لساني، نظرت إليّ الفتاة لتفضحني:

إكسترانخيرو؟ أجنبي؟

- نعم.

- من إيران؟

قبل أن أتمكن من الإجابة، كانت كل العيون من حولي تحدق بي بغضب. دون أن يعطوني فرصة استدعوا الأمن. أخرجت بطاقتي وبينت لهم بأني لست من إيران. ضحكت الفتاة وأعطتني علم الأرجنتين لأرفعه كتأكيد لولائي. ولحظتها قررت أن لا أتفاعل مع أي هجمة للمنتخب الإيراني.

***

دعا إيليه سبعةً من أصدقائه، الغداء كان عبارة عن آسادو، لحم أرجنتيني مشوي. كنت مستغرباً كيف يمكن لمفلسٍ أن يدعوا تسعة أشخاص على أضلاع اللحم!

توقعت أن إعداد اللحم الأرجنتيني يتطلب ساعاتٍ من العمل، ودقة متناهية. لكن المسألة بدت سهلة جداً. برميل حديدي تم شقه بالعرض إلى نصفين، يتم الشواء في داخله. قطع اللحم (الستيك) تقطع بالتساوي، ملحٌ أبيض وفلفلٌ أسودٌ. شواء لدقائق معدودة، تقلب كل قطعة مرة واحدة، ثم تكون جاهزة للأكل! فخذ عظيم،

وضع في البرميل وأقفل عليه، ليترك لمدة خمسة عشرة دقيقة.
اللحم كان لذيذاً جداً. اللذة في البساطة. لا خلطات وتوابل وتنقيع وصلصات سرية!
أبديت استغرابي للأرجنتينيين من البساطة واللذة، تنهد إيليه:
- قاتل الله الولايات المتحدة، أفسدوا كل شيء في هذا العالم. عجزوا أن يقدموا اللحم الطازج للناس، فاخترعوا البرجر، ليعجنوا حثالة اللحم، ويغرقوها بالصلصات! عجزوا عن النبيذ، فصنعوا الكولا، عجينة سوداء نشربها ولا نعرف مكوناتها.
علقت فتاة بخبث:
لا أعرف لماذا نضحك على الغاليجوس[١] ولدينا الولايات المتحدة!
للأرجنتينيين قدرة على تقديم البساطة بكل فخامة!

***

على الغداء تأكدت من تفوق البورتينيوز في ثلاثة أمورٍ: اللحم، الثقة، الثرثرة. تنتشر في أمريكا اللاتينية نكتٌ لاذعةٌ عن ثقة الأرجنتينيين بأنفسهم. التعامل معها يحتاج إلى الكثير من الصبر. فهم واثقون بأرائهم، معتدون بشخصياتهم.
الثرثرة بين البورتينيوز شيءٌ يفوق الاحتمال، لن تعاني هنا في بدء الحوارات، ستعاني في إنهائها. كانت جلسة الغداء منوعة بسبب ثرثرتهم، ابتداءً من تحليل المباراة، مروراً بالسياسة الدولية، انتهاءً بشتم الرئيسة والحزب الحاكم. الاقتصاد الأرجنتيني يحاول ضبط أموره، عبر الحكومات الاشتراكية، التي نجحت في جدولة الديون الأرجنتينية المتراكمة التي خلفتها الديكتاتوريات العسكرية. وكانت الولايات المتحدة

---

١٤. توجه النكت اللاذعة في الأرجنتين على الغاليجوس والبوراتشو. الجاليجوس los Gallegos هم أهل غاليسيا الذين هاجروا من شمال أسبانيا، يتهمونهم بالبلادة وقلة الفهم، ويطلقون اسم «مانالو» إشارة إلى شخص من الغاليجوس، لذا تجد أن أغلب النكت تدور حول شخصية مانالو. أما البوراتشو فهم السكارى، يتهمونهم بالكسل وحب التلذذ بالحياة بطريقة سخيفة.

تحاول إفساد هذه الجدولة من خلال أحكام تصدرها المحاكم الأمريكية باستعجال بعض الديون.

بعد الغداء، دارت السجائر والمتة، السجائر كانت تلف يدوياً، شككت أنها ماريوانا، أما المتة فأعدتها فتاة شقراء، وأخذت الكأس ووزعته علينا جميعاً. المتة زرعت في الأرجنتينيين روح المشاركة، فهم جميعاً يشربون من نفس العود، دون تقزز أو استنكار. المتة لا تنمو إلا عندهم وفي الباراغواي. حين كنت أقرأ في مذكرات جيفارا لاحظت تعلقه بالمتة، ظننتها حالة فردية لديه، لكن تبين لي بأنها حالة دولة كاملة. وقد جربتها في فترات متقطعة من عمري، لمست فيها فائدة وصحة.

أحد الشباب الموجودين استأذن للخروج باكراً:

- عندي موعد مع الطبيب النفسي.

لم أستغرب جرأته بقدر ما استغربت من برود الآخرين، انتظرت خروجه لأسألهم عن سبب زيارته للطبيب النفسي، أجابتني فتاة جاء دورها في المتة:

- مراجعة أسبوعية عادية.

أغلبهم لديه موعد أسبوعي مع الطبيب النفسي، ساعة ثرثرة مدفوعة الثمن. هز أحد الشباب كتفيه مستغرباً من استغرابي:

- كلنا بحاجة إلى النميمة والغيبة وانتقاد سخافة الأقربين. كيف تغتابهم وهم حولك؟ الطبيب النفسي هو الحل. عندهُ تفجر غضبك على عشيقتك التي تهتم بنظافة المنزل أكثر من اللازم، وتهتم بتفاصيل الألوان والديكور! أين يمكن أن أفجر غضباً تافهاً مثل هذا؟

فتاة أخرى تدخلت:

- تصور أيها العربي، عشت أربعة شهورٍ بلا دخل، اقترضت من اصدقائي لكي أدفع للطبيب. يجب أن تجرّبها. مشاكل البشر تافهة والثرثرة خلاصها.

في قرارة نفسي لا أحتاج طبيباً نفسياً للثرثرة، عندنا الدواوين في الكويت، ملتقى للثرثرة الدائمة. الأرجنتين فيها أعلى نسبة زيارة الأطباء النفسيين في العالم. اقترحت أن يحجزوا لي موعداً، لكني نسيته مع زحمة الوقت.

وعلى أحاديث المتة، تقاربنا أنا وديبغو. الشاب الوحيد الذي يحمل وجهه ملامح اللاما، ملامح أمريكا اللاتينية الأصلية. وإن كانت لهجته أرجنتينية خالصة. عرفت أنه جاء من البامبا (الريف الأرجنتيني). مُطَلَّقٌ وله طفل يَشبهه. ومن القليل أن ترى في الأرجنتينيين هذه الملامح، لأن أغلبهم من أصول أوروبية. الدولة الوحيدة في أمريكا اللاتينية التي تحمل هذه النسبة من الدم الأوروبي التي تصل إلى ٩٠٪ من الشعب، نصفهم من أصل طلياني. وهذا له أثرٌ كبير على طريقة تفكير الشعب ونمط حياته.

بعد الغداء وضع ديبغو وشاحه، ليأخذني في جولة إلى عمق المدينة. ركبنا الحافلة، المدينة ليست مزدحمة مثل باقي المدن. في أعرض شوارع العالم. نظر إلى الساعة وقال:

- هناك مشهدٌ يجب أن تدركه خلال الساعة القادمة.

ظننت أنه سيأخذني مثل بقية السياح لمشاهدة منظر الغروب من جهة معينة، لم أعترض. دخلنا إلى ساحة فسيحة: بلازا دي مايو. كانت واسعةً راقية، لكن لا شيء فيها يذكر، ولا تستحق هذه العجلة. أردت أن أعاتبه، لكنه أشار إلى آخر الساحة، مجموعة من نساء كبيرات السن، يرتدين إيشاربات بيضاء موحدة:

- هذه المجموعة تأتي هنا مرةً في الأسبوع، لهن أكثر من ثلاثين سنة على هذه

الحالة، تجمّعن بشكل عفوي أثناء «الحرب القذرة»[١٥]. هن شهيرات جداً في الأرجنتين، واسمهنّ: «أمهات بلازا دي مايو»[١٦].

اقتربنا أكثر، شكلهن وقورٌ ويبدو عليهن التعب، وبعد قليل من الحوار، ملنا إلى واحدة منهن كانت متجاوبة معنا، جلسنا على كرسي خشبي، جمعت ما في صدرها وأخرجته في زفرة ساخنة:

- مع السياسة كل شيءٍ يتغير. الرأسمالي يصبح اشتراكي، والاشتراكي ينضم للكنيسة، لكن يبقى الله والأم. نحن أمهات، سرقوا أولادنا منذ ثلاثين سنة، حينما كانت الدكتاتورية[١٧] تحكم البلاد، لم نتحمل فقدان أولاداً، فتجمعنا في هذه الحديقة، ندور فيها مرتديات الحجاب الأبيض، لم نرفع لافتةً ولم نصرخ بشيء، ندفن القهر في داخلنا ونطوف في صمتٍ. حار الدكتاتور معنا، لم يجد علينا ممسكاً، سقط الدكتاتور، لكن أولادنا لم يرجعوا، لا زلنا هنا نفرغ أمومتنا، ننتظر أطفالنا. ليسوا أطفالاً بنظركم، لكنهم سيظلون أطفالاً في عيوننا ووعينا. سيرجعون، حتماً سيرجعون، سيرجعون أمواتاً، سيرجعون جثماناً، سيرجعون عظاماً، لا يهم. المهم أن نلمس عظامهم قبل أن نموت..

هزتني قصتهم، لم أوجه لها سؤالاً، شعرت بأن السؤال سيحولني من متعاطف إلى صحفي، سيخدش رابط الأمومة الطاهر. ابتعدنا فسألت دييغو:

---

١٥. وتسمى بالأسبانية La Guerra Sucia، ولم تكن حرباً بين بلدين، بل كانت حملة اعتقالات وتعذيب شنها العسكر على الشعب في السبعينات، حيث أطاح العسكر بالحكومة المنتخبة وعطل الدستور والانتخابات في الأرجنتين، بحجة المحافظة على أمن البلد وثوابت الكنيسة، واستعمل العنف ضد الشعب المطالب بإرجاع الديموقراطية. وحين سقط الحكم العسكري بعد ثلاثين سنة، اكتشفوا أكثر من ثلاثمائة مركز تعذيب، وأكثر من ثلاثين ألف مفقود. وحاولت الحكومة التي جاءت بعدها أن توازن الأمور من خلال إجراء محاكمات للضباط والجيش، لكنهم خشوا من سطوة الضباط، وانتهوا إلى تسويات مريبة انتهت بالإفراج عن الضباط.

١٦. Madres de Plaza de Mayo.

١٧. لاحظت أن الأرجنتينيين لا يلفظون أسماء الحكام الظلمة، ولما استخبرت عن السرّ، أدركت أنهم يتشاءمون من ذكر أسمائهم ويعتبرونه فأل شر.

- وأين يمكن أن يكون ابنها؟

- في أيام الدكتاتورية العسكرية، اختفى ثلاثون ألف أرجنتيني. كان الأرجنتيني يختفي لمجرد الشك بنياته. نعتقد أن أغلبهم كانوا يُرمون من الطائرات بالنهر، لتختفي جثثهم إلى الأبد. نهر «لابلاتا»[١٨] من العرض أن نخاله محيطاً وليس نهراً. العسكر كتلة من القسوة والتحجر. غلاظٌ فيما بينهم، كيف تتوقع أن يكونوا مع الشعب؟ أقاموا انقلابهم بحجة تحرير البلاد من الشيوعيين، فحكموا على الشعب كله بالسجن والعبودية، ثار طلبة الجامعة، صاح الأحرار، زجّوهم جميعاً في السجون، كان علينا أن ننتظر أكثر من ثلاثين سنة حتى نزيحهم من الحكم. إلا أن أحزانهم لا تنزح من ذاكرتنا.»

- بعد ثلاثين سنة، ما هو أمل هؤلاء النسوة؟

لم يجبني مشيراً إلى زاوية أخرى، فيها نساءٌ أخريات، أكثر تجاعيداً وأغورُ سناً مشى إليهن وأنا أتبعه. قال:

- هؤلاء «جدات بلازا دي مايو»[١٩]، وهن مختلفات عن «أمهات بلازا دي مايو».

- جدات! يعني هل هن أمهات الأمهات؟

- إنها «الحرب القذرةُ». القذارة شملت الحوامل والرضع، فكانوا يحتجزون الحوامل في مخيمات التعذيب، يذيقونهن عذاب أم موسى، يأخذون منهن أطفالهن. بلغ عددهن خمسمئة معذبة وخمسمئة رضيع، تجمعت أمهاتهن وشرعن في البحث عن الأطفال، في البداية وجدوا خمسين منهم. الكثير منهم أرسلوا إلى الضباط ليتربوا في منازلهم كأطفالٍ لهم، ليكونوا رماحاً مبراةً في كبد الشعب. تخيّل ابن ثائرة يتربى في بيت دكتاتور.

---

١٨. نهر لا بلاتا (نهر الفضة)، يفصل الأرجنتين عن الأورغواي.

١٩ Abueles de Plaza de Mayo.

عشت حالةً من الحزن ونحن ننتقل إلى إحدى الجدات. نظرتُ إلى وجهي العربي قليلاً، أخرجت خاطرة تمور في داخلها:

- تبدو في عمر ابني الآن. قد تكون أنت هو!

قتلتني كمداً وأسفاً. أردفتِ الجدةُ بحرارة:

أنا أعرف ولدي جيداً، أخذوه من ثلاث وثلاثين سنة، لكنه يكبر أمامي كل يوم. شهدت حبوه ومشيه وأعياد ميلاده كلها. حضرت حفل تخرجه. لم تعجبني الفتاة التي تزوجها، يستحقق أفضل منها.

ابتسمتُ في أسفٍ. دمعة معلقةٌ في عين دييغو، قالت:

- الأم هي الوحيدة التي لا تنفصل عن ذاتها، وذاتها هو ابنها. تخيّل العذاب، أن تعرف بأن ضناك لا يزال حياً في مكانٍ ما، في البيت الذي خلفك، في القطار الذي يعبر أمامك، الجالس جنبك في المطعم. عشنا مأساة في الأرجنتين، مأساة على يد الدكتاتوريات لا تمحى.

- لستم وحيدين في المأساة. عشنا الكثير مثلكم. في فلسطين، شردوا ستة ملايين فلسطيني، لأن بضع كلمات كتبت من ثلاثة آلاف سنة تجعل فلسطين أرض أحلامهم. في سوريا، مثل مأساتكم دكتاتور يذل شعبه، ويستعين بالخارج ليقصفهم وينكل بهم، إذا كنتم فقدتم ثلاثين ألف في عشر سنين، فقدنا نصف مليون في ثلاث سنين![٢٠] الحرب هناك يا خالة لم تنتهِ، قريباً ينقشع الغبار، ونفتش عن مآسي البشر في الركام.

خرجنا من الحديقة، أي سوادٍ يغلف هذا المكان الذي بدا فسيحاً مشرقاً. حينما

---

٢٠. هذا الحوار في ٢٠١٤، ولا أعلم حين تقرأ هذه السطور كم ستبلغ الأرقام. مأساة سوريا لم ندفع ثمنها بعد، فاتورة باهظة، أبهض من الأرواح الكريمة التي استشهدت. إنها تكريس للطغيان وللأحقاد والأضغان. إذا كان الصهاينة لا زالوا يحاولون معالجة الحقد العربي والفلسطيني إلى اليوم، فكيف سنعالج الحقد السوري! بعد المأساة السورية، أصبحت الساحة العربية مسرحاً لتدخل الإيرانيين والروس والأتراك والصهاينة، أما الأمريكان فقد أعطاهم صدام حسين جواز المرور سابقاً.

رجعت قرأت أكثر عن حالهن. كل فترة تكتشف حالة جديدة بفضل تقدم علم الجينات، وتدخل الأسر في تسويات تربوية معقدة: هل نأخذ الطفل أم نتركه لمربيه؟ الكثير منهم اتفقوا على أن تنقسم حياة الطفل بين العائلتين. وقد أنتجت السينما الأرجنتينية فيلماً - حاز أوسكاراً- باسم «القصة الرسمية» يحكي إحدى هذه القصص". بفضل الحرية السياسية، تلاحظ في الأرجنتين الكثير من المظاهرات والاعتصامات السلمية.

أكملت جولتي في المدينة على يد دييغو، لكن هذه المشاهد طغت على كل ما رأيت! ما مرّت به أمريكا اللاتينية - حتى مشرق الألفية الثالثة - من طغيان وحروب ومحاولة الانفلات من قبضات الحكومات التابعة للولايات المتحدة أو الدكتاتوريات كان مكلفاً جداً، وهذا ما يمر به العالم العربي، هل سندفع ثمناً قانياً مثلهم؟ هل علينا أن نقدم تضحيات لثلاثين سنة حتى يتطهر عالمنا؟

***

مرّت البلاد بعدد من الأزمات الاقتصادية، آخرها في عام ٢٠٠١، وهي التي كشفت عورة الثقة الأرجنتينية. وهو ما أحاول أن أفتش عنه، إذ لا أثر للأزمة الاقتصادية على الشارع والملاح. المقاهي مملوءة، السينمات تغص بالبشر، المطاعم تقدم أجود اللحوم، المسارح مستمرة في عروضها. معارض الرسم تملأ الشوارع.. أين هي الأزمات؟

التقيت في ظروف معقدة بـ«توني» و«أنجلينا». توني لاعب تنس عالمي، وسيم، واثق، مرح، جميل المعشر. في إحدى بطولاته التقى بأنجلينا وهي من ألمانيا، وقعا في الحب، تزوجا، هاجرت من ألمانيا وعاشت معه في الأرجنتين. الخروج معهما يمثل

---

٢١. اسم الفيلم بالأسباني **La historia official**، أُنتج في الثمانينات، والسينما الأرجنتينية متطورة إلى حد جيد، وهي السينما اللاتينية الوحيدة التي حصلت على جائزتي أوسكار. واليوم بدأت السينما المكسيكية والكولومبية تنافسان بتقديم منتجات ممتازة.

الطبقة البرجوازية في المجتمع. ولأن انجلينا من خارج البلاد، كانت تقدم لي ملخصات كاملة عن الشخصية الأرجنتيتية ووضع الدولة.

تأنّقتُ (أي لبست جينزاً وقميصاً ورششت عطراً)، خرجت برفقتهما، ذهبنا إلى مقهى الأتينيو El Ateneo، وهي دار أوبرا حوّلها صاحبها إلى مكتبة عامة. شعور فخامة الأوبرا مع رقي المكتبة في آن واحدٍ. بحثت عن أعمال بورخيس، ليس من السهل قراءتها بالأسبانية. مسرح الأوبرا تم تحويله لمقهى يصاحبه عزف بيانو حي، وعلى وقع الإسبرسو اختصرت لي أنجلينا الفكر الأرجنتيني:

- هل واعدت فتاة كانت من أسرة ثرية ثم لفظتها الأسرة فصارت تعيش حياة عادية؟

- لا.

- هذه هي الأرجنتين!

راقني الوصف، بدت جادةً وهي تقول:

- الفن هنا يأتي أولاً. هذا الشعب في العشرينيات كان من أغنى شعوب العالم، المهاجرون الطليان جلبوا معهم النحت والرسم والموسيقى. وجدوا مزارع أبقار ضخمة، لحومها صنعت فن الشواء، جلودها أوجدتْ فن الحقائب، ومزارعها خلقتْ ثقافة الغاوتشو[٢٢]. الحكومات في العشرينيات اهتمت بكل صور الفنون، فكانت المسارح في بوينس آيرس أكثر من باريس. المباني مُلئتْ بالنحت، حتى المقابر لم تسلم من الفن[٢٣]. لا تزال العقلية الأرجنتينية تؤمن بالفن وتقدسه، وتراه خلاصاً لوضعها الاقتصادي. لذا ترى الأرجنتيني يحرص على تعليم ابنه أنواع الفنون: موسيقى، رسم، نحت، شعر، رياضة. والكثير منهم وجد طريقه في الحياة بفضل

٢٢. ثقافة رعي الأبقار وتقارن بثقافة الكاوبوي الأمريكي، لكنها أجمل في تفاصيلها وأرقى في أسلوب حياتها.
٢٣. أفخم مقبرة في العالم مقبرة ريكوليتا في الأرجنتين، ولولا خوف الاستطراد لتحدثت عن زيارتي لها.

هذه الفنون ومنها زوجي. نحن الألمان نهتم كثيراً بالصناعة، مصدر دخلنا الأساسي، نرى الفنون كروافد جانبية. هنا الفن هو الأساس الذي ينبثق منه كل شيء، حتى الصناعة. قد لا تكون الفكرة صحيحة اقتصادياً، لكنها تروقني جداً، وتجعلني أفضل العيش في معادلة الفن الأرجنتيني على معادلة الصناعة الألمانية.

بدأت أفهم الأرجنتين أكثر، هل يمكن أن يكوّن الفن دولة؟

***

على العشاء اختاروا مطعماً اسمه ميرندا، مطعم شواء راقٍ في أحد الأحياء الكبرى، مزدحمٌ مكتظٌ بالناس الراقية. أضلاع اللحم تقدم على شرائح القرع البرتقالية، الأكل لذيذٌ جداً، فاتورة الطعام للشخص الواحد لا تتجاوز الخمسة دنانير (٥٠ ريالاً). فجأةً تخلى توني عن مرحه وتحول إلى إنسان جاد، سألني:

- سأسألك سؤالاً جاداً، إذا أحسست بالحرج أرجو أن لا تجيبني وتحتفظ بالإجابة لنفسك، سوف أقدر موقفك.

واستمر في مقدمة طويلةٍ يُمَهِدُ للسؤال، جعلتني أدرك وقتها أنه سيسألني عن أسراري الخاصة أو حياتي الحمراء. كعربي كنت واثقاً بأني لن أجيبه، فأنا أحب الاحتفاظ بخصوصيتي. وافقت على شرطه، فسألني وهو يأخذ نفساً عميقاً:

- ما هو رأيك في دييغو مارادونا؟

كان هذا هو السؤال! حاولت أن أكون دبلوماسياً في الرد وأبدي إعجاباً عاماً بالرجل، وهو ما ضايق توني:

مارادونا كتلة من الغباء والتخلف ولا يمثل الشعب الأرجنتيني الراقي! ماذا تتوقع من رجل يسجل هدفاً بيده، اختار أسوأ مدن إيطاليا وأكثرها جريمة (يقصد

نابولي)، مدمن مخدرات، انظر لملابسه وشعره وشكله.. هل ترانا نحن الأرجنتيين بهذا الشكل!

صمتُ لوهلة احتراماً لحماس واندفاع توني، أبديت إعجاباً برأيه وأنا أحاول أن أفهم الموضوع. أغلب الذين يكرهون مارادونا هم الطبقة التي كانت غنية ومتعلمة قبل وصول الحكم اليساري للبلد. إذ أن مارادونا في نظرهم، فوضوي وجاهل وعنيف وكاذب ولعوب، وينحدر من حي فقير وطبقة غير راقية، يرفضون أن يمثل الأرجنتين. موقفك من مارادونا هو موقف سياسي وفكري بالدرجة الأولى، ولا علاقة له بفنياته ومستواه الكروي. يمثل مارادونا أحد أهم ثلاثة وجوه تمثل الشعب الأرجنتيني: مارادونا، إيفيتا[٢٤]، كاردينال[٢٥]. إلا أن مارادونا وإيفيتا يثيران انقساماً سياسياً وفكريًا قبل أن يكون فنياً.

وعموماً كرة القدم في الأرجنتين «دين» قبل أن تكون «رياضة».

***

توطدت العلاقة مع إيليه. أعود إلى المنزل مساءً، يكون قد أنهى نومه وعمله، بدأ أصدقاؤه في التوافد، أصنع لهم قهوة عربية، شاياً بالهيل (لا يعرفون الهيل)، أشتري بيتزا، ونسهر جميعاً. دييغو أصبح صديقاً دائماً يأتيني كل يوم، بعد انقضاء السهرة، أجلس أنا وإيليه وجهاً لوجه، يحلمُ بِلفِّ العالم، لكنه لا يملك المال.

في هذه الرحلة قررت أن أتحول إلى رحالة محترم، يوثق أيامه ورحلاته، اشتريت

---

٢٤. إيفيتا بارون زوجة الرئيس بارون التي اشتهرت في الخمسينات، وكانت السبب الأساسي في فوز زوجها ضد الجيش والكنيسة في الانتخابات نظراً لجماهيريتها كمذيعة وإعلامية، وكسبت تعاطف الشعب كونها جاءت من الريف الفقير وشقت حياتها الفنية من خلال المسرح والإذاعة وتزوجت الضابط الوسيم بارون، وقد نسجت حولها عدة أفلام أشهرها الذي مثلته مادونا. وحينما أسيّر رحلات جماعية إلى الأرجنتين، أجعل إيفيتا شخصية الرحلة الأساسية التي من خلالها أشرح التاريخ الأرجنتيني.

٢٥. أشهر مغني تانغو أرجنتيني، ويمثل الروح الكلاسيكية الأرجنتينية.

كاميرا GoPro وهي سيئة للتوثيق بسبب اهتزازها وتصلح لتثبيتها على السيارات أو الدراجات لتصوير الطرق. استغليت صغر حجمها لتصوير الحوارات والوجوه. خرجنا في آخر يومين إلى مقهى صغير يبيع نوعاً من الحلوى تسمى ألفاخوروس Alfajaros، وكانت الكاميرا في شنطة كتف صغيرة أحملها معي، ولم أجدها، نشلت مني أثناء المشي، وظاهرة النشل موجودة في العاصمة كثيراً. حزنت على الصور التي جمعتها والحوارات التي وثقتها. حاول دييغو بطيبته أن ينتشلني من الحزن، فقلت (مستغلاً الموقف):

- باقي يومان وأرجع للوطن. أريد أن أفعل شيئاً مجنوناً، خارج بوينس آيرس.

نظر، فكّر، تركني على الطاولة، أجرى بعض الاتصالات سائلاً عن الفيزا للكويتيين. بعد نصف ساعة جاء، سألني بهلع:

- ظهر لي شابٌ يشبهك تماماً، يتحدث الأسبانية بطلاقة، اقترح عليّ أن آخذك إلى الأورغواي!

قاتله الله، لا بد أنه ابن شطوطة. قلت:

- دعك منه، كيف يمكن أن نسافر لدولة أخرى.

- يمكننا زيارة الأورغواي بالعبارة، يفصلنا نهر عنها. لكنها تتطلب فيزا خاصة للكويتين. أو أن ندخل بطريقة غير قانونية؟

- ماذا تقصد بغير قانونية؟

- لا أعلم، نستخدم جوازاً لصديق أرجنتيني يشبهك، نرشي موظف الجمارك.. أشياءٌ من هذا القبيل.

- حسناً، ترافقني ومواصلاتك وتكلفتك على حسابي.

تمتع قليلاً، ثم وافق. واتفقنا على اللقاء في السادسة صباحاً.

***

وصلنا إلى ميناء بحري على نهر لابلاتا، ركبنا عبارة ضخمة لعبور الضفة الأخرى من النهر، قطع النهر يحتاج إلى ساعتين تقريباً، ونزلنا على ضفاف الأورغواي!

لم أصدق نفسي وأنا أقرأ اللافتة «أهلا بكم في ساكرامنتو - الأورغواي». انتظرت على الميناء، أخذ دييغو جوازي، وبعد ربع ساعة رجع مبتسماً:

- ستدخل يا كريم، لكن الموظف اشترط عليّ أن نعود مساءً، أدخلك على مسؤوليته الشخصية.

بهذه السهولة! كنت أتخيل أني سأتسلل عبر الشبك أو أسبح لمسافة قصيرة.

ساكرمانتو دي كولونيا وتسمى ساكرامنتو، هي المدينة المقابلة لبوينس آيرس على نهر البلاتا. نشبت حروبٌ تاريخية ضارية بين الأسبان والبرتغاليين بسبب هذه المدينة. من يتحكم بها سيتحكم بمدخل ومخرج هذا النهر. وبسبب النزاعات المستمرة بين أسبانيا والبرتغال على مدخل النهر، اخترعوا دولة جديدة يقال لها الأورغواي لتفرض سياسة محايدة على النهر. ويقال أن ساكرامنتو هدمت وبنيت سبعة عشرة مرة! لذا جهزت نفسي لرؤية آثار دمار وبقايا أسوار.

وجدنا عند المدخل سيارات غولف مصممة بطريقة كلاسيكية، مصبوغة بألوان جميلة، لم نكن نعرف المسافات والأماكن، من الأسلم أن نكتري واحدة لنصف نهار. قيادة طريفة وشعور بالكلاسيكية المفقودة.

المدينة نظيفة كسنغافورة، خضراءُ كسويسرا، حمراءُ كمراكش، معتّقة كدمشق، فنيةٌ كبوينس آيرس. مطوقة بسورٍ حجري عظيم، يتوسطها فنارٌ شاهق. صعدنا الفنار لنلقي نظرة على المدينة، بيوتٌ حمراء قانيةٌ جاوزت المائة سنة، كلها من دور واحد، طاقيتها من قرميدٍ أحمرٍ قديم، أرضيتها من أحجار ملساء رصّت بوزنٍ وقافيةٍ. يختلط

فيها البناء الكولوني الأسباني مع البرتغالي. توقفنا عند بيتٍ تحول إلى مطبخ عائلي، أعطونا سبورةً صغيرةً فيها أنواع الأسماك، سمكٌ نهري أبيض غزير اللحم، يقدم في مقلاةٍ صغيرة.

دورها فنادق بوتيكية، أو مقاه كلاسيكية، أو معارض رسم. في كل زاوية تجد شاباً يرسم شيئاً أو يكتب شيئاً. معارض الرسم مذهلة، ومثلي يستمتع بالفرجة المجانية دون شراء. كنت أظن أن بوينس آيرس هي المدينة التي بنيت من أجل الفن. لكني هنا وجدت نموذجاً لقرية صغيرة تسقى من الفن. طلبت من دييغو أن نستكشف الأحياء السكنية، لعل هذه المدينة تكون مجرد مسرحية هزليةٍ مثل الكثير من المدن اليوم، سخيّةٌ مع السيّاح، مذلّةٌ لأهلها. لكن بيوتهم كانت نظيفة، وجوههم عليها مسحة نعمة وثقافة. رأينا إعلان مقبرة، أوقفنا سيارة الجولف الكلاسيكية. المقبرة حديقة مفتوحة، أشبه بمعرض مدرسي أنيق، ممراتٍ بين أبنية مربعة ومستطيلة، توضع القبور في مربعات متساوية، تشبه خزنات البنوك، توضع أربع توابيت فوق بعضها في ممر طويل يحتوي على مئات التوابيت، أمام كل تابوت اسمه وأزهار صناعية ملونة، الفراغات بين الأبنية مسطحات خضراء مزروعة بذوق القصور.

حتى القبور كانت آيةً في الفن. ماذا لو حاولنا أن نحول مدننا العربية إلى متاحف مفتوحة؟

***

كلفتنا الرحلة أنا ودييغو ٤٠ ديناراً كويتياً (٥٠٠ ريال)، كنت أشعر بالامتنان الشديد على ما فعله معي، ويشعر هو بامتنان أكثر لتحملي المصاريف. وصلنا إلى منزل دييغو، شلة الأصدقاء كلها هناك، متشوقون لأخبارنا. الاندماج مع البورتينيوز مسألة

سهلة، شعرت وقتها بأننا أصدقاء طفولة. استعرضنا شيئاً من الصور، أغلبهم لم يسبق له أن زار المدينة التي تبعد عنهم ساعتين. ظل دييغو يكرر شكره لي أثناء الحوار لتحملي مصاريف السفر. هنا بدأت أفهم لما يتضايق الشباب الأرجنتيني حينما أتحدث عن أسفاري أمامهم، فهم وإن عاشوا كطبقة متوسطة في بلادهم[٢٦]، لا يستطيعون السفر لتدني عملتهم، يعيشون حياةً متوسطة في أوطانهم لكنهم فقراء في الخارج.

***

أحببت أن تكون آخر ليلةٍ مفاجأة. حجزت في «مطعمٍ سري» لشخصين، أنا وإيليه. ارتدينا ملابس نظيفة وخرجنا على الموعد.

ما هي المطاعم السرية؟

بعد الزلزال الاقتصادي الذي أصاب الأرجنتين في بداية الألفين، أُقفلت الكثير من المطاعم الراقية (خصوصاً التي تستورد موادها من الخارج)، خفّضت المطاعم رواتب الطهاة، توجه بعض الطهاة لإعداد وجبة عشاء سرية في منازلهم. وجدتني أمام منزل في حي أرجنتيني متوسط، قرعت الجرس، فتحت زوجته الباب، واستقبلتني بود، بيته أنيق ومتناسق. أطلّ الشيف، احتسينا الإسبرسو في الصالون، ثم العشاء. الأطباق خليط من النكهات الأرجنتينية والصينية، لذيذة جداً. الشيف يعمل في فندق مرموق وقدم برنامجاً تلفزيونياً. التصوير ممنوع، حفظاً لاسمه وكرامته، والرجل وزوجته كانا على مستوى من الثقافة مما جعل الحوارات عميقة. خرجنا أنا وإيليه

٢٦. متوسط الرواتب في الأرجنتين ٥٥ دينار كويتي (٧٠٠ ريال) وهو ما يوفر لهم حياة بسيطة في الأرجنتين لكن لا يكفي لخارجها.

متبلين بالسعادة، اقترحت عليه أن نمشي قليلاً قبل الرجوع إلى المنزل، ومع لفحة الهواء على خده:

- تعرف يا عبدالكريم، نحتاج إلى وطنٍ جديد يضم أمثالنا من البشر، بشرٌ يعتنقون الأرض وطناً والآدميين إخواناً. نحتاج إلى قليل من سفر وكثير من تواضع حتى ننتج بشراً من تراب صافٍ، تعبنا من البشر الذين أنتجهم ماكدنالدز وزارا وكاسيو وفولفو. أولئك الذين يتعالون ويزدرون الآخرين، يحملون بكالوريوس القانون وماجستير الهندسة ودكتوراه السياسة لكنهم لا يحملون ابتدائية التراب! حينما استقبلتك في المنزل، تلقيت توبيخاً: كيف تقبل غريباً في منزلك؟ أحتاج المختلف لأتنوع، لكنهم لم يصلوا إلى غور الفكرة. بعدما التقوا فيك وأصبحت جزءاً منا، استغربوا من كرمك وأخلاقك وذوقك في التعامل، استغربوا من الثقافة العريقة التي تنحدر منها. الكثير منهم يود زيارة الخليج بعد لقاءك. هل تذكر ذلك اليوم الذي حدثتنا فيه عن صلاح الدين. بعض الشباب كاثوليكي، ينزعجون من ذكر اسم قاهر الصليب، لكن بفضل حديثك، أدركوا غوغائية الصليبيين في تلك الحقبة، أعادوا البحث عن صلاح الدين والحملات الصليبية، وتغيّر فكرهم تماماً.

- تغيّر فكري أكثر. رسمت الأرجنتين معتمداً على ما قرأت من الكتب[٢٧]، وزياراتٍ لدول الجوار. رسمي كان بشعاً، لم أتخيل كل هذه الفنون، رقي الناس، حبهم للحياة، حبهم للثرثرة. في كثير من اللحظات كنت أشعر أني في أوروبا الغربية. لم أكن أعرف أن ثراء العشرينيات لا يزال موجوداً في أبنية المدينة ونفوس الناس. لم أدرك كيف يمكن للحكومات العسكرية أن تبني من الرعب تخلفاً، إلا بعد ما رأيت ما

---

٢٧. البلد الذي أعتزم اكتشافه، أقرأ عنه أربعة كتب: دليل سياحي، تاريخ البلد، مذكرات شخصية مؤثرة في التاريخ، رواية عن البلد. وقبل الرحلة بأسبوعين أواظب على قراءة صحيفة يومية. مثل هذا الاستعداد الفكري يسهل عليك التحرك الداخل البلد في زيارتك الأولى.

حصل لكم. لم أكن أفهم لماذا انصدم جيفارا حينما شاهد الظلم والفقر يخيم على أمريكا اللاتينية، إلا بعد ما جلست معكم وفهمت غناكم، من يعش في بيئة غنية تفجعه مناظر الفقر، آمنت بإدخال كل الأغنياء مدرسة الفقر لكي يتغيروا.

- ديبغو متعلقٌ بك، ويسألني: كيف سيغدو البيت بدون الكويتي؟

فنزویلا

. . . . خط سير المؤلف.

- كاراكاس: لم أكوّن فيها صداقات ولا ذكريات.
- جزيرة مارغاريتا (شمال شرق كاراكاس): أفضل جزيرة مخدومة سياحياً.
- ماركايبو: أخطر مدن العالم وأكثرها متعة.
- ميريدا: قرية وادعة تحولت إلى مكان شبابي بفضل الجامعة الكبيرة.
- محمية كانايما: قلب الأمازون الفنزويلي.
- الأمازون البرازيلي: تهريب غير قانوني.

ماراكايبو
كاراكاس
فنزويلا
ميريدا
خوض الأمازون
كولومبيا
البرازيل

التوغُّل في الفقر

المكان: بيرو - كولومبيا - فنزويلا.
الزمان: ١٩٥٢.

عبر المجنونان إلى بيرو[٢٨]، أرض حضارة الإنكا العريقة[٢٩]، تغيّرت وجوه الناس كلياً، ملامحهم تميل إلى اللاما، عيون ضيقة وبشرات سمراء، يرتدون البونشو[٣٠] الزاهي، زارا الماتشو بيتشو وكوسكو وأولانتايتامبو وكل آثار العظمة، تساءلا: كيف ركّب الغزاة صُلبانهم على معابد الشمس، أقواسهم على البيوت، كيف قهروا هذا الشعب المحارب العظيم؟ غضب جيفارا في لاباز - عاصمة بوليفيا - حينما رأى السلطات (الموالية للولايات المتحدة الأمريكية) ترش مادة الـ «دي تي تي» على أبناء الكويا (قبيلة من السكان الأصليين) لتطهيرهم من الأمراض قبل دخول المبنى. يخرجون من المبنى بالبودرة البيضاء والهوان. شَهِدَ جيفارا شعباً متحسراً على أمجاده، ذليلاً في أرضه. سبّ جيفارا أجداده الأسبان ورثى شعب الإنكا. أدرك أن الذل الذي يعيشه السكان الأصليون هو تراكم خمسمئة سنة من الاستعمار الأبيض، تلتها حكومات

---

٢٨. في كتابي «تسكع على الخريطة» أفردت مقطوعة عن بيرو، تحديداً عن رحلة المشي لأربعة أيام إلى الماتشو بيتشو، وتحدثت عن تاريخ الإنكا بشيء من التفصيل. وددت لو أضمها إلى هذا الكتاب ليشمل أهم دول أمريكا اللاتينية لكن أحسست بأن الكتاب سيتجاوز حجمه كف اليد ليتحول حجمه إلى كتاب رفوف مكتبة.

٢٩. أهم الحضارات التاريخية التي أقيمت في بيرو وبوليفيا والإكوادور، وقد غزاها الأسبان بعد المكسيك ودمروها، لكن الكثير من آثارها تكتشف اليوم. ويتكلمون لغة الكيتشوا التي لا تزال محكية في جبال الإنديز وفي بيرو.

٣٠. اللباس التقليدي لأهل البيرو، يصنع من صوف اللاما، ويشبه البشت لكن من غير أكمام.

تابعة للولايات المتحدة. الحل هو طردهم بالقوة.

الشاحنات هي جمالهم، ركبوا كل أنواعها لاختراق جبال البيرو. ركبوا مع العمال، الحيوانات، تحت المطر، وحيدين.. قطعا الفراسخ كلها مجاناً. لامسوا جراح الناس. وجدا أن أفضل طريقة للتنقل هي المشفيات، أصبحا يتطوعان في مشافي القرى التي يصلانها، فيحصلان على المنام والأكل وأحياناً مبالغ صغيرة من المرضى.

كانا يقيمان هذه المرة في «مركز الشرطة». أقنعا الضابط بأنهما طبيبان عظيمان يساعدان الناس. عرضا على «مشفى الجذام» في الأمازون التطوع مقابل الطعام والمنامة. طلبا من ضابط الشرطة حصانين للوصول إلى مشفى الجذام. سرعان ما وفّر لهما الضابط الحصانين ومرشداً إلى المشفى. في منتصف الطريق اعترضهما رجل وعجوز وتحدثا معهم بلغة الكيتشوا التي لا يفهمان منها شيئاً، وبعد نقاش مطول، اكتشفا بأن الحصانين اللذين يركبانهما يخصان العجوز والرجل، وأن الضابط استولى عليهما بالقوة ليساعدهما. ترجلا من الحصانين، حملا أغراضهما وأكملا المسير بين الجبال.

«مشفى الجذام» أكواخ خشبية وسط غابات الأمازون، أكواخ لانتظار الموت، يجمع فيها المجذومون، يمنع لمسهم ومصافحتهم، وتشرف عليها الراهبات، ولا تقدم لهم أي خدمات طبية تذكر.

أمام ضعف الإمكانات الطبية، عوّضا المرضى والمجذومين باللمسة الإنسانية، خالفا قواعد المستشفيات بعدم لمس المرضى أو الجلوس معهم. فوجئا من ردة فعل البسطاء والمرضى، تحسنت أمزجتهم وابتسمت أيامهم. أدركا الحب الحقيقي المتولد من التواضع مع البسطاء. وآمنا أن أمراض هذه القارة لا تعالج بالدواء، بل بقلع الأنظمة المستبدة بالثروة والخيرات.

في عيد ميلاد جيفارا الرابع والعشرين دعاهم طبيب بيروانى في إحدى القرى، ومع

مفعول السّكر في دمه، قام ليلقي نخباً يخرج ما في صدره، اعترف أمام الحاضرين «بأن الرحلة علمته بأن أمريكا اللاتينية شعب واحد، يجب أن يتوحد ويكون أمة واحدة!»

كان هدفهما هو الوصول إلى كاراكاس عاصمة فنزويلا، وأمامهما طريقان: اختراق الأمازون إلى البرازيل ومنها إلى فنزويلا، أو براً عن طريق كولومبيا التي تغلي سياسياً وقتها. جمع لهما أحد السكان المحليين أخشاباً، وصنع لهما طوافة بحرية صغيرة ومجدافين وبنى فوقها عشاً هرمياً من القش، أسميا الطوافة: بامبو - تانغو، وقرر المجنونان خوض غمار الأمازون!

التجديف وسط تيارات الأمازون مهمة مستحيلة لناشئين. حاولا التوقف على الضفة، دارت بهما الطوافة لوسط النهر. أرادا التوقف عند إحدى المدن فلم يستطيعا. كان لديهما ناموسية صغيرة، ينامان داخلها، هرباً من أسراب البعوض. متعلقاتهما تسقط في النهر تباعاً. وكانت فكرة اللحاق بالأشياء تتطلب القفز بالماء وسط عيون التماسيح. في إحدى الليالي غلب عليهما النعاس، لتنجرف بامبو تانغو وتكمل طريقها إلى البرازيل، دون ختم جوازاتٍ أو أوراق رسمية. رفعا الرايات البيضاء، تركا بامبو تانغو، وقررا السفر جواً إلى بوغوتا - عاصمة كولومبيا - ثم براً وسط الأجواء السياسية والأمنية الملتهبة إلى فنزويلا، عادا إلى قرف الشاحنات مرة أخرى. أثارت الأوضاع الأمنية الكولومبية سخطهما، قررا التعجيل في الخروج من هذا البلد ذي الشوارع المهترئة، وصلا أخيراً إلى فنزويلا.

بدت لهما فنزويلا أكثر غنىً من كولومبيا، وأغلى تكلفة. رأى جيفارا الفرق بين تفكير المهاجرين الأوروبيين والأفارقة. كتب جيفارا مستغرباً: «***السود كسالى وحالمون، ينفقون راتبهم الضئيل على الأعمال الطائشة والشراب، للأوربى تقاليد فى العمل والتوفير، لاحقته حتى هذا الركن من***

أمريكا، وتقوده إلى الرقي بنفسه».

أضناهما السفر وأفلسهما تماماً، ألبيرتو كانت له فرصة عمل جيدة في كاراكاس، أما جيفارا فقد حان وقت عودته إلى بوينس آيرس بأسرع وقت، ليقدم امتحاناته الطبية ويحصل على الشهادة. سيرجع إلى بوينس آيرس شخصاً آخر غير الذي خرج منها منذ سنة، سيرجع طبيباً للمتعبين لا طبيباً للمتخمين، آخر ما كتبه في فنزويلا يعكس التغير الهائل في شخصيته، تحوله من رحالة يقتفي اللذة إلى شخص يريد كسر الظلم:

«... علمتُ أنه حينما تقف الروح منشقة إلى نصفين في المفترق، سأكون إلى جانب الشعب ... أشعر أن أنفي يتسع ليستنشق رائحة البارود اللاذعة والدم وموت العدو. جسدي مفعمٌ بعزم فولاذي، يعدّ نفسي للفضاء المقدس للمعركة، غرائزي الوحشي بالانتصار على الظلم سيبعث بطاقةٍ جديدة وأمل متجدد».

هل صنعت خشونة الرحلة ومشاهد الظلم من الشاب المترف ذئباً يعوي!

فنزويلا

لِلَّهوِ آونَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّها قُبَلٌ يُزَوِّدُها حَبيبٌ راحِلُ

«أكبر خطر يهدد كوكب الأرض هو حكومة الولايات المتحدة الأمريكية».

هوغو شافيز - الرئيس الفنزويلي السابق

الراقصة والسياحي

البكاءُ رجولة، هو الدليل الأخير على بقائك على قيد الإنسانية. قال فيه غازي القصيبي: «لن تعدمي خيراً من رجلٍ يبكي»، هل بكى غازي؟ بكى الصالحون، العشاق، الشعراء، الملوك، والرحالة. أنا الآخر بكيت، نحن الرحالة نبكي على المدن، مدنٌ عشقتنا وعشقناها، وندرك أننا لن نرجع إليها. بكيتُ في وداع مدينتين: القدس وكاراكاس. فنزويلا تحتاج رجلاً، قوياً باكياً، لا مجرد تذكرة سفر وسكن. فنزويلا هي أكثر بلد استمتعت فيه وأكثر بلدٍ أحذر منه!

***

الطريق من المطار إلى العاصمة، طريق جبلي مرتفع عن سطح الأرض، تَرَعْرَعَتْ فيه أحياءٌ ضخمة، متخمةٌ فقراً، بيوت حديدية مهترئة تتكاثر فوق بعضها، لونها صدئ، رائحتها صدئة، البشر فيها صدئون. لأول مرةٍ - وآخر مرةٍ - أصطحب صديقيّ المقربين: فهد وعبدالله في رحلة لأمريكا اللاتينية. سمعا مني كثيراً عن أمريكا

---

٣١. فتح فنزويلا كان في ٢٠٠٥، وكانت في آخر الولاية الأولى للرئيس شافيز. وهي من أكبر فتوحاتي النفسية والفكرية، وددت لو أني أطلت المكوث فيها، لأن ظروفها الآن تعقدت أكثر. وهي بالنسبة لي ثاني أجمل تجربة من تجارب رحلاتي، ومن أقرب الفتوحات إلى قلبي. بل حينما رجعت إلى الكويت، وجدت أبا تمام يستقبلني بالورود ناثراً «النون» مردداً:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطبِ

اللاتينية، فقررا زيارتها، ولا أعلم لماذا وافقت. في الطريق اختلف سائق التاكسي مع سيارةٍ على يميننا، ونحن على سفحِ الجبل، استلّ سائقنا سكين الأضاحي الكبيرة من بين المقاعد، ونزل من السيارة، ترجل السائق الآخر، رافعاً مسدساً نحو السماء، سبابهما يملأ الجبل. نظرت خلفي، لأجد الرعب مرسوماً على وجه صديقيّ. أنزلت الشباك وأنا أصرخ في السائقين:

- ترانكيلو ترانكيلو.اهدأ، اهدأ.

اقتربت وجوه السائقين من بعض، الأنف بالأنف، سكينٌ ضخمة ومسدس أسود، زمنٌ متوقف، وثلاثة خليجيين على قمة جبل منحدر، لا يربطهم بالوطن شيء.

أهلاً و سهلاً بكم في فنزويلا.

***

دخلنا الفندق، فهد وعبدالله محنطان رعباً. اخترت فندقاً راقياً لخطورة المدينة. استقبلنا موظف لطيفٌ جداً اسمه لويس. بعد الراحة، نزلنا إلى البهو، جلسنا إلى لويس:

- إخوتي في ميامي، لكني أعجز عن مغادرة فنزويلا. هل أحب المخيفات؟ هنا تختلط المتعة بالخوف. لا أصرف الكثير، كلّ شيء معرضٌ للسرقة. المجرمون متطورون ويتابعون الموضة والتصاميم بشكل دوري. تخيّلوا، من عدة شهور، كنت عائداً من سهرةٍ مع أصدقائي، سيارتي تبعد عن المطعم ثلاثين متراً، في شارع مظلم، أوقفني اللص، لم يطلب إلا حذائي. الملعون طلب الشيء الوحيد الغالي. كان حذاءً أسودَ بلا علامة، لكنه ماركة جوتشي. قلت له وأنا أنزع الحذاء بكل أدب «ولماذا الحذاء؟» ضربني بالمسدس على كتفي بمرح وهو يقول: «عصر

الانترنت، هل تظن أني لا أفتح الانترنت وأتابع آخر صرعات زبائني! مللنا من سرقة رولكس التقليد». مسرحيةٌ لا يمكن أن تحدث إلا في كاراكاس. حجم القصص التي يمكن أن ترويها هنا، لا يشابهه شيءٌ في العالم، ألسنا نعيش لنروي؟ إخواني في ميامي يعيشون حياةً صفراء مملة، حين يجلسون إلى بعضهم يتحدثون عن زواج وطلاق الفنانين.

زاد خوف أصدقائي، اتخذوا قراراً بعدم السياحة في المدينة، عدا المجمع التجاري «سان إيجانيسيو» الذي أشاد به لويس. لم أستطع معارضتهما، الوضع مخيفٌ. أمضينا ليلتين سريعتين في كاراكاس. بعدها مدينة اسمها سانتا كروز، يفترض أنها تشبه فينيسيا، كانت فارغة لعدم وجود سياح فيها. منها ركبنا العبارة إلى جزيرة مارغريتا الشهيرة.

***

مارغريتا، يقال أنها أول أرض وصل إليها كريستوفر كولمبس في رحلته المشؤومة. جزيرة ضخمة، المتنفس الأكبر للفنزويليين. فيها أجزاء تحوي المنتجعات الفخمة (التي سكنتها مع أصدقائي الكويتيين) والمتوسطة، ليس فيها أماكن للفقراء.

انزاح الخوف وأشرقت المتعة. شعر أصدقائي بالانطلاق، وشعرت أنا بالارتياح. في السفر الجماعي، تحب المكان حينما يحبه من معك. أصبحنا نخرج، نسبح، نأكل بلا أدنى خوف. لكني بقيت مشلولاً عن هدفي من الرحلة؛ التعرف على الآخرين، دوري يقتصر على الترجمة لأصدقائي والبحث عن أنشطة تناسبهم.

في اليوم الثالث، وأثناء خروجنا من عشاء متأخر في مطعم راقٍ، سمعت فتاة تصرخ بصوت عالٍ:

- شيكو آرابي Chico arabe، كيفك هبيـــبي؟

التفتنا نحو المصدر، لنجد مجموعة كبيرة من الشباب الصغار، بينهم فتاة سمراء موجة الشعر تلوّح لنا بسعادة، ابتسمنا من بعيد، من الواضح أنها لاتينية تعرف كلمتين من العربية، ركبنا سيارة الأجرة، ونحن نلّوح لها بسذاجة من السيارة، سمعناها تصرخ من خلف الزجاج بلهجة شامية ركيكة:

- شو حلو.

ضحكنا على لهجتها.

في اليوم التالي، هلّت الكرامات، فقد التقينا مجموعة الفتيان ذاتها في المجمع التجاري الكبير، ومعهم فتاة «كيفك حبيبي»! ابتسمت لنا بأدب معرّفة بنفسها: ليزا، ليزا شهيبر. (شحيبر لكنها لا تنطق الحاء).

بدت مختلفةً عن البارحة وهي تتحدث بهدوء. محاطةً بشابٍ وفتاتين. توقفنا جميعاً عند طاولة كبيرة، جلسنا عليها دون سابق اتفاق، تصادقنا.

جدها طبيب لبناني، ترك جبل لبنان في الأربعينات مهاجراً إلى فنزويلا. والدها ترعرع في فنزويلا، وتزوج أمها. فنزويلية من أصلٍ إسباني. أنجبا أربع فتيات، تتلاطم فيهن الجينات العربية واللاتينية. شفرة وراثية نادرة.

أصدقاؤها، هم زملاؤها في قسم الإعلام، يحلمون بالشهرة والشاشات، في رحلة جامعية على هذه الجزيرة. جلسنا نتحدث عن الحياة والثقافات باللغة الأسبانية. صديقاي أحسا بالعزلة. اللغة جسرك للمتعة. حدثوني عن رغبتهم في استئجار قارب لاختراق أكبر أنهار الجزيرة الذي يمر بين غابات كثيفة، وافقتهم على الخطة، بينما امتنع صديقاي.

رحلة القارب بعيدة عن روح الشواطئ وأقربُ لروح الأمازون، نهرٌ عريض، ضفافه غابات متشابكة، هواءٌ متبلٌ برائحة يود يأتيك من البحر وأنت وسط النهر. المجموعة كلها من منطقة تدعى ماركايبو؛ المنطقة النفطية في فنزويلا وتقع في الغرب على حدود

كولومبيا. ولفرط محبتهم لهذا العربي، دعوني لزيارة مدينتهم لعدة أيام، إلا أن مارغريتا كانت محطتنا الأخيرة وبعدها نرجع للوطن.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

في طريق العودة للمطار، هاجمني ابن شطوطة بقوة؛ «هل يمكن أن تكون هذه فنزويلا؟» في غمضة عين تحولت الخطرة إلى فكرة إلى قرار: لن أرجع إلى الكويت، لم أشبع من فنزويلا. ودّعت أصدقائي بكل صرامة في المطار.

رحلَ أصدقائي، لأبدأ سفري. السفر لا يمكن أن يكون إلاّ وحيداً، السفر مع أصدقائك يعني أن تَحْمِلَ وطنك على ظهرك، أن تكون مسيّجاً بعاداتك ولهجتك ونكتك وقماشك. المسافر وحيداً، هو شخص اجتماعي يبحث عن الآخرين. المسافر مع أصدقائه، شخص انطوائي يخاف الآخر.

السفر وحيداً فيه وحشة تدفعك إلى أحضان المجتمعات، إلى بيوت الناس. يشجع الآخرين على التحدث معك، شفقة أو فضولاً، يدعونك إلى بيوتهم أو موائدهم. حينما تكون برفقة أحدهم فإن هذه الأفضلية تتبخر. طالما كانت هذه عقيدتي في السفر، واليوم اكتمل ديني بعد هذه التجربة في فنزويلا، وأدركت بأن الوحدة خيرٌ.

استخدمت مقهى الانترنت في المطار، أرسلت رسالة بالفيس بوك لأصدقائي في ماركايبو، اشتريت تذكرة داخلية إلى «ماركايبو». نظرت الموظفة إلى بطاقة الصعود، وسألتني:

- هل لديك عمل في ماركايبو؟

لا، أنا سائح.

- وهل يذهب سائحٌ إلى «ماركايبو»؟

أحب أن أستكشف مكاناً جديداً.

تدخلت زميلتها الواقفة جنبها بحدة:

- تستكشف ماركايبو؟ أمجنون أنت!

عادت زميلتها الأولى، لتكلمني بلهجة آمرة:

- خذ شنطتك وارجع سأكلم مكتب الحجز لتسترجع أموالك.

- ماذا دهاكما؟ ما مشكلتكما؟

- نحن أهل البلد لا نجرؤ على زيارتها! لا زلت فتياً على الموت.

- زرت كاراكاس الخطرة.

- كاراكاس لا تقارن خطورتها بماركايبو، ماركايبو هي أخطر بقعة في فنزويلا..

تدخلت صديقتها بحدة:

- بل هي أخطر مكان في العالم، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منها! هيا خذ شنطتك وارجع إلى كاراكاس.

بما أننا قررنا البقاء في فنزويلا، فيجب أن تصافحوا أهم شخصين فيها: بوليفار وشافيز.

ولد بوليفار عام ٣٨٧١ في كاراكاس من أُسرة أسبانية الأصل. كانت مجرد مدينة ضمن الإمبراطورية الملكية الأسبانية التي تحكم أغلب أمريكا اللاتينية. غادر في صباه إلى أسبانيا وفرنسا حيث تنفس أفكار الفلاسفة الفرنسيين عن الحرية. حينما احتل نابليون أسبانيا عام ٨٠٨١، وعيّن أخوه حاكماً عليها. أصبحت دول أمريكا اللاتينية في موقفٍ معقد: هل تنضم لنابليون، أم تنضم للثوار الأسبان ضد

نابليون، أم تستقل كدول جديدة؟ انضم بوليفار للثوار المطالبين بالاستقلال. تدرج بوليفار في صفوف الثوار حتى أصبح أحد أهم القادة التابعين للقائد «ميراندا». خسر الكثير من المعارك. حاصروا كاراكاس إلا أن زلزالاً مدمراً أصابها، أفتى رجال الدين بأن الزلزال غضبٌ من الله على أهل كاراكاس لأنهم لم ينصروا ظل الله في الأرض: ملك أسبانيا، اتبعهم الناس وانفضوا عن الثورة وبوليفار.

خان بوليفار قائده «ميراندا» وسلمهُ للأسبان هارباً إلى أحد الجزر الكاريبية. رتّب أفكاره وعاد لقيادة الجيوش الثائرة من جديد. تعلّم من أخطائه ودخل في تحالفات جديدة، استمرت حروبه لأكثر من عشر سنوات، حرر فيها فنزويلا وباناما وكولومبيا والإكوادور. وضمهم تحت جمهورية كولومبيا الكبرى. كشف بوليفار عن فكرته الأكبر: توحيد أمريكا اللاتينية تحت نظام كونفيدرالي، جمهورية واحدة ولكل ولاية استقلالها المالي والإداري. بدأت محاولات ضم بيرو وبوليفيا، لكن الأمر لم يستتب بسبب الطموحات الشخصية للقادة والمدن، تمزقت كولومبيا الكبرى إلى عدة دول: فنزويلا، غرناطة الجديدة (كولومبيا وباناما)، الإكوادور. المحزن أن هذه الدويلات كانت تمجده وتعلي من شأنه، لكنها ترفض التوحد، حتى أن بيرو عينته رئيساً فخرياً للبلاد طوال عمره.

لم يلبث أن حاصره الغم من تشرذم قادة أمريكا اللاتينية، ظهرت عليه أعراض المرض، ومات في كولومبيا. مات لكن أفكاره بتوحيد أمريكا اللاتينية ظلت في قلوب الجماهير. بوليفار لا يموت، ستميت دولة كاملة باسمه: بوليفيا. عملة فنزويلا هي البوليفار. كل مدينة في

فنزويلا فيها ميدان بوليفار. أكبر محافظة فنزويلية: بوليفار. كل دولة لاتينية فيها مدينة وشارع ومدرسة باسم بوليفار. تماثيل بوليفار موجودة في مدريد وبرشلونة وإشبيلية، حتى في مصر يوجد تمثال لبوليفار في الجاردن سيتي.

أهم من تعلق بحلم الوحدة: هوجو شافيز، ولد بعد مائة سنة من وفاة بوليفار. اعتبر نفسه مجدد المائة السنة. ولد في صفائح فنزويلا الفقيرة. تدرج في الأحزاب اليسارية، حارب الحكومات المتحالفة مع الولايات المتحدة، في عام ٢٩٩١ قام بمحاولة انقلاب، فشلت المحاولة. طلب من الثوار إلقاء السلاح وتسليم أنفسهم، مسلماً هو نفسه، ليتحول إلى بطل جماهيري. قضى في مدرسة السجن ثلاث سنوات، خاض الانتخابات الرئاسية، حاز على أغلبية ساحقة لم تعرفها صناديق الانتخابات من قبل! باغتت أرقامه النخبة الحاكمة والولايات المتحدة. وباغتهم أكثر بأسلوب إدارته للبلاد، وجه الثروات للفقراء، وعدهم ببناء ٠٠٢ ألف وحدة سكنية، وأنجز. وعدهم بالقضاء على الأمية وأنجز. وعدهم بتأميم البترول من مخالب الشركات الأمريكية، وفعل. كان يعقد اجتماعاته على التلفزيون العمومي، يصرخ بالوزراء ويعنفهم أمام الشعب، طرد بعض الوزراء في بثٍ مباشر أمام الشعب، عشقته الجماهير وكرهته الولايات المتحدة. خاض الانتخابات مجدداً فحصل على نسبة أعلى من سابقتها.

وقف شافيز وكاسترو (رئيس كوبا) في المحافل الدولية في مواجهة الولايات المتحدة، اعترضوا على حرب أفغانستان والعراق. اتفق شافيز مع سوريا على بناء مصفاة بترول مشتركة على الأراضي السورية. إبان

الحرب على غزة، طرد شافيز السفير اليهودي من بلاده. تقرّب شافيز من إيران وليبيا والصين وروسيا، مما أغاض الولايات المتحدة.

في عام ٢٠٠٢ جرى انقلاب عسكري على شافيز. احتلوا القصر الجمهوري وبداخله شافيز. أول من بارك الانقلاب: الولايات المتحدة. ركض الشعب ناحية القصر الجمهوري، مليون مواطن يحيط بالقصر، خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً أمسكوا بالانقلابيين وأعادوا الشرعية لشافيز وأخزوا الولايات المتحدة!

أثرت تصرفاته على الدول المجاورة: البرازيل وبيرو والإكوادور والأرجنتين، وصل اليساريون للحكم. تعاونت هذه الحكومات بتنسيق شافيز للتبادل التجاري ومجابهة الهيمنة الأمريكية، حلم بوليفار بالتوحد يستيقظ. إدارة بوش الابن في أوهى حالاتها أمامهم، تشجعت دول جديدة على التمرد، من أهمها المكسيك. دعم شافيز لدول الجوار أرهق الميزانية الفنزويلية. قدم لهم البترول بخصومات أو مقابل سلع وخدمات أخرى. لكن ظلت الولايات المتحدة المستورد الأول للنفط الفنزويلي، وظل النفط الفنزويلي يُكرر في الولايات المتحدة، عجز شافيز عن تأمين مصافي بترولية خاصة به.

في خطوة جريئة، أعلن شافيز تغيير اسم جمهورية فنزويلا، إلى «جمهورية فنزويلا البوليفارية»، أوصل رسالة إلى قلب كل لاتيني: بوليفار لم يمت، بوليفار قادم لتوحيد قارتنا! الحلم الذي داعب خيال بوليفار وجيفارا بأمريكا لاتينية موحدة، هو حلم شافيز. في عام ٣١٠٢ توفي شافيز بالسرطان بعد ٤١ سنة من حكم البلاد بأفكاره الاشتراكية البوليفارية.

هبطت الطائرة إلى مطار ماركايبو، مطارٌ صغيرٌ، سائحٌ واحدٌ، البقية كلهم أهل البلد. حملت شنطة ظهري، مرتدياً بنطالاً قطنياً أحمر اللون وتي شيرت أبيض، وجدت ثلاثة منهم في استقبالي: دييغو وليزا ومونا. استقبالهم دافئٌ حميمٌ، كأني أعرفهم منذ سنوات. تحدثوا معي داخل قاعة المطار قليلاً، ثم شبك دييغو أصابعه وهو يقول:

حان وقت العمل.

رددت مونا خلفه:

- لنبدأ بالملابس.

أخذوني إلى زاوية المطار، قالت مونا:

هل لديك بنطال آخر؟ أسود أو جينز؟

- نعم لدي بنطال قطني أسود.

ممتاز، إذاً يجب أن تغيره الآن.

- لماذا؟ هل يكره الناس هنا اللون الأحمر لهذه الدرجة؟

لا، ليست مسألة ذوق، لكن اللون الأحمر ملفتٌ للنظر.

سخرت ليزا:

الثيران هنا تملأ الشوارع، وقد تلفت انتباههم بأي وقت.

لم أفهم شيئاً مما يجري. أخرجت فوطةً من قلب الشنطة، طلبت منهم أن يستديروا وغيرت البنطال. قال دييغو:

انزع ساعتك وضعها في الشنطة، لا تلبسها إلا بعد خروجك من ماركايبو.

امتثلت لأمره. نظروا إلى شنطتي، قميصي، شعري، محفظتي، حذائي، كل التفاصيل الصغيرة. وفي النهاية وقفت ليزا تلقي خطاباً تاريخياً:

- مرحباً بك في مدينتنا، ماركايبو أخطر مدن العالم، والماركوتشوز (هكذا يسمي أهل ماركايبو أنفسهم) أفرح شعوب العالم، اتبع تعليماتنا وستقضي هنا أجمل أيام

حياتك، خالف تعليماتنا وستدفن هنا. تعليماتنا هي التالي:

- لا تتحدث مع أي شخص عدانا نحن الثلاثة في الأماكن العامة، ولا تبين لهم بأنك سائحٌ أو أجنبي. في الأماكن الخاصة سنخبرك قبل دخول المكان إن كان من حقك الحديث أو عليك التزام الصمت.
- ممنوع الخروج إلى أي مكان إلا مع أحدنا، حتى لو كان مطعماً أو سوقاً أو حديقة.
- ممنوع لبس أي شيء براق أو فاقع اللون.
- ستنزل في الفندق الذي حددناه، وهو فندق سيءٌ جداً، لكن لا يحق لك تغييره أو تبديله.
- ممنوع استخدام أي مواصلات عامة.
- ستسير وفق البرنامج الخاص الذي فصلناه لك.

لم كل هذه الممنوعات؟ أحس بأني في سجن مركزي، لا مطار مدينة صغيرة. ثم ماذا تقصدون بالبرنامج الخاص؟

***

ركبنا سيارة مونا، كانت جيباً صغيراً مهترئاً، لا يتناسب مع ما عرفته عنها في الجزيرة وصورها في الفيس بوك. مدينة أفقية مكونة من دور إسمنتية ذات طابقين. لا يوجد فيها حركة كثيرة للمشاة. جوها ساخنٌ جداً، كأني في الكويت. صوت طلقٍ ناري بعيد، بينما كان دييغو يتحدث عن المدينة:

الديناصورات والشمس، هم مهندسو هذه المدينة النفطية. كل النفط الفنزويلي الذي تحدينا فيها أمريكا، واشترينا فيه دول الجوار، يولد هنا. النفط يشكل ٩٥٪

من ميزانية الدولة، نحن من يصرف على فنزويلا من الخمسينات. النفط جلب الشركات الكبرى لهذه المدينة، والشركات جلبت الوظائف. والوظائف صنعت الأغنياء. والأغنياء أغروا العصابات. والعصابات تخصصت في الخطف.

بدأت أستوعب ما قالته لي الموظفتان في المطار، بينما يردف دييغو:

- المدينة على حدود كولومبيا. حكومة كولومبيا الذكيّة، عجزت عن مواجهة العصابات الكبرى، فوقعت معها اتفاقية سلام: العصابات تحمي كولومبيا من الجريمة، بينما تسمح الدولة للعصابات بزراعة الكوكايين في مناطق معزولة عن الشعب. نجح الاتفاق، تحولت كولومبيا إلى بلدٍ آمن في سنة واحدة، إذا ارتكب مجرمٌ صغيرٌ جريمة في حق سائحٍ، فإن العصابات تبحث عنه، تعاقبه وتربيه قليلاً، ثم تسلمهُ للدولة. نوعية المخدرات أصبحت أنقى، تزرع على يد عصابات متخصصة في جوٍ هادئٍ ومصانع ومختبرات كبيرة. المجرمون الصغار لم يعد لهم مكانٌ في كولومبيا، أتوا إلى مدينتنا. هنا يجد المجرم الصغير ضالته، موظفون نفطيون، رجال أعمال، تجار عالميون. كل ما عليهم هو خطف الضحية، mmmmالاتصال على أهله وسفارته، طلب الفدية خلال ست ساعات أو يقتل بعدها، الكثير من أصدقائنا انفضحوا وخطفوا.

- ما معنى انفضحوا؟

- ظهرت عليهم علامات الغنى. كأن تحدثوا أمام غرباء أو نشروا صوراً في الفيس بوك عن بيوتهم في ميامي أو لبسوا ساعات غالية. هنا لا يحق لك التمتع بثروتك حتى لو كانت بسيطة.

وصلنا إلى باب الفندق، كان عبارة عن بيت إسمنتي من ثلاثة أدوار، قالت مونا:

- الفندق سيء، لكنه فندق والد صديقتي، نضمن لك أن موظف الاستقبال لن يسرب اسمك إلى إحدى العصابات. قرأت عن الكويت بعد لقائنا، وأعرف

أنها بلدٌ غني. قد تستغل هذه المعلومات في مكان آخر لتتفاخر على الناس أو تستقطب الجميلات، أما هنا فقل لهم أنك عربي، دون ذكر الكويت.

نزلوا معي إلى الفندق، كان كل شيءٍ جاهزاً. تعرفت على موظف الاستقبال الذي أعطاني مفتاحاً دون أن يطلب مني ورقة. أخذوني إلى الغرفة، على أن يعودوا في السادسة مساءً لنبدأ «البرنامج». الغرفة كانت زنزانة بسرير وسجاد. صغيرة جداً، وفيها شباكٌ صغيرٌ مرتفعٌ يشبه شباك الحمام. وضعت أغراضي، رجعت لموظف الاستقبال، سألته عن الانترنت، سمح لي بالجلوس مكانه، وكتبت بدون تفكير كلمة «ماركايبو»، وأخذت أقرأ: أخطر مدن العالم، إطلاق ناري كل ربع ساعة، حالة قتل يومياً، ثلاث حالات خطف يومياً، مدينة البترول والجريمة. عدت إلى الغرفة مذهولاً. وضعت رأسي على السرير. عيناي معلقتان في السقف المتجعد: ماذا فعلت بنفسي! ألا يفترض أني في مقهى مع أصدقائي في بيكاديلي! لماذا أشتري تذكرة إلى سجنٍ إجرامي مرعب؟

لماذا؟

***

في السادسة، لبست أسوأ ما لديّ. طرقت الباب ليزا، برفقتها شابٌ لا أعرفه، ركبت السيارة هذه المرة شاعراً بخوف. حدثتهم عما قرأت في الانترنت، ضحكوا بمرارة، قال الشاب:

- بعد مضي شهورٍ هادئةٍ من الحياة في ماركايبو أشعر بأن كل ما يقال عنها كذبٌ، خدعٌ سياسية لتشويه سمعة البلد أو الرئيس، لكن فجأة يخطفون صديقاً أو يسرقون قريباً، فأدرك حجم الرعب الذي نعيشه.

حاولت ليزا ترطيب نفسيتي:

الآن سنذهب إلى نادي الأطباء، تابعٌ لنقابة الأطباء، يسمح فيه لعوائل الأطباء بالدخول فقط.

كان النادي لطيفاً، مسبحٌ كبيرٌ، حدائق، كافتيريات، ملاعب تنس، صالة ترفيهية، لم يكن مزدحماً. أشارت ليزا إلى كافتيريا زجاجية كبيرة بعد الحديقة:

- هنا معقل شلتنا. شلة أصدقاء تكونت من أربع سنين، نتجمع كل نهاية أسبوع هنا، نجلس على الطاولة رقم ٩، لذا أسميناها شلة ٩، لا يحق لأحدٍ غيرنا الجلوس على الطاولة، نقضي ساعات العصر، ثم نخرج مساءً للسهر.

وصلت إلى الطاولة ٩، وجدت سبعة شباب جالسين، بينهما مونا واثنان كانا معنا على الجزيرة، غمروني باستقبال فرحٍ، أجلسوني على صدر الطاولة ٩. أحسست أني عضوٌ في «شلة الطاولة ٩» لكني لذت بالصمت مكتفياً بالسماع. مالت إلي مونا:

- الماركوتشوز يتحدثون بسرعة هل تريد أن أترجم لك بالإنجليزية؟

لا، لكن أخشى أن أتحدث فأنفضح.

- تنفضح من ماذا؟

- أن يعرفوا أني من بلدٍ غني، فيخطفوني.

نقلت لهم مونا الحوار ممزوجاً بالضحك، ربت دييغو على كتفي بلا تكلف:

- كريم هنا لا شروطٌ في الحديث. نحن أصدقاء نتقاسم خبايانا. ما تتجنبه هو الحديث مع الغرباء، أو في الأماكن المفتوحة، وعموماً قبل أن ندخل إلى أي مكان سنحذرك.

ندم دييغو على تطميناته، لم أسكت بعدها. هل كان الحديث وسيلتي لتفريغ القلق؟

***

الشوارع هادئة، إلا من أصوات الطلق الناري. الهدوء مجرد قناع يخفي النشاط الاجتماعي في المدينة. تعيش المدينة حالة فرح وسهر كل ليلة داخل بيوتها. يتصرفون كالطليان؛ تراحيب ممطرة، نكتٌ لاذعة، أصدقاء وبنو عمومة، الكل يعرف الآخر، يجمعهم الفرح وتفرقهم السياسة. «البرنامج» كان اجتماعياً بامتياز؛ بيوت، مقاهي، مطاعم خاصة، ما يشبع رغبتي وشهوتي في السفر. لم أكن أتخيل أن أخطر مدينة في العالم تناسبني. بينما الكثير من المدن المشهورة (وعلى رأسها طوكيو ولندن والعياذ بالله) كانت من أسوأ تجاربي.

كانت الحوارات تبدأ بكلمة ترحيب ممزوج بنكهة استغراب: عربي! هل وجدت عملاً هنا؟ الكثير من العرب يأتون هنا للبحث عن عمل، والعرب هنا بصفة عامة محبوبون (لأول مرة)، فهم يعملون ويبدعون وينتجون. سمعة المهاجرين العرب في أمريكا اللاتينية جيدة. وفي بعض الدول ينظر إليهم على أنهم طبقة راقية وغنية، وتشير الإحصائيات أن هناك تسعة وعشرين عربياً نجحوا في الوصول إلى الحكم في أمريكا اللاتينية. ولأن البلد نفطي، يعرفون الكويت، وكلهم يردد نفس التعليق: تعرفت على كويتي في دورة تدريبية، شعبٌ راقٍ ومتطور (الحمدلله هناك من يحبنا) ويحبون التسوق. وبحسب عمق المتحدث فإن الحوارات حول المجتمع العربي كانت تتدرج ابتداء من الشخص السطحي الذي يسأل عن الأطباق والرقص الشرقيين، مروراً بمن يسأل عن عاداتنا في الزواج، وانتهاءً بمن يسأل عن مستقبل المنطقة والقضية الفلسطينية.

في الليلة الأولى ذهبنا إلى شقة زوجين شابين. أربعة عشر شخصاً في صالة ضيقة، لم نشعر بالضيق والوقت، أسرّ لي دييغو بقلقه لأن كل ماركايبو تعرف بوجودي، لم يسبق أن جاءهم سائحٌ خليجي. يدخل علينا زوجان شابان آخران، يحدقان في الوجوه، وحينما وصلا إلى وجهي، وتجهت الشابة أصبعها بمرح نحوي قائلةً لزوجها:

أراهنك بأنه العربي.
وابتسمت لهما لتبدأ السهرة.

***

في اليوم التالي، أخذوني إلى بحيرة كبيرة تشرف على المدينة، لم تكن بحيرة، بل كانت دائرة ضخمة متصلة بالبحر لا يرى آخرها. تترعرع حولها مشاهد مختلفة: آبار نفط، بيوت صفيح، قوارب صيد، شباب وشابات يستجمون، أشجار نخيل، رمال سوداء، لم أستطع أن أحدد هوية البحيرة أو البحر، مليئة بالتناقضات، مثل المدينة التي تطل عليها. صارحني الشباب للمرةِ الثانية بأن وضعي أصبح خطراً، اتفقت معهم على يومين فقط.

رجعت إلى الفندق بعد الغداء، أخبروني بأن شاباً لبنانيا غنياً، سمع بوجودي وأعد لقاءً خاصاً في مقهى خاص يملكه اسمه «بيروت». عليّ أن أرتدي فاخراً لأن الكثير من وجهاء العرب قد يحضرون أيضاً. الشاب يملك مطاعمَ ونوادي ليلية (الآن تأكدت بأنه لبناني)، شلة طاولة ٩ سعيدة بالدعوة الراقية المجانية.

لم أجد لديّ ملابسَ تليق بالمناسبة (لإني أسافر بأقل ملابس)، أخرجت جينزاً وقميصاً مجعداً، قررت أن آخذه إلى مغسلةٍ رأيتها على الجانب المقابل من الفندق. لم آبه بكلام موظف الاستقبال الذي طلب مني الانتظار لحين الاتصال بـ»مونا» لتأذن لي بالخروج، ضحكت من طلبه، وخرجت دون أن أرد عليه. أعطيت قميصي للمغسلة راجياً منه أن ينتهي منه خلال ساعة. خرجت من باب المغسلة لأجد سيارةً مسرعةً تقصدني، كبحت فراملها بقوةٍ أمامي. فتح ديبغو باب السيارة غاضباً وطلب مني الركوب فوراً، ركبت هلعاً. أكمل قيادته في جنون وهو يصرخ:

- ماذا لو قال لهم صاحب المغسلة أنك أجنبي؟ ماذا لو شاهدك أحدهم تدلف إلى الفندق وحيداً! أمجنون أنت.

لا بد أن موظف الاستقبال وشى بي. دار دييغو بالسيارة قليلاً، ليطمئنَّ أن لا أحد يتبعنا، سألني:

- هل أخبرت عامل المغسلة باسمك أو مكان إقامتك؟

لا.

- هل تحدثت معه مطولاً؟

طلبت منه أن ينهي القميص خلال ساعة.

لا بد أنه عرف من لهجتك أنك أجنبي. هل شاهدك تخرج من الفندق؟

لا أعتقد.

أطرق مفكراً ولا يزال وجهه غاضباً، ثم قال:

انسَ قميصك. لا ترجع لأخذه، حينما آتيك سأحضر لك قميصاً.

أنزلني عند الفندق غاضباً ورجع، لحظتها فقط أدركت مستنقع الخطورة الذي أرتع فيه.

***

«بيروت» أقرب إلى فكرة «اللاونج»، يسهر الناس في إضاءةٍ خافتة، آرائك مترفة، موسيقى صاخبة، ويقضون وقتاً ممتعاً. طاولة كبيرة في القلب محجوزة لنا، شلة طاولة ٩. جاء الشاب اللبناني - لا أذكر اسمه - أصوله من شمال لبنان، وبدأ حياته هنا في المطاعم، وفتحت عليه أبواب الرزق. كان يسير وخلفه حارسٌ شخصيٌ ضخم العضلات، عرفت منه أنه حارسه الشخصي. قال مستغرباً من زيارتي:

- عادةً ما يأتي هنا السوريون والفلسطينيون واللبنانيون، ممن لهم أقرباءٌ هنا، بحثاً

عن الرزق. لكن أن يأتي خليجي إلى ماركايبو وسائحاً!

كانت غلطةً، فقد تعرفت على الشباب في مارغريتا، ودعوني لزيارتهم.

وهكذا صدقتهم!

ربّت على كتفي ضاحكاً، وهو يقول:

أحببت لقاءك قبل أن أعرفك، والآن أحببتك أكثر. الليلة ليلتك. أعددت لك مفاجآت خاصة.

لم أفهم قصده بـ«المفاجآت الخاصة»! لكن حينما يعدك لبنانيّ بمفاجأة، كن على وجل!

***

ليلةٌ راقيةٌ بحق. كنت بدرها مزهواً بقميص دييغو. الكل يأتي يسلم عليّ ويتبرك بوجودي، فلسطينيون تشرد آباؤهم منذ ١٩٤٨. لبنانيون طاعنون في السن لا يكادون يتحدثون العربية. سوريون يشتغلون بالتجارة بين الصين وفنزويلا. ورئيس البلدية بجلالة قدره (من أصل سوري). نادتني شابة جميلة، أخذتني إلى شابٍ لبناني وصل إلى ماركايبو من ثلاثة أسابيع ويعمل حلاقاً، قالت لي بأسبانيولية حذرة:

أريدك أن تترجم ما أقوله لك لهذا الشاب.

من الواضح أن شيئاً يربطهما، وأن الشاب أسبانيته ضعيفة، أومأت موافقاً، قالت:

- منذ ليلتين، استيقظَ ليلاً، ووجدني أدفن وجهي في المخدة باكيةً، كنت أبكي لتعقد أوضاعنا، حاجز اللغة منعني من الشرح.

قطبت جبيني، فهذا الشاب له ثلاثة أسابيع منذ وصوله وهو يعيش مع هذه الفتاة. قمت بدوري في الترجمة، فقال الشاب:

أحبها أكثر، وأتمنى أن أتعلم الأسبانية لأعبر عن حبي.

نظرتُ إلى الشاب بنظرةٍ ذات مغزى، ابتسم لي بخبث، فهمت مغزاه وترجمت. قالت الفتاة:

- سعيدة بنظراته وعناقه ودفئه. لم أحصل على شيءٍ كذلك منذ فترة. وأخاف أن تبرد مشاعره نحوي.

- لم أحصل على هذا الحنان والحب كله في حياتي من فتاة، ما دامت تعطيني وتخاف عليّ لا يمكن أن أفلت من يديها.

مضيت أؤدي دور المترجم، وأنا أعرف بأن الشاب يكذب. نحن العرب هكذا، نتخذ قلوب الفتيات قنطرةً للحصول على ما نريد: فيزا، إقامة، عمل، مصلحة. أعرف دون أن أتابع الحلقة الثانية، بأن هذا الشاب، سيتعلم اللغة الأسبانية على يدها (ما يسميه الأمريكان: التعلم بالمخدّة Pillow learning)، سيتطور من مجرد حلاق إلى صاحب صالون، ويهجرها. أحياناً لا ألوم الشاب، فهو آتٍ من إحباطٍ عربي، إلى مجهول لاتيني. يحتاج الحنان والأنثى، كلما عصفت ريح الغربة احتاج الإنسان إلى حضنٍ ودفءٍ. عشت مثل هذا الشعور في رحلاتي الطويلة، لا أهلٌ ولا وطنٌ ولا سكن، ومحاطاً بالغزلان. لكن حياة الرحلة غير حياة الغربة، تقتضي سرعة التنقل من مكانٍ لآخر، فلا وقت للعلاقات والاستقرار، مكتفين بالحوارات واللقاءات الخاطفة.

كم أَقْبَلَتْ نحوي ظباءٌ تُظِلُّني، فسَّني هَواها مَسَّ نورٍ لا مَسَّ إظلامِ

وقف رئيس البلدية ماسكاً الميكروفون، مرحباً بالحضور بالعربية والأسبانية، ومرحباً بقمر الليلة الذي أتاهم من الخليج: الأستاذ عبدالكريم الشطي! كدتُ أنفجر ضاحكاً وأنا أتحول من صعلوك متسكع على الخريطة إلى «أستاذ» و«رحالة» و«ابن بطوطة العصر»! ومضى في خطابٍ يطريني فيه جامعاً الشرق بأمريكا اللاتينية. اكتملت المفاجأة وهو ينهي خطبته العصماء بطلب كلمةٍ مني أمام الجمهور. نظرتُ إلى أصحابي

وعيناي تقول: أين السرية والتخفي؟ لكن ليزا أشارت عليّ بأن أتحدث، هامسةً لدييغو: احرص على أن تحجز له تذكرة بعد غدٍ. وصلني الميكرفون، تنحنحت، استجمعت أفكاري:

«سينيورتاس إي سينوريس...

طالما سافرت وعصفت بي الغربة. لا غربة هنا، العالم العربي يمتدُّ بدفئه وسخونته، وإن كان لسانه إسبانيولياً. لقد حكم العرب «أندلسيا» لثمانمائة سنة، طردوهم رسمياً، لكن فعلياً ظلت نكهتهم وتوابلهم وأسرارهم وروحهم رابضة في المدن الأسبانية رغماً عن محاكم التفتيش، تتوغل في الداخل وتتخفى عن العيون. وحينما وصل الأسبان هنا، كانت الروح العربية - بكرمها وحرارتها - مختبئة في الشرايين. انتقلت إلى هذه الأرض وعشعشت فيها. لا يشعر العربي بالغربة، والعرب - من أمثالكم - يعيشون ويتعايشون كما لو كانوا في دمشق وفلسطين وبغداد والقاهرة. هناك شيء في الهواء لا يرى، لكنه يُحس ويقرأ. هناك شيء في السحنات والتقاسيم، تذكرك بشمس الشرق الأوسط..».

ولم أكد أنهي خطابي التاريخي، حتى اشتعل المقهى بموسيقى شرقية عالية لراغب علامة:

قلبي عشقها والعيون

هويتها وأهلها ما يدرون!

واشتعل المقهى تصفيقاً حاداً، دخلت راقصة شرقية بيضاء البشرة، ترتدي بدلة رقص شرقي تعجّ بالمعلقات الذهبية الرنانة. خرج بؤبؤاي من محجريهما، راغب علامة وراقصة شرقية في أقصى الكرة الأرضية! لم يسبق لي في الخليج أن رأيت راقصةً وهنا في آخر العالم أرى راقصة!

توجهت الراقصة إلى ضيف الشرف المحتفى به، احمرّ وجهي خجلاً، كيف لي أن

أتصرف. الكل كان سعيداً ومنتشياً من حولي، أصدقائي الفنزويليين كانوا سعيدين بإحضار الشرق أمامي في ماراكايبو، بينما الإحراج يقتلني.

انتهت الأغنية، تنفست الصُعداء، لاحظ أصدقائي نجلي وارتباكي، لكن أغنية أخرى تدخلت بسرعة، كانت بصوت رامي عياش هذه المرة:

بغنيلا وبدقله

وغير بحبك ما بقله

وحطا عاراسي من فوق

قدام العالم كلا

مع إيقاع طبلةٍ قوية، تدخل راقصة سمراء أخرى، يشتعل المكان رقصاً، وأشتعل إحراجاً!

تناوبت الراقصتين عليّ، إلا أنْ رجوت صاحب المقهى أن يعتقني، فضحك وقال بخبث: ما رأيك بالمفاجأة؟ أشار إلى الراقصتين وطلب منهما أن يرقصا فوق رأسي! إياك أن تمزح مع لبناني في مكان كهذا!

***

هدأت الموسيقى. سكنت شياطين الإنسِ والأُنسِ. عاد لي لوني تدريجياً. تنابز أصحابي حولي، شرحت لهم الفرق بين ثقافة الخليج وثقافة الشام ومصر. أمطرتني الفتيات بأسئلة عن الرقص الخليجي، هذا ما كان ينقصني. أقبلت عليّ فتاةٌ بيضاء، ترتدي بنطالاً أسوداً وقميصاً حريرياً قاني الحمرة. سلّمت بلهجة خواجات مصر. تصرفت كأنها تعرفني، تفحصتها جيداً لكني لم أعرفها. قالت:

أنا اللي كنت برقص هنا من شوية! لكن أنت مش بتبص ... شكلك مكسوفة!

كانت هي الراقصة! فنزويلية درست الرقص في مصر لمدة ثلاث سنوات، تبعتها بعد دقيقتين الراقصة السمراء، ترتدي جينزاً ممزقاً وقميصاً أسوداً أنيقاً، عرّفت بنفسها:

- اسمي آني، فنزويلية تعلمت الرقص في لبنان لمدة خمس سنوات.

هذا ما نقدمه للبشرية، الرقص والشيشة!

***

في تلك الليلة، كانت ليزا تتحدث مع شاب مفتول العضلات يجلس في طاولة أخرى لتنظيم حفلة وداعية غداً في منزله. ليزا غاضبةً، والبقية يهدئونها. ما فهمته من حوارهم، أن هذا الشاب - الذي لا يعرفني - يمتلك فيلا خاصة، وعرض عليهم أن نجتمع فيها ظهراً للغداء على شرف وداعي. وبعد أن اتفقوا على كل شيء، اشترط عليهم أن تدعو ليزا فتاةً اسمها مونيكا. ما يوحي بأن العزيمة لم تكن على شرفي بقدر ما كانت لمونيكا.

أخذونا إلى نفس الشقة الضيقة التي تجمعنا فيها ليلة البارحة، سهرة امتدت إلى السادسة صباحاً. في السادسة خرجنا مع عمال المدينة، توجهنا إلى كشك حديدي صغير، يعدّ الإمبانادا (سمبوسك لاتيني) وأطباق العمال، كان الطعام لذيذاً، ورواد الكشك إما من العمال أو ممن أنهوا سهراتهم للتو.

***

ذهبنا إلى بيت المفتول ظهراً، البيت من الخارج يبدو عادياً، صالون صغيرة وغرفة نوم ومطبخ. في آخر الصالون باب زجاجي ضخم، يطل على مسبح وحديقة. فكرة

البيت أنه مسبحٌ وحديقة لحفلات الشواء وتجميع الأصدقاء. المفتول بصحبة خطيبته، فتاة ناعمة الملامح، شعرٌ أسودٌ مرسل، وبشرة قمحية أقرب إلى البياض. بدأت الناس تتوالى فرادى على المنزل. رن تلفون ليزا، تحدثت مع الفتاة التي اسمها مونيكا. تغيرت ملامح خطيبة المفتول، سحبته إلى زاوية الحديقة في غضب، ساد الوجوم على وجوه أصدقائي. تدخلت ليزا وقالت لخطيبته بأنها هي من دعت مونيكا، وأن خطيبها لا علم له بذلك (كانت تكذب لإنقاذه). سألت دييغو إن كانت مونيكا صديقة المفتول السابقة أو له علاقة بها؟ قال لي دييغو هامساً:

- كل الموجودين هنا من أجل مشاهدة مونيكا.

- لكن من تكون مونيكا؟

أطلت ليزا من الباب وخلفها مونيكا، عرفت السبب!

العرب تفرق بين الجميلة والحسناء، الجميلة تعجبك من بعيد، والحسناء تعجبك من بعيد وتزدان كلما اقتربت منها. مونيكا من صنف الحسناوات، تحيط بها هالة من العذوبة، يشع منها جمالٌ أخاذ لا تفهم سره، لم ولن أشاهد حسناً مثله. كل العيون معلقةٌ بها، الصبايا قبل الرجال. مونيكا أنهت للتوِّ مشاركتها في مسابقة عارضات أزياء العالم وجاءت في المركز الثاني، فكانت حديث المدينة. لم يسبق لي أن رأيت عارضة أزياءٍ من قبل، وكنت أعتقد أن جمالهن بفضل التلفاز والزينة، لكن في الطبيعة بدت فائقة الحسن.

ساد التوتر في الجو. غضبت خطيبة المفتول، انزوث في زاوية الصالون لا تحدّث أحداً. مونيكا فراشة تنتقل بيننا برشاقة، ترتدي ثياباً رياضية بسيطة، تتعرف على الناس وتحدثهم بكل تواضع. أميرةٌ بقلبِ فلاحة. فنزويلا هي أكبر مصدّر لملكات الجمال في العالم، لا أعرف السبب، لكني لاحظتهم يهتمون بالتأنق واللباس والمظهر. خصوصاً في العاصمة كاراكاس. يبالغون في التباهي رغماً عن الخطف والفقر. ولعلك

واجدٌ مثل هذا الشيء في دول لاتينية أخرى، لكن ليس بكثافة فنزويلا. ولعل أحد أسباب جمالهم أن أغلب الشعب جاء مهاجراً من أنحاء مختلفة من أوروبا وحوض المتوسط وبلاد الشام.

حظى المفتول بلقاء مونيكا، على حساب غيرة اشتعلت في قلب خطيبته. اشتعلت أنا حرقة على وداع ماركايبو، انقلبت الساعة الرملية وبدأ الوقت ينفد.

ماركايبو هي عينها «نارُ الخليل»، ظاهرها لظى، وباطنها بردٌ وسلام. وحدهم البشر يحيلون مدناً خطرة إلى مدن مفعمة بالذكريات المنقوشة على جدرانك الداخلية. السفرُ البشرُ، إن وجدت من تشاكله، زَهَت الرحلةُ وأَوْرَقَت لك، وإن لم تألف البشر، أَظْلَمت كبحرٍ لُجِّي.

ركبت الباص الليلي، كبير مريح، يقطع الطرق الطويلة بين المدن ليلاً. وداع حار. دييغو أهداني قميص السهرة الذي جلبه لي. ليزا خلعت سوارها. مونا رسمت على كوبٍ صغير. هدايا بسيطة جاءت من قلوبهم.

***

ميريدا Merida [٣٢]، قرية صغيرة تحوفها الأنهار وتطوقها جبال الأنديز. «كانت» قرية هادئةً، قررت الدولة أن تبني فيها جامعة كبيرة، فنزح إليها عشرون ألف طالبٍ وطالبة. يمتلئون جنوناً وحيويةً وتوقاً. اندمجوا مع بساطة المدينة. اغتسلوا بأنهارها. وارتقوا جبالها. وسكنوا بيوتها الكولونية (العربية) التي بناها الأسبان منذ مئات السنين.

---

٣٢. عشرات المدن في دول أمريكا اللاتينية تحمل هذا الاسم، والاسم مشتق من مدينة «ماردة» الإسلامية الأندلسية.

دخلتها صباحاً، بدأت بطقسي المفضل: «قراءة في وجه المدينة» : الوجوه، العمران، الملابس، اللهجة. المدينة بسيطة، بيوتٌ ملونة من طابقٍ واحد. محاطة برؤوس جبالٍ شمةٍ كأنوف النجديات. الجوُّ جبليٌ منعشٌ، سماء صافية مزركشةٌ بكتلٍ قطنية. شعورٌ بالراحة النفسية المطلقة، بعكسِ شعور الرهبة في ماركايبو.

دلتني قدماي على سكة صغيرة بمحاذاة جدول ماءٍ صغير، فيها أكشاك صغيرة للأنشطة الرياضية Outdoors activities، يديرها الطلبة، كل بحسب هواياته: رحلات تسلق، تجديف، صيد، يوغا، سفاري، وكلها مع لمساتهم الخاصة وبأسعار زهيدة. اخترت تعلم الطيران الشراعي. دورة لثلاثة أيام، نفس الشراع الذي كان يسافر به جدي بحراً إلى الهند، سأطير به فوق الأنديز. سجلت أيضاً في رحلة «تسلق شلالات». راقت لي الفكرة، ترتدي بدلة غوص وتتسلق شلالاً.

***

قضيت أيامي في الأنشطة الرياضية. جلست أمام أكشاك الرحلات، نزعت حذائي وأرخيت رجلي في الجدول الصغير تاركاً الماء البارد ينعشهما. وسوس لي ابن شطوطة بأن أعيش لسنة في ميريدا. أستأجر غرفة مثل بقية الطلبة، تكلفني عشرة دنانير في الشهر. أعطي دروساً في العربية والإنجليزية، أفتح كشكاً للفلافل، أو مطبخاً كويتياً.

استفقت من أحلامي على صوت صفعة. شابٌ يصفع فتاةً وهو يمسكها من رسغها. قفزت من مكاني - بلا شعور - وحررتها من يده بقوة ممسكاً بتلابيبه. تراجعت الفتاة، صرخت الفتاة تشكو الشاب، وتدافع الشباب حولنا. سحبتني يدٌ رقيقة بين الزحام وأدخلتني كشكاً. شعرت بذهول موسى عليه السلام حين وكز الشاب فقتله. دخل ثلاثة شباب إلى الكشك إثرنا. أقفلتْ الباب. الشباب يصرخون في وجهي

سائلين عن ما حدث. أسكتتهم الفتاة، ناولتني كوب ماء، وهدأتني. قالت للشباب:

- كنت جالسة في مكتبي (الكشك)، رأيت الشاب الوقح في الخارج يصفع الفتاة الصغيرة، فقام هذا السينيور الشهم بتحريرها منه.

المتحدثة هي الفتاة التي اشتريت منها عرض تعليم الطيران الشراعي. عصرت ذاكرتي لأستخرج اسمها: ديانا. طلبت ديانا من الشباب الخروج وفضّ التجمهر. والتأكد من تأمين طريق للفتاة الصغيرة بعيداً عن الشاب. تأملتني بابتسام وقالت بلهجة أمريكية نقية:

- الشباب هنا غيورون جداً يا سينيور عبدول. يحبون التحكم بالفتيات.

- وهل قمتُ بعملٍ خاطئ؟

- بالعكس ما قمت به رجولة نفتقدها في زمن الأنانية. المشكلة أن الفتيات يحببن ذلك، وسرعان ما ستعود إليه.

أمتأكدة أنت؟

- الليلة ستتحسس آثار الصفعة. ستقول لنفسها لو لم يحبني ما صفعني. غداً تعود إليه. الفتيات هنا ساذجات.

طرق الباب سياحٌ شقر. فتحت لهم ديانا الباب وتحدثت معهم بلغة ألمانية سلسة خرجوا، فسألتها:

كم لغة تتحدثين؟

- إذا كنت تعتبر الفرنسية والأسبانية والبرتغالية لغاتٍ مختلفةٍ[٣٣]، فتضيف عليها الألمانية والإنجليزية، ليصبح المجموع خمس لغاتٍ.

- هل تدرسين أدباً مقارناً؟

---

٣٣. البعض يعتبر اللغات اللاتينية لغةً واحدةً لأنها جميعاً تنحدر من نفس اللغة وتتشابه بينها، وأهمها: الأسبانية والإيطالية والفرنسية والبرتغالية والرومانية.

لا. لكن أسرتي مخلوطة وحياتي انتقالات أكسبتني لغاتٍ عدة. وأمامي عربيٌ، لم يدفع ثمن رقبته التي استخرجتها من متهورين مراهقين، سيعلمني بضع كلماتٍ عربية.

- على أن تأخذيني إلى بيتكم، أريد أن أتعرف على أهل ميريدا.

- للأسف لست من أهل ميريدا، والدتي تعيش في الشمال ووالدي في أسبانيا. أعيشُ هنا مع عشيقي[٣٤] الألماني في غرفة طلابية مستأجرة.

- ألماني؟ لا أتخيل لاتينية مع ألماني، شايٌ مغلي مع ثلج!

ضحكت من قلبها، أعجبتها النكتة، قالت لي:

- سنخرج الليلة مع «شلة» أصدقاء ألمان وفنزويليين، هنا يعيش الكثير من الألمان. وأنا همزة الوصل بينهم وبين الفنزويليين. ولا أرى مانعاً بأن نضيف على المجموعة شيئاً من التوابل العربية.

حسناً.

- جهز ملابس دافئة، وأحضر معك ٢٠ بوليفار. نلتقي في الخامسة مساءً.

***

كنا أقل من عشرين شاباً وشابة، أغلبهم ألمان، تشعر بينهم بأنك قصير القامة، وأسودُ البشرة. لم يستنكروا حضوري ولم يبالغوا بالترحيب فيّ. طلبت مني ديانا المبلغ وسلمته لأحدهم، ارتبك المحاسب لأنه كان يجب أن يعيد لي مبلغ ٢ بوليفار. مشينا

---

٣٤. عشيقي هنا بمعنى Boy-friend وهذه الكلمة ناشئة على التاريخ البشري، إذ كانت العلاقة بين الجنسين إما زواج أو علاقة محرمة. لذا قام الإنجليز بدمج كلمتين لاستحداث مصطلح يصف هذا النوع من العلاقات بين الجنسين، حتى في اللغة الأسبانية يستخدمون كلمة «نوفيو» والتي كانت تعني «الخطيب» وأصبحت تطلق على العشيق. ولا زلت أواجه مشكلة في إيجاد ترجمة عربية سليمة تعكس هذه العلاقة، فهي غير مقبولة ضمن عاداتنا، وإن كانت موجودة في الحقيقة! فإن أحسست بأن العلاقة بين الطرفين متقدمة وأهلهما يعرفان بها أسميه خطيب، أما إن كانت لا تزال سرية أو مخفية أسميه عاشق.

لنصف ساعة إلى منطقة شجرية. أخرجوا فؤوساً صغيرة. قطعوا بعض الأخشاب الجافة. ارتقينا جبلاً صغيراً. جلسنا في باحة صغيرة. خلفها تجويف عريض يشبه الكهف، أشعلوا النار، أخرج الألمان النقانق للشواء، وأخرج الفنزويليون قطعاً من اللحم الملفوف بورق الموز. شابٌ فنزويلي وفتاة فنزويلية، ركّبا قطعاً خشبية ليصنعا شيئاً يشبه الطبل المربع والجيتار الصغير.

كانت الجلسة أريحية وخفيفة، ظلام الجبل، إطلالة على القرية، صوت نهرٍ يختلط بضحكاتنا والموسيقى، هواء جبليٌ منعش. الموجودون إما طلبة أو رحالة سنة التفرغ Gap Year[٣٥]. ديانا كانت تنتقل بين الجميع بخفة، فراشةً محبوبةً من الجميع، صديقها لم يكن يبالي بذلك. سألتني:

- هل أنت مستمتعٌ بالجلسة؟

تجاوزت سؤالها، محللاً الوضع العام:

لاحظت أن الجالسين قرب النار مجموعة مجنونة واجتماعية، بينما الجالسون قرب الكهف...

سكتُّ متردداً لإن عشيقها كان يجلس بجانب الكهف، وفسألتني بشغف:

أو ماذا؟

- بصراحةٍ يبدون مملين بعض الشيء.

هربت منها ضحكةٌ عالية، حاولت تغطيتها بأناملها:

أنتَ شقيٌ وشديد الملاحظة. استغرق مني هذا التحليل ثلاثة أسابيع لأعرف الفرق بين الألمان الشرقيين والغربيين. الضاحكون الجريئون الجالسون جنب

---

٣٥. Gap Year نظام عند بعض الدول الأوروبية يمنح بموجبه الطالب الذي ينهي الثانوية العامة، سنة من التفرغ، مع مبلغ مالي يكفي لشراء تذكرة والسفر بتكاليف منخفضة، لكي يجرب الطالب العالم ويتعرف على نفسه قبل أن يتخصص في الجامعة، لأنهم اكتشفوا أن الكثير من طلبة الجامعة يغيرون تخصصاتهم بعد السنة الأولى. والآن أصبح هذا المصطلح يستخدم بشكل واسع لكل من يرغب في التفرغ للسفر لسنة، لاكتشاف العالم واكتشاف نفسه. ينتشر هذا المفهوم في أوروبا أكثر من أمريكا.

النار هم الألمان الشرقيين، أما الهائمون في التفكير وحل المعادلات الرياضية بجانب الكهف هم الألمان الغربيون!

- يبدو أن سور برلين نجح في عزل الشعبين عن بعض إلى يومنا هذا. فعلاً الجغرافيا هي من تربي البشر. لكن كيف يمكن لفنزويلية أن تعيش مع شخص ببرود الغربيين؟

نظرت إليّ نظرة ذات مغزى، هَرعتْ إلى النار، أحضرت كوبين من أعشاب ساخنة، وأخذتني إلى صخرة مرتفعة، تُطِل على المجموعة كلها.

- عشيقي يتقن الإنجليزية والأسبانية، من الأفضل أن نجلس بعيداً ونفرغ نميمتنا العنصرية ضد شعوب العالم هنا من دون أن نجرحه.

أنتِ ذكية وخبيرة بالشعوب، أريد أن أسرقَ منك ملخص أخلاق الشعوب وشخصياتهم في هذه الجلسة.

بدت ملامحها أجمل مع انعكاس النار على وجهها، الفتيات أجملُ في الطبيعة، سواءً كنّ تحت شلال الشمس أو على ضوء اللهب. شدّت معطفها الأسود المحشو بريش البط، أزلت قبعتها الصوفية الوردية على أذنيها، بادلتني شبح ابتسامة وهي تقول:

- ولدتُ في أمريكا. لأب فنزويلي من عائلة أسبانية، ومن أم فنزويلية. توزعت طفولتي بين أمريكا وأسبانيا. أتيت فنزويلا مع بداية المراهقة. افترق والديّ، فعشت متنقلة مع والدتي بين عدة مناطق في فنزويلا. حينما وطأت ميريدا، غشتني راحة نفسية ووقعت في حبها. ارتبطت بعدد من الشباب الفنزويلي، ممتعون في البداية، ومأساويون في المنتصف، مجرمون في النهاية. مع الفنزويلي أشعر بأني في حضن رجلٍ حقيقي، يحب بوحشية ويغار بصدق لكنه - في النهاية - يركلك بقرف!

نظرت إليها بتشكك مشوبٍ بالاستغراب. قالت رداً على نظراتي:

- تخيل آخر عشيق فنزويلي، كان يقاسمني السكن. استيقظت في الصباح، لأجده

مختفياً، سارقاً ما جمعته من عملي وساعتي واكسسوارتي. دون أن يترك وراءه رسالة وأثراً. عاد إلى المدينة بعد فصلٍ دراسي. يمر بجانبي كأنه لا يعرفني! بعدها لم أتعرف على فنزويلي. الألماني على بروده وضجره، لا يخون ولا يسرق ولا يصفع.

- وهل هو كريمٌ؟

لا، الألمان يتربون على العمل والإنتاج. لا يصرفون أموالهم إلا على أنفسهم، يدرسون قرار الشراء بدقة شديدة. يضايقني أن أعيش مع شابٍ أغنى مني ويتصرف كأنه أفقر مني. ألم تلاحظ أني طلبت منك أن تحضر معك مبلغ الشواء مسبقاً، لأن هؤلاء الألمان يقدمون المال على الصداقة. ينسجون كافة قراراتهم في الحياة بناءً على الدخل.

أي نوعٍ من القرارات؟

الوظيفة، الوطن، الحب، الزواج، الإنجاب، حتى شراء السيارة. إنهم ماديون بطريقة مملة.

- وكيف تقبلين بمثل هذا الوضع؟

أشعر بأن العلاقة معه تكاد تكون عقدية وليست عاطفية. لكنهم مبرمجون بهذا الشكل. الشاب كان واضحاً معي، بمجرد انتهاء دراسته، فإنه سيتركني. وأنا أحب مثل هذا الوضوح، حتى لا أتشربّ حبه.

- وأنتِ ماذا تخططين لمستقبلك بعد الدراسة؟ هل تنوين فتح مكتب سياحي خاص بك؟

أودُّ من كل قلبي أن أعمل في السياحة هنا، البلدُ متلونٌ جداً وثري بالأماكن السياحية. لكن حكومة البلد هوجاء، وسياساتها الاقتصادية موجهة للفقراء فقط على حساب الطبقة المتوسطة، إذا استمرت حكومة شافيز في هذه السياسات الاشتراكية الغبية، فإنني حتماً سأذهب إلى أوروبا.

- الحكومات تتغير مع كل انتخابات؟

لا يمكن أن يتغيّر شافيز. إنه يوجه مصادر البلد كلها لأحياءٍ فقيرةٍ غير منتجة، تمثل أكثر ٧٠٪ من الشعب. يقدم لهم المساعدة ويقدمونَ لهُ الصوت. كل ذلك على حساب الطبقة المتعلمة المتوسطة.

سكتنا في جلال، كلٌ يحضن كوبَ الأعشاب الساخن، نستجدي منه دفئاً. سألتني:

- أين هي محطتك القادمة؟

- هناك عدةُ خيارات أمامي؛ قبائل في الشمال، لوس روكس في الكاريبي..

- هل لديك المبلغ الكافي من المال؟

- نعم.

كم لديك من الوقت؟

- الوقت مفتوح.

- هل سبق وطعمت ضد الحمى الصفراء؟

- نعم.

- لماذا لا تسلم لي نفسك لأسبوع. سأمنحك شيئاً لن تنساه. سأقوم بكل الحجوزات اللازمة مستغلةً علاقتي مع الألمان. شيءٌ لا تحلم به.

- لكن إلى أين؟

- مفاجأة من العيار الثقيل. أريدك أن تثق فيّ ولن تندم.

نحن العرب نوافقُ ونلتزمُ إكراماً للواقف أمامنا. هل ستكون ماركايبو أخرى؟

***

عصر اليوم التالي، ذهبت إلى مكتبها، وجدته مقفلاً، جلست على جدول الماء،

غمستُ رجليّ في الماء، متذكراً أحداث البارحة السريعة، الأقدار في الأسفار سريعة ولذيذة، بعكس إيقاع الحياة في الوطن، مملة ورتيبة. دفعتني يدٌ قويةٌ من خلفي في الجدول، سقطت فيه مصروعاً من المفاجأة، تلفتُّ ورائي، وجدت الشاب الذي صفع الفتاة يضحك، ومن خلفه الفتاة تبتسم في اعتذار. أشار لي الشاب بإصبعه وحاله يقول: هذه بتلك. تأبط فتاته. التفتت إليّ الفتاة بابتسامة معتذرة دون أن تقول شيئاً، واختفيا!

صدقت نبوءة ديانا.

رممت نفسي في ضيقٍ، هل هذا جزائي. أطلَّت ديانا بعد دقائقٍ من الحادثة، فزعت لمنظري، أخبرتها بالحادث، قهقت في سخرية، وهي تقول:

- فنزوييات بلا كرامة!

فتحت مكتبها. طبعت بعض الأوراق. قالت لي:

- أخرج بطاقتك الائتمانية يجب أن تدفع ٧٩٠ دولاراً.

شعرت بالخوف لوهلة، هل تكون هذه نصبة احترافية من هذه البنت. حدقت في وجهها بحدة، لا يمكن أن تكون هذه الملامح كاذبةً. كالمسحور، أخرجت بطاقتي الائتمانية، ودفعت مبلغاً باهظاً، مبلغاً يكفيني لشهر كاملٍ في أمريكا اللاتينية.

***

الإيقاع كان سريعاً مشوباً بالحيرة: باص ليلي إلى كاراكاس، هوستيل أنيق، تذكرة سفر، شطب على بياناتها. الشاب في الهوستيل كان متواطئاً مع ديانا، قال لي:

- ستترك شنطتك هنا، وتأخذ شنطة صغيرة لا تتجاوز ٢٥ ليتراً، المكان حارٌ فلا تأخذ شيئاً دافئاً.

- وأين هو المكان؟

ضحك الشاب بسخرية:

- ستعرف حين تصل.

***

وصلت إلى المطار. لم يكن مطاراً بل مبنى مربعاً صغيراً، خلفه مدرج طائرات نحيفٍ وطويل. استقبلني شابٌ ألماني، عرفني على الكابتن، طيّار ألماني متقاعدٌ:

- هذا أول سائح عربي يخرج معنا. سجلته بالرحلة ديانا من مكتبنا في ميريدا بشرط أن لا نخبره عن المكان شيئاً.

ربّت الكابتن على كتفي:

- بريف هارت Brave Heart.

بدأت أشك بأنها من رحلات القفز الجوي، لم أرغب يوماً في تعلمها. على أريكة خلفي، كان يجلس رجلٌ أبيض أصلع، له ابتسامة رائعة، سمع حوارنا، وعرفني بنفسه:

- دانييل من فرنسا، أقوم برحلة لمدة تسعة شهور في أمريكا اللاتينية. مضى منها أربعة شهور.

لم تكن طائرةً، كانت تاكسي له أجنحة ومروحة أمامية، تكفي لخمسة ركاب والكابتن. أجلسونا بحسب أوزاننا، واحدٌ جنب الكابتن، وكل اثنين بجنب بعضهما. قاومت الطائرة الصغيرة الجاذبية بثقل وهي ترقى في السماء، تناوشتنا الرياح. طلب منا الكابتن الهدوء كي لا نُخِلَ بالتوازن. أخبرنا الكابتن بأن شركة الطيران بدأها طيار ألماني منذ ثلاثين سنة، وهي الشركة الوحيدة التي تقلك إلى أماكن مقطوعة في فنزويلا. يحتكر الألمان بعض الأماكن السياحية في فنزويلا. وأثناء حديثه، زلّ لسانهُ:

- صدقوني كانايما ستعجبكم، كلُّ الذين سافروا معي، عادوا مبهورين منها.

صرخت في دهشة:

- كانايما، هل نحن ذاهبون إلى كانايما!

قاتلك الله يا ديانا، ترسليني إلى قلب غابات الأمازون!

***

الأمازون رئة الكرة الأرضية، المصدر الأول لإمدادها بالأكسجين، شرايين نهرية متشابكة مسيّجة بغابات، فهما في برازيل المحيط الأطلسي وذيولها تكاد تلامس المحيط الهادي. الأمازون يتوزع بين عدة دول: البرازيل وفنزويلا وكولومبيا والإكوادور وبيرو. وعاشت فيه مئات القبائل البشرية، وبعضها لم يكتشف بعد. صحيح أن نهر الأمازون أقصر من النيل قليلاً، إلا أن كمية المياه التي يضخها في المحيط أكثر بستين ضعفاً من النيل![٣٦] ويبلغ عرض النهر في بعض أجزاء خمسة كيلومترات. ومساحة الغابات الممطرة في حوض الأمازون تعادل ضعف مساحة الهند.

«كانايما» هي عاصمة الأمازون الفنزويلية. ليست عاصمة بالمعنى الحضاري، لكنها النقطة الوسط في الأمازون الفنزويلي. فيها قبائلُ تعيش في أكواخ صغيرة.

هذا ما كنت أعرفه عن الأمازون وعن كانايما. لكن ما رأيته من الطائرة شيءٌ مبهر: مسطحات غامقة الخضرة. تتخللها عروق مائيةٌ لا حدود لها. المسطحات تختلف؛ غابات، أعشاب، أحراش. تتناثر فيها جبالٌ دائرية ضخمة. كأنها طاولة عمالقة نصبت في الأمازون. هذه الطاولات تسمى تيبوي (جبل الطاولة)، رأسها أصلع لكن تنمو

---

٣٦. تنحدر مياه الأمازون من قمم جبال الإنديز، وحينما تبلغ المحيط الأطلسي، فإن الماء العذب يصل إلى ١٦٠ كيلومترًا داخل البحر. ويصب الأمازون ١١٥ ألف طن من المياه العذبة في الثانية في المحيط الأطلسي.

شجيرات على فَوديها. غيومٌ تحيطها في تواضع، تربّت على الغابات أو تطوق التيبوي. شلالات باذخة أينما اتجهت عينك. منظرٌ مبهج، يجعل لسانك يزقزق بحرف السين تسبيحاً.

وصلت الطائرة (التاكسي المجنح) بعد ساعتين تقريباً. نزلنا من الطائرة، استنشقنا هواءً مصفىً للمرة الأولى في حياتنا. شعور غريب بالانشراح، بسبب اللون الأخضر الغامق والأكسجين النقيّ.

أدخلونا إلى أكواخٍ طينية نظيفة، فيها سرير وناموسية. أنا ودانييل تقاربنا كثيراً، فكرياً وروحياً. فتح لي دانييل خريطة ورقية كبيرة للأمازون. شرح لي خط سيرنا، سننتقل من مكان إلى آخر على مدى خمسة أيام، كل ليلة في مكان. شكوت له من شعوري بالضيق، فأنا لم أقرأ عن المكان ولا عن تاريخه:

لا تخفْ معنا أدلاء متخصصون في شرح الطبيعة والحيوانات والنباتات.

تجولنا في القرية وما حولها، كل اتجاهٍ ينتهي بنهر ضخمٍ، أحد الأنهار بدا كشاطئ رملي، في منتصف النهر غرست ثلاث نخلات جوز هند رشيقاتٍ وطويلات، رأيتها بعد ذلك على غلاف الدليل السياحي لفنزويلا Lonely Planet. الأمازونيون هادئون، غالبيتهم لا يتحدثون الأسبانية، وليس لهم وظائف محددة، يشتغلون في أي مهنة تتاح لهم. قصار القامة، سمر البشرة، ضيّقو العيون، مجعدو الشعر، نساؤهم تميل إلى السمنة. لبسوا اللباس الغربي من بداية التسعينات، وقبلها كانت لهم ملابسهم الشعبية الخاصة. لم أجد جاذبية كبيرة في التعرف عليهم، ومثلي دانييل. السبب تمدنهم الجزئي، من يرغب بإنسان بنصف هوية وتراث؟

***

فجراً ركبنا مركباً خشبياً طولياً، في آخره محركٌ مهترئ. في المقدمة شابٌ أمازونيّ

يمسك مجدافاً. مسموحٌ لكل شخص منشفة وقميص. انطلقنا نجوب أنهاراً عريضة، أطرافها محناةُ اللون من جذور الأشجار. الطبيعة تتغير باستمرار؛ أدغال كثيفة، مساحات خضراء مفتوحة، شلالات قصيرة، جبال صخرية مغطاة بالأشجار، ومساحاتٍ رملية جافة. نزلنا على حافة أحد الأنهار، لنبدأ المسير، أخبرونا بأننا سنسير لعشر ساعات، نتوقف خلالها في بعض الأماكن المنتقاة. يشرح الدليل الحياة البرية:

- هنا يأتي العلماء الألمان بحثاً عن نباتات متنقلة، ليس لها جذور. تنمو على سطح الأرض بالقرب من الأنهار، في موسم الطفو تحمل الأنهار هذه النباتات إلى أماكن أخرى من الأمازون. هل رأيتم نباتات تمشي وتتنقل؟ في تلك الغابة يوجد نوع خاص من الفهود المنقطة، سريعة ومتسلقة للأشجار. هناك تنتشر الثعابين. إذا كان طولها أقل من المترين فلا تخشوها، أغلبها مسالمة، وغير سامة.

كنا نعبر دغلاً صغيراً، صرخت فتاةٌ ألماً. هرع إليها الأمازوني، الفتاة مرت بورقة شجرٍ حادة جداً، يسمونها السيف، هذه الورقة بإمكانها أن تدمي أي شخص يلمسها لحدة أطرافها!

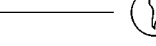

في البداية تأتي الأسطورة، ثم اللهث وراءها، ثم تكذبها الحقيقة.

حينما تمكن الأسبان من بسط نفوذهم على بيرو والإكوادور، سمعوا بأسطورة «أرض القرفة». أرسلوا بعثة استكشافية تبدأ من مصبات نهر الأمازون للبحث عنها. لم يعرفوا ما هو الأمازون وقتها. وقبل الوصول إلى نهر الكوكا، هلكت ثلثي البعثة مرضاً. صنعوا صاريتين خشبيتين لخوض النهر. وانطلق القائد «أوريليانا» مبحراً في نهر

الكوكا، ظاناً أنهُ قصير.

وصلت صواري أوريليانا إلى مفترق النهر. ثار البحارة على قائدهم مطالبين باستكمال الرحلة. طمعاً في الغنائم. النهر يتوغل وتزداد شراسته. مرّوا بعشرات القبائل المختلفة. اخترقوا فيها النهر الأسود وحاربوا قبائل التابايو. يقاتل رجالهم ونساؤهم جنباً إلى جنب. تذكر أوريليانا في هذه المعركة أسطورة إغريقية عن شعب آسيوي يتألف جيشه من النساء، أطلق عليهم هيردوت لقب «الأمازونيين»، فقرر أن يسمى النهر بهذا الاسم الآسيوي: نهر الأمازون.

وجدوا حوض الأمازون ضخماً مليئاً بشعوب غنية[٣٧]. قدّروا آنذاك بأكثر من ثماني مليون نسمة، بينما لا يتجاوز عددهم اليوم أكثر من مئتي ألف نسمة. يعيشون على شكل قبائل متفرقة على ضفاف النهر أو متوغلين في الغابات. حضارتهم خشبيةٌ بحتة لا معدن فيها. حتى أسلحتهم خشبية. موازنة بيئية مذهلة مع بيئة الغابات[٣٨].

بعد سنة من الإبحار. خرج أوريليانا من فم النهر إلى المحيط الأطلسي من جهة البرازيل، ليكون أول من يستكشف الأمازون كاملاً. سمي

---

٣٧. قضى غالبية سكان الأمازون نحبهم على عدة مراحل: بسبب الأمراض التي جلبها الأوربيون لهم، ثم محاولات الاحتلال الدائمة بين الأسبان والبرتغاليين، ثم تجار الرقيق الذين كانوا يغيرون على السكان ويستعبدونهم، وحدهم رجال الدين الكاثوليكيين كان لهم دور إيجابي محدود مع بعض القبائل. ومؤخراً في بداية القرن العشرين جرت محاولة سخيفة من الحكومة البرازيلية لـ«تحضير» و«أنسنة» سكان الأمازون انتهت بالقضاء على ثقافتهم وإنهاء سلالتهم.

٣٨. قبل الحرب العالمية الأولى أنشأت حكومة البرازيل ما يسمى بـ«جمعيات خدمة الهنود»، حيث آمنت الحكومة بأن هذه القبائل الوحشية ويجب تحضيرها! تواصلت الحكومة معهم عن طريق المستكشفين، بعضهم رفض التواصل فقاوم وقتل، وبعضهم وافق على التواصل مع الحكومة. أنشأت مخيمات خاصة لهم، واقتيدوا إلى هذه المخيمات، أعطوا ملابس جديدة وبعض أساسيات الحياة. وكانت هذه المخيمات أشبه بسجن عام لبعض القبائل التي اعتادت على الحياة في وسط الأمازون. وسرعان ما انتشرت الأمراض الأوروبية بين هؤلاء المحتجزين وقضوا نحبهم. المهم أن الحكومة والتجار استطاعوا أن يقوموا بمشاريع اقتصادية في المنطقة مثل مد سكة الحديد أو بناء سدود كهربائية ضخمة أو قطع الأخشاب، ولا يهمهم أن بعض القبائل المتوحشة قد انتهت من الوجود!

النهر باسم أوريليانا لكن لقب الأمازون غلب عليه.

رجع أوريليانا إلى أسبانيا ليطلب من الملك حق امتياز على الأمازون. لكنه كان يواجه مشكلةً كبرى. فبحسب الاتفاقيات الاستعمارية بين الأسبان والبرتغاليين، فإن فم الأمازون يقع في الجانب البرتغالي، بينما أغلب حوض النهر يقع في الجانب الأسباني. وافق التاج على حق الامتياز وعلى إمداده بثلاثمئة رجل ومئة حصان وأربع سفن. لكن قبل أن تقلع السفن، بدأ الدائنون في ملاحقته وحبسه، نجح في الهروب منطلقاً إلى الأمازون بعدد قليل من الرجال.

وعند وصوله شرع في بناء الصواري. تساقط رجالُه مرضاً وجوعاً واحداً تلو الآخر. تحطمت إحدى صواريه. فخاض النهر بصارية واحدة. حاصرهم السكان الأصليون وأمطروهم بوابلٍ من أسهم أعواد الخيزران المسمومة وقضوا عليهم. دون أن يحكم أوريليانا حوض الأمازون.

«وصلنا إلى قلب كانايما.»

القائد يهنئنا بالخبر بعد ثلاث ساعاتٍ من المشي. أرى الناس أمامي تخرج من ممر الأشجار إلى مكانٍ مضيء. تقف مذهولة مرددة: واااااو. أتاني الدور وخرجت من بين الأشجار، وقفت مصعوقاً لثوانٍ ومسبحاً لدقائق؛ أرضٌ عشبية فسيحة، تنمو فيها شجيرات صغيرة ونخيل جوز الهند السامق. خلفها نهرٌ عظيم هادئٌ كأنه بحيرةٌ. وشلالات نصف دائرية. طيور سوداء عظيمة الأجنحة تحوم فاردةً أشرعتها.

الكل مشدوه بالمنظر، وشابٌ من جزيرة العرب خرّ ساجداً لهذه العظمة، دانييل

التقط كاميرته وصور سجدتي. خلعوا ملابسهم قفزاً إلى النهر والبحيرة. أو دخولاً إلى ممرات خلف الشلال. صخرة كبيرة ملساء مائلة تقع تحت الشلال تسمى صخرة التدليك. تستلقي وتترك الماء يدلكك ويغسلك. اختفى دانييل لبرهة، وجدته هناك تحت الشجرة مع امرأة تماثله سناً. مثله محتاجٌ إلى فتاة في هذا المكان. رقيت الشلال العريض، جلست على صخرة. منظر مسكر. تجرعت المنظر كأساً بعد كأس. غارقاً في التبتل. هذا ما أسميه «التبتل الأخضر»؛ أؤمن بقدرة هذا التبتل على الاستشفاء والوقاية من الكثير من الأمراض النفسية والروحية. يعطي لروحك فيتامينات «ص»: الصبر والصفاء والصفو.

***

سرنا لساعة أخرى في أدغال أشجارها مرتفعة وممطرة. الندى يتكاثر على الأوراق فتمطر علينا. ارتدينا بونشو المطر ونحن نسير فيها. الظلام يقترب، حثثنا الخطا، أشعل القائد ومساعده شعلات نارية ضخمة، نحو المخيم.

المخيم عبارة عن مظلة حديدية كبيرة، ربط تحتها خمسة عشر سرير قماشي **Hammock**. يستحيل النوم على أرضٍ رطبةٍ تدب فيها الأفاعي والنمل القاتل. فوق كل سرير ناموسية تغطيه تماماً.

أشعلوا ناراً ضخمة. غرسوا حولها أسياخاً خشبية في دجاج. يشوون الدجاج على طريقة المسكوف العراقي. تحلقنا حول النار، حتى تجف ملابسنا ونشوي دجاجنا. تشرنقت في الناموسية. صوت الماء يخدرني.. لم أكمل المعوذات إلا وأنا في عالم الأحلام الأمازونية.

قبل ثمانين سنة من وصولي هذا المكان، كانت العلاقات الأمريكية - الفنزويلية مستقرة. مرّ من هنا طيارٌ أمريكي: اسمه جيمي أنجل، يقود طائرة صغيرة (يسمونها فلامنغو) تشبه التي طرنا بها. سقطت طائرته ومعه زوجته ومستكشفان. سقطت على تيبوي (جبل الطاولة). اضطروا للنزول تدريجيا من الجبل والمشي في الغابات للوصول إلى إحدى القبائل. استغرقت رحلة تيههم ١١ يوماً، اكتشفوا خلالها أطول شلال في العالم. سمي بشلال أنجل (شلال الملائكة) نسبة إلى الطيار الأمريكي.

الأمازونيون[٣٩] بطبيعة الحال يعرفون الشلال من قبل. يسمونه «كيرياكوباي فينه»، ما يعني بلغتهم الأمازونية (الشلال الأعمق). أعلن الرئيس شافيز تغيير اسم الشلال إلى اسمه الأمازوني بدلاً من تسميته باسم طيار أمريكي. لكن لا يزال الاسم الأمريكي هو المتداول.

رغم التعب، استيقظنا جميعنا فجراً. الأكسجين الصافي يعمّق النوم ويقلل ساعاته. عيوننا جميعاً معلقة على جبل ضخم منتصبٌ أمام المخيم، يفصلنا عنه نهر. انزاحت ستارة الليل كاشفة عن الإبداع الإلهي الأعظم: شلال الملائكة.

شلال يبلغ طوله ألف متر تقريباً، تنحدر فيه قطرات الماء من أعلاه إلى قاع بحيرته. خط مياه ينساب من الأعلى، وفي المنتصف تلعب به الريح وتفتته إلى رذاذ. تقترب غيوم من جانبي الشلال. قطن الشلال وقطن الغيوم يصنعان منظراً ملائكياً. ليخرّ العربي ساجداً للمرة الثانية. تناولنا خبزاً وزبدة ومربى، تقاسمت تمراتي الأخيرة مع

٣٩. يطلق على القبائل التي تسكن هذا الجزء من الأمازون «اليمون» Pemon.

دانييل.

عبرنا النهر بواسطة المركب الطولي إلى ضفة الشلال. من تحت الشلال تحتاج أن تكسر رقبتك بزاوية تسعين درجة للأعلى حتى ترى الشلال. والبحيرة تحته لم تكن جارفة وقوية كما نتخيل، رذاذ الشلال يصيبك أين ما كنت. قذفنا أنفسنا في الماء، قضينا ساعتين تحت أطول شلالٍ في العالم.

جاءنا شاب أمازوني، معه ألمانيتان متخصصتان في علم النبات. يقوم معهما برحلة خاصة تختلف عن البرامج السياحية. عادةً ما أهرب من البرامج السياحية الجاهزة. أقع في الأخطاء كثيراً، وأستمتع كثيراً. استجوبت الشاب. اسمه كيبو، قبيلته تعيش على الحدود بين البرازيل وفنزويلا. الجزء البرازيلي أقل تمدناً. أخبرني عن قبائل عراة في البرازيل. استيقظ شيطان السفر. سألت كيبو:

- وهل يمكنني العبور إلى الجانب البرازيلي؟

- نقطة ختم الجوازات بعيدة جداً.

- ومن قال بأني أريد أن أختم جوازي؟

- إذاً كيف تريد العبور؟

- تهريب غير قانوني.

- بالنسبة لنا نحن نعبر بشكل غير قانوني دائماً، لأن كميات الأنهار هنا أكبر من أن تحصى أو تراقب، لكن نحن أهل الأرض ونعرفها جيداً. لن تستطيع أن تفعل ذلك.

- إلا إذا ساعدتني أنت؟ وأنا متيقنٌ بأن المسألة سهلة على أمازوني ذكي مثلك.

- مممم.. هذه فيها خطورة كبيرة. أعرف شاباً يقوم بهذه المهمة يومياً، لكنه غالباً ما ينقل علماء النبات والمتخصصين، أما أنت فلا تبدو متخصصاً بشيء.

أنا متخصص بالمغامرة.

تدخل دانييل معترضاً:

- كريم، طائرتنا بعد ثلاثة ليالٍ. جدولنا مزدحم. فلماذا الخروج عن النص؟

لا أطيق السيناريو المعد، الرحلات المعلبة للسياح. ستكون أوريليانا العصر الحديث، وسأسمي فرعاً من فروع الأمازون باسمك.

- لن أكون أوريليانا وصدقني ستكون ريتشارد ماسون!

٢

ريتشارد ماسون. أستاذ جامعي وعضو جمعية الجغرافيا الملكية البريطانية، تخصص في حوض الأمازون. في ١٩٥٨ قام برحلة مجنونة قاد فيها سيارته الجيب من مصب نهر الأمازون على شواطئ البرازيل إلى أحد منابع الأمازون في بيرو (المسافة من النيل إلى شواطئ المغرب في غابات متشابكة). وفي عام ١٩٦١ رتّب رحلة استكشافية إلى حوض الأمازون للبحث - مشياً - عن نهر إيريري وعن قبائل أمازونية. برفقة ١١ شخصاً منهم زميلان بريطانيان. مولت الرحلة جريدة ديلي اكسبرس. اتفقت معهم البرازيل على رسم خريطة للمنطقة، مقابل حق تسمية الأماكن المكتشفة. أسموها - لاحقاً - بأسماء عشيقاتهم البرازيليات!

رحلتهم شاقة جداً. الأحراش تمنعهم من التقدم إلا بعد قطعها بالسواطير والفؤوس. تناقصت مؤونتهم بعد أشهر. اتفقوا على أن يرجع أحد البريطانيين (السيد هيمنغ) من خلال الطريق الذي شقّوه بالسواطير والفؤوس، لطلب إلقاء المؤونة بالطائرات. خرج ماسون لوحده في النهار التالي. مشط منطقة مجاورة. رآه رجال قبائل البانارا Panara؛ قبائل عنيفة عدائية تجاه الكل. في قاموسها تتساوى كلمة

«عدو» و«غريب». بدا ماسون كائناً غريباً. أبيض اللون. ملابسه تلتصق بجسده. بنطاله أزرق (جينز) مريب بالنسبة لهم. أطلقوا نحوه أعواد البامبو المسمومة، أردوه قتيلاً. حاموا حول الجثة، وكعادتهم حينما يقتلون أحداً، فإنهم يضعون أسلحتهم حول الجثة. رجع هيمنغ ليجد رفيقه قد قتل. حملوا الجثة ووضعوا سواطيرهم وفؤوسهم مكانها. لتكون عربون صداقة مع هذه القبائل. ألغوا بعثتهم الاستكشافية ورجعوا. اتهمت الشرطة البرازيلية صديقهم الثالث بالقتل، لكنها سرعان ما برأته.

بعد ١٢ سنة تمكنت السلطات البرازيلية من التواصل مع قبائل البانارا. هيمنغ استمر في رحلاته الاستكشافية الأمازونية. في عام ١٩٩٨ التقى بقاتل صديقه وتحاور معه. وتبين له بأنهم أخذوا مسدسه وولاعته الحديدية وحاولوا تحطيمهما دون جدوى. سأله عن الساطور الذي تركه لهم؟ أخرج القاتل من متعلقاتهِ ساطوراً صدئاً قديماً. لم يستخدموه منذ ذلك اليوم لأنهم لم يعرفوا فائدته.[٤٠]

في فجر اليوم التالي، تسللت وحيداً بخفة من المخيم. تركت رسالةً لمنظمي الرحلة مع دانييل، وركبت مركباً صغيراً مع ابن عم كيبو. اكتفى الصبي بابتسامة، ثم انغمس في تحريك الدفة وتأمل النهر، دون أن يعيرني أي اهتمام. احترمت صمته. انغمست في مناظر الأمازون. الشمس ترتفع بالتدريج، فتتغير الألوان بدهشة. بعد ساعتين،

٤٠. كلوديو فيلاش أحد المستكشفين الذي كسب ثقة سكان الأمازون وحاول الدفاع عنهم كتب: «من الغباء محاولة إجبار الأمازوني على الاندماج، لأن الأمازوني أفضل منا بكثير، فهو يعرف كيف يعيش أفضل منا، ولديه الكثير ليعلمنا إياه، أكثر من علمنا نحن. تتبعوا عمليات الاندماج التي حدثت، وراقبوا الدمار الذي أحدثناه في هذه الشعوب».

حاولت التحدث معه، لم أجد لغةً مشتركة معنا، فرددت له اسم «كيبو»، هزّ رأسه بالإيجاب. أوقف المركب، أشار إلى موبايل صغير في يدي وقال كلمةً واحدةً: كيبو. فتحت الموبايل، الغريب أن فيه إرسالاً، فقد أوقف المركب في نقطة محددة فيها إرسال، اتصلت على كيبو:

- الشاب سيأخذك إلى الجانب البرازيلي. لا تخف من شيء، لا شرطة هنا. أحيانا تمر بعض المروحيات بحثاً عن مهربي المخدرات. لا يهتمون للمراكب الخشبية الصغيرة. سيأخذك أصدقائي من الجانب البرازيلي في جولة خاصة ليومين مع القبائل. استخدم منقي الماء (الفلتر). إذا احتجت لأي شيء اتصل بي.

انغمست في صلوات خضراء، الصبي صامتٌ. وصلنا بعد ساعات؛ مربعٌ طينيٌ على حافة نهرٍ محاط بأشجار غليظة الأغصان وأحراش كثيفة. كنت خفيفاً جداً: لحاف صغير sleeping bag لا يتعدى حجم الكف، سكين، واقي ناموس، منقي الماء[41]، بسكوت، قطعة خبز وزبدة الفول السوداني[42]. وضع كيساً بلاستيكياً على الأرض، وطلب مني الجلوس. أشار بالانتظار. ركب المركب وتركني بوجهه المتجهم.

شاهدت مركبه ينصرف بهدوء مكملاً طريقه في النهر إلى أن اختفى عن النظر. أنا في قلب الأمازون وحيداً. ودانييل وأصدقاؤه في رحلة سياحية معلبة. يا للمساكين.

***

مضت ثلاث ساعاتٍ على رحيل الصبي، دون أن يأتي أحد. صوت النهر الخافت، حفيف أشجار على استحياء، صرخات متقطعة تأتي من وقتٍ لآخر من قلب الدغل،

---

٤١. منقي الماء هو فلتر صغير يكون على شكل عود أو قطعة صغيرة توضع داخل مطارة أو حافظة الماء، بعض الفلاتر تأتي على شكل حافظتي ماء ويدور الماء بينهما، خفيف الحمل ويصلح للأماكن المقطوعة. ويجب على الرحالة عدم نسيانه، الماء أهم وأخطر شيء. والشرب من الأنهار مع الفلتر يحتاج إلى تدرج.

٤٢. زبدة الفول السوداني peanut butter والتمر، هما أفضل صديقين لي في أسفاري، يشبعان المعدة وتأكلهما في أي وقت.

وما عدا ذلك صمتٌ رهيب. لا أجرؤ على الخروج من المربع الطيني الصغير. لن أعوم النهر، ولن أخترق الدغل. فكرت بأن أتصل بـ كيبو. لم يكن هناك إرسال في الجوال. همس أبوفراس الحمداني في أذني:

تطول بك الساعاتُ وهي قصيرةٌ وفي كل دهرٍ لا يسركَ طولُ

لم يعد الأمر ممتعاً أبداً. أفكاري عن اكتشاف القبائل والتعرف عليها، اختفت. نمت محلها صور سلبية: شهداء تجرؤوا على اكتشاف الأمازون، جثة نهرية قضمها تمساح، جسد متعفن عصره ثعبان، مستشكف امتلأ جسده بالسهام الخشبية.. صورٌ قاتمة.

أملي الوحيد في الجوال. رقيت الشجرة الواقعة خلفي. رفعت الجوال إلى أعلى نقطة، وجدت إشارة ضعيفة، أطارتني من الفرح. لكن الجوال لم يكن يتصل لسبب بسيط. شريحتي اشتريتها من فنزويلا ونحن الآن في البرازيل!

مالت الشمس للغروب، أجنحة الظلام تهبط تدريجياً. ليس معي إنارة ولا أستطيع إشعال النار. الأرض من تحتي مليئة بطوابير النمل. استغليت ما بقي من الضوء لأفرش فراشي فوق جذع غليظ متفرع من شجرة خلفي. أتشرنق داخل اللحاف خير لي من أن أنكشف في الليل. أيقنت بأني سأقضي الليل هنا.

درست الجذع الذي سأنام عليه. نظفته من الحشرات. قطعت بعض النتوءات البارزة. فرشت اللحاف. صفيّت شيئاً من ماء النهر وشربت، أكلت ربع خبزة ودسست الأكل في اللحاف. حلّ الليل، تشرنقت كاملاً في لحافي. عليّ أن لا أتحرك كي لا أسقط. لم تكن ليلة مقمرةً، لم يكن ظلاماً، بل كان عمى كاملاً، إذا أخرج يده لم يكن يراها. اندفعت الآيات على لساني، قرأت كل ما أحفظ. عجنت أذكار الصباح بالمساء، أذكار المكان بالسفر. كم هو ضعيف الإنسان.

الأصوات، قاتل الله أصوات الظلام. لا فرق بين حفيف شجرة وصليل ثعبان. لا فرق بين صرخة طائر وصوت الفهد الأسود. الأصوات لم تتوقف؛ أزيز حشرات،

دبيب، خفقان أجنحة، أشياءٌ تقفز في الماء، أصوات بعيدة. أدسُ رأسي في اللحاف، لا فرق بين ظلام اللحاف وظلام الأمازون، أتدثر بأذكاري، قابضاً على سكيني بقوة. متذكراً حكمة النبي صلى الله وسلم: الراكب شيطان![43]

***

غفوت قليلاً، انتبهت على صوت زحف. هويتُ من الجذع أرضاً. وقفت وأنا في الشرنقة، رجلاي داخل اللحاف، ملوحاً بالسكين بيدٍ واحدة: فارس الشرنقة. هدوء في هدوء، لا أسمع شيئاً. ظلامٌ في ظلامٌ لا أبصر شيئاً، أتكون كوبرا، خفاش، حيوانٌ مفترس!

من طبعي التماسك والهدوء، لكن الموقف كان خارج العقل. أحلام اليقظة تهاجمني، إذا مت لم يعلم أحدٌ بموتي، وإن حييت تحولت إلى ابن يقظان[44] أو طرزان. جمعت عقلي وتوكلت على الله وحده، ذكره يغمرني بدفقة شجاعة. نزعت الشرنقة، تلمست طريقي للنهر. توضأت، تطهرت، كأني مجاهدٌ يعتزم حديقة الموت. بحثت عن نجمة الشمال، حددت قبلتي، رفعت يديّ إلى أذني: الله أكبر. فعلاً الله أكبر من أي شيء، وأنا متكلٌ على عظمته وقوته، كيف أخشى الظلام والحيوان!

صليّت. لم تكن صلاةً، كانت معراجاً. خرجت من الأمازون راكباً براقاً، رأيت

---

٤٣. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب. وهو حديث عن كراهة السفر وحيداً من البشر. و قال الطبري: «هذا زجر أدب وإرشاد لما يخاف على الواحد من الوحشة، و ليس بحرام، فالسائر وحده بفلاة، والبائت في بيت وحده لا يأمن من الاستيحاش، لاسيّما إن كان ذا فكرة رديئة أو قلب ضعيف. والحق أن الناس يتفاوتون في ذلك، فوقع الزجر لحسم المادة فيكره الانفراد سداً للباب، والكراهة في الاثنين أخف منها في الواحد». ولعل الحديث أراد السفر في الصحارى والفلوات التي قلما يرى المسافر فيها أحداً من الناس، فلا يدخل فيها السفر اليوم في الطرق المعبدة الكثيرة المواصلات.

٤٤. حي بن يقظان: قصة أسطورية عربية، كتبها القاضي الأندلسي ابن طفيل، وهي قصة رضيع يوضع في تابوت ويصل إلى جزيرة «الواق واق»، تجده ظبية فترضعه وتهتم به، ثم يستكشف طريقه في الجزيرة والحياة. وقد ألهمت هذه القصة العديد من الكتاب حول العالم ويقال أن طرزان وروبنسون كروزو استوحيت فكرتهما من حي بن يقظان. وقرأت في ويكيبيديا بأن ابن سينا والسهروردي كتبا عن أسطورة ابن يقظان قبل ابن طفيل، لكن الانتشار كان من حظ ابن طفيل. عموماً، يستغل ابن طفيل هذه القصة ليدلل على وجود الله عقلاً من خلال أحداث هذه الأسطورة.

القدس ومكة والمدينة. حصرت ذنبي الأكبر، تبت إليه.

ناديتُ وقلبي منكسرٌ يا ربَّ العزة خذ بيدي

يا حي ويا قيوم ومن ينجي المهموم من الشددِ

هذا ما تفعله بنا المصائب؛ تعري ضعفنا. تكشف هزالنا. وتجعلنا في قيامة مع الله وحده، وحده الضار النافع، وحده الآخر الباقي، وكل ما فوق الترابِ ترابُ. كل ما اقتربت منه، تضاءلت الأصوات، كل ما حاولت رؤيته، انقشع الظلام، كل ما أنستُ به، هربت الوَحشة. قضيت ليلي مادأ يدي معتصماً بحبل يتجاوز هزيع الأمازون إلى قاب قوسين.

***

أشرقت الأرض على رجلٍ آخر، صلبٍ عنيد متكلٍ على الله. وضعت لنفسي خطةً جديدة: «بدوي الأمازون». هذا المربع الطيني مركزي. لن أغادره، قد يمر أحدهم، كيبو أو الصبي الأمازوني. سأمشط الدغل من حولي، أكتشف مسالكه. سأحضر أخشاباً وابني هرماً صغيراً. سأحاول إشعال النار وأبحث عن فاكهةٍ.

دخلت عدة أمتار إلى الدغل، مظلم رطب. قطعتُ خشبةً طويلة شائخة. سأصنع منها رمحاً. شذبتها، بدأت في بري طرفها. بعد ساعةٍ تبين أنها لا تصلح للتدبيب. سأجعل منها عموداً لهرمي الصغير. صفيّت شيئاً من الماء. أكلتُ ربع خبزة مع زبدة الفستق. وعُدّت للدغل أبحث عن رمحٍ يليق ببدوي الأمازون.

قوةٌ خفيةٌ تكبر في داخلي، تطردُ الخوف. يمكن لكائنٍ متطور ومتعلمٍ مثلي أن يتأقلم. سأشق طريقي تدريجياً لأصل إلى القبائل. الصبي لم يجلبني إلى هنا إلا لعلمه بوجود بشرٍ أو قبائل. جمعت أخشاباً أكثر هذه المرة، وجدت أوراق شجرٍ كبيرة الحجم،

تصلح لأن تكون غطاءً للهرم. ركزت على الرمح الثاني أكثر، كان نحيلاً حاداً. فجأة سمعت صوتاً بشرياً يأتي من بعيد:

- كريـــــــــــم.

يااااه، أنت عبدي وأنا ربك![45]

***

المركب الذي ضيعني جاء لينقذني، يحمل كيبو والصبي والألمانيتين، رفعت قميصي قافزاً وصارخاً بالأسبانية:

إستوي أكي، إستوي أكي (أنا هنا، أنا هنا)

وصل المركب. سجدت حمداً. أمسكت بتلابيب كيبو خانقاً. تدخل الصبي الصامت ليبعدني عنه. بلع كيبو ريقه معتذراً:

- طلبتُ من الصبي أن يقلك إلى هنا. لكن بعد خروجك اتصل علي أبناء عمي، طالبين تغيير مكان اللقاء. الماء فاض على مركبهم وانكسر. حاولت الاتصال على الصبي مراراً لكن دون جدوى. والصبي بدلاً من أن يرجع إلينا قضى الليل في مكان آخر. آسفٌ سنيور كريم، لكني بذلت وسعي لأجد شخصاً ينقذك، لكن دون جدوى.

بلا شعورٍ عانقته، ثم عانقت الصبي. الألمانيتان تدمعان تأثراً. أعطوني ساندويتش مربى وقطعة بانكيك ناشفة، أكلتهما بنهم. طلبت منهم الانتظار لأحفر حرفي على

---

٤٥. هذه إشارة أدبية ولا يقصد منها التقرير. وهي إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ».

الجذع الذي نمت عليه، ألقيت نظرة وداعٍ على المكان، وانطلقنا في المركب. يفترض أن أبدأ جولتي من أمس، وأكلها فجر اليوم، لكن كل شيءٍ ضاع.

المبكي أن قبيلة كانت تسكن قريبة جداً من مكاني الذي بت فيه، وصلنا إليها في ظرف ثلاث دقائق فقط. قال لي كيبو لو أنك صرخت لسمعوك!

زادني حنقاً.

***

قبيلةٌ حقيقيةٌ. نصف عراة. رجالهم نحاف ونساؤهم بدينات. قصار القامة. لا يتحدثون الأسبانية ويعرفون بعض الكلمات البرتغالية. جفاةٌ غير مرحبين. لا يعرفون العرب. العالم بالنسبة لهم أمازونيون وغزاة بيض. انعزلت الألمانيتان عن أهل القرية مكتفيتين بالمشاهدة. استخدمت خطة ماكدونالدز: إلعب على الصغار، تكسب الكبار[٤٦]. أجريتُ مسابقاتٍ للأطفال. أعطى الفائز بسكويتاً[٤٧]. علمتهم أهازيج عربية. أصبحتُ دائرة سعادتهم، تقبلتني الأمهات. بعد ساعتين أصبحت ضيفاً لدى كبار القبيلة. ظلّت الألمانيتان منزويتين في زاويتهما.

مضارب القبيلة غريبة التكوين؛ هلالٌ كبير، أطرافه مظللة وتصلح للسكنى. في المنتصف ساحة كبيرة مجوفة، فيها بعض الأنشطة المختلفة: الطبخ، النار، صناعات يدوية. لا أثر لبيوت للعوائل الصغيرة، الكل يعيش في عائلة كبيرة ممتدة.

احتجت لترجمة بيكو. وكان يشعر بتأنيب ضمير على خطأ (بالأحرى مصيبة) الليلة

---

٤٦. قرأت مرةً أن ساحة الألعاب في ماكدونالدز Play Ground أمريكا أكبر من ساحة والت ديزني. تقوم سياستهم على جذب الأطفال والذين بدورهم يجلبون الكبار معهم.

٤٧. الكثير منا يتعاملون مع البيئات الفقيرة بجهل. ومنها أن نعطيهم بدون مقابل، ظناً منا بأن ذلك كرمٌ أو صدقة. وهو في حقيقته تكريس لمفاهيم البطالة والكسل، المفروض أن نربط العطاء بالإنجاز والعمل ولو كان بسيطاً.

الماضية. جلسنا في ركن ظليل في أحد جوانب الهلال، أنا وبيكو وسبعةِ رجالٍ كبارِ السنّ. طلبتُ من بيكو أن يترجم عني:

أعيش في منطقة صحراوية. أجدادي عاشوا سعداء في خيام صغيرة، ينقلونها مع ماشيتهم.

بداية مثيرة تشعرهم بأني أقتات على الطبيعة مثلهم. نجح الأمر معهم، أمطروني بالأسئلة عن الصحراء والجمال والماء والقبيلة. رفع رجلٌ منهم عصاه، فسكتوا جميعاً، ثم قال:

- كنا نعيش سعداء. ولا زلنا سعداء، ما دام الرجل الأبيض والحكومة بعيدان عنا. نعيش هنا منذ مئات السنين لا ينقصنا شيء. لا يعكر صفونا إلا غارات قبائل البانارا. البيض لا يعجبهم ذلك، لا يعجبهم أن نكون ملوك الغابة. يريدون منا أن نتعلم لغتهم وأن نعيش مثلهم. أخذوا الكثير من أبنائنا ليعيشوا في قراهم ويتعلموا لغتهم، ثم ماذا؟ يجبرون هؤلاء على أن يغيّرونا قسراً! قبائلنا كانت تمتد من هنا إلى مطلع نهر شنغ غو، لم نشتك ولم نتبرم من حياتنا. الرجال البيض قتلونا وشردونا. هدموا غاباتنا، سرقوا أخشابنا ليبنوا مدنهم. مدعين بأنهم يعرّفوننا بالخالق. سألتهم إذا كانوا التقوا بالخالق من قبل؟ هزوا رؤوسهم بالنفي. قضوا على أغلب أجدادنا والدور علينا الآن.

أجدادي محظوظون. عاشوا في صحراء، لا خشب ولا أنهار. فزهد الرجل الأبيض فينا. حافظنا على نسلنا وعاداتنا وديننا. لكن لما ظهر البترول لدينا، تقربوا منا واستغلونا.

إذاً حافظتم على أرضكم كما هي؟

لا يا سيدي. حينما دخَلَنا البترول، غزونا بالدعايات والأفلام. أصبحنا كالمخدرين نقلدهم ببطء، لا نشعر ولا نحس.

- مثل ما فعلوا بأبنائنا الذين ذهبوا للدراسة؛ يتحدثون البرتغالية، غيروا أسمائهم.

يرفضون أن يعيشوا معنا بشكل جماعي، كل واحدٍ منهم يريد خيمة خاصة، وكل واحدٍ منهم لديه زوجة ولا يقرب نسائنا.

عرض عليّ كيبو أن نتمشى قليلاً في الدغل القريب، شرح بأن هؤلاء ينتمون لمجتمعات صيدٍ قديمة، مثل أغلب أهل الأمازون. وهناك فرقٌ بين تعامل فنزويلا والبرازيل. في البرازيل غلبت المصالح التجارية على الحكومة التي طمعت في أخشابهم ومعادنهم.

قضيت الليل معهم. ينامون تحت الهلال المظلل. لا غرف نوم ولا فواصل. لا يوجد نظام الأسرة، لم أجد زوجاً وزوجة وأطفال. الرجال ينامون لوحدهم، والنساء لوحدهن، والأطفال لوحدهم. مهما يكن الوضع فإنه خيرٌ من البارحة.

***

أحتاج إلى أسبوعٍ لأفهم القبيلة. لكن عليّ أن أكون في الجانب الفنزويلي، لأستقل «التاكسي المجنح». وصلني الصبي الصامت فجراً. بدا شامتاً، ترافقه ابتسامة سخرية كلما رآني.

تأملت الأمازون، لم يبدو موحشاً البتة. أَلِفتُ المكان، بدا رائعاً ساحراً. أنهار ومسالكٌ لا تنتهي، غاباتٌ تتكاثف وتخنق بعضها، أصوات طبيعة تخور وتهدأ. هل يمكن لنا أن نقتل هذا المكان بأنفسنا؟ هل تعمينا الرأسمالية عن المحافظة على مثل هذه الغابات الممطرة والمثمرة؟[٤٨]

***

جرى كل شيءٍ سريعاً وحزيناً.

٤٨. إذا استمرت وتيرة قطع الأخشاب بنفس سرعتها الحالية فإن أكثر من ثلث أشجار الأمازون ستنتهي.

وجدتني في هوستيل صغيرٍ في كاراكاس، فتحت إيميلي لأجد عرضَ عملٍ جديد من شركة محترمة وبراتب مغري، موعد مقابلة خلال خمسة أيامٍ. اتصلت على ديانا لأشكرها على أعظم مغامرةٍ في حياتي. كانت في كاراكاس مع أمها يقيان عند إحدى قريباتهن. التقيت عائلتها، طلبت الأم أن لا أخبر العائلة عن عشيقها الألماني. الأمهات اللاتينيات هكذا، يغمرن أطفالهن بالحب والغيرة والتناقض الذي أحبه. أمها مثقفةٌ وراقيةٌ. تكره طليقها (والد ديانا). لكنها تحافظ على العلاقة معه حتى ترتب لديانا أوراق هجرتها إلى أسبانيا بعد التخرج.

كاراكاس خطرة ومزدحمة، لم أكوّن فيها صداقات أو ذكريات. بدأت بترقيع حجوزاتي للعودة، زيارات متعددة لمكتب السفريات. وفي وقت فراغي كنت أجلس في الهوستيل أقرأ وأتحدث مع الرحالة الواصلين نتبادل المعلومات حول الترحال في فنزويلا. كانت هناك العديد من المظاهرات في شوارع المدينة، أصبحت أتتبع المظاهرات وأتحدث مع الناس. والمظاهرات في أمريكا اللاتينية جزء من حياة الناس العامة، تماماً مثل المقاهي والقداس وحفلات السالسا.

قالت لي أم ديانا في ذات قهوة:

- صلِّ لأجل ديانا يا كريم، أريدها أن تغادر هذا البلد بأسرع وقت.
- لكن بلدكم جميل. ديانا ذكية، متعددة اللغات، تستطيع فتح مكتباً للسياحة.
- أنت لا تفهم شيئاً عن البلد. نحن نسحق كل يومٍ، لا أريد لوردتي أن تذبل هنا.
- الناس في كل العالم يسحقون، تصعب حياتهم، تغلى معيشتهم. ورئيسكم يشقى كل يوم في أن يفتتح مدارس ومشفياتٍ للطبقة الفقيرة.
- هنا المشكلة، التركيز على الطبقة الفقيرة يضيّع الطبقة المتوسطة. التي أرهقتها الضرائب وقوانين قمع العمل الحر. الدولة تؤمم كل شيء تقريباً، تأخذه من الطبقة المتوسطة والغنية، لكنها بعد فترة تعجز عنه، فتعطي للأغنياء حق تشغيله،

يحتكره الأغنياء ويبيعونه بأسعار باهظة على الطبقة المتوسطة. ابنتي لن تستطيع مواجهة الحياة في فنزويلا. ابنتي الوحيدة أريد أن أراها سعيدة.

- لكن البترول موجود؟

لا نستطيع أن نراهن على بترول ناضب أسعاره متقلبة. البترول لن يكفي لإطعام ثلاثين مليون نسمة لا ينتجون ولا يعملون. ما دامت ميزانيتنا تعتمد على البترول وحده فتلك مجازفة لا نعلم مداها. ناهيك عن المليارات التي يوزعها رئيسنا لدعم الحكومات اليسارية في الجوار.

بدت لي أماً متشائمة. لا ألومها فهي ابنتها الوحيدة.

***

مداخلة ١ : بعد سنتين

التقيت ديانا في أسبانيا، حصلت على جوازها الأسباني. استأجرنا بيتاً ضخماً على أطراف فالنسيا لثلاثة أيام، كنا مجموعة متنوعة: كولمبيون، فنزويليون، أسبان، والبدوي الوحيد بينهم. قضينا وقتاً في النقاشات عن حال أمريكا اللاتينية ومستقبلها. الكل يهاجم شافيز الرئيس الفنزويلي، عداي أنا. دافعت عنه بشراسة. سياساته الاقتصادية غير فعالة، لكنه لا يسرق ويصرف على الفقراء. الأغلب كانوا يهاجمونه بوصفه غبياً وصولياً يسحق الطبقة المتوسطة. أغلب أصدقائي الفنزويليين المهاجرين يكرهونه، بينما رأيت فيه رمزاً ثورياً اشتراكياً مخلصاً.

تعرفت ديانا على شابٍ نمساوي، تزوجا ويعيشان الآن في قرية سويسرية.

***

مداخلة ٢ : بعد أربع سنوات

ليزا (من ماركايبو) ذهبت للعمل في نيويورك كممثلة مسرحية. لغتها لم تسعفها في حفظ دور في مسرحية شكسبير. ذهبت إلى مدريد وعملت نادلة في مطعم، ومقدمة برامج احتياطية في برنامج أسباني.
بقي دييغو في ماركايبو لا أعرف عنه شيئاً.
مونا (من ماركايبو) غادرت إلى إيبيزا في أسبانيا، تعيش حياتها مع عشيق إيطالي، وتعمل كل شهرين في وظيفة.
مونيكا عارضة الأزياء، عاشت في أمريكا متزوجة من إيرلندي. زارت أهلها في ماركايبو سنة ٢٠١٤، قتلت على يد مجهول في سيارتها على الطريق العام!

***

مداخلة ٣ : بعد عشر سنوات

أفتحُ الجرائد وأقرأ المانشيتات العالمية حول فنزويلا :

وفاة شافيز بالسرطان بعد ١٤ سنة من الحكم.
طابور شراء ربطة الخبز في كاراكاس يمتد إلى تسع ساعات.

ترحيل أكثر من مليوني كولومبي بسبب عدم وجود أغذية ووظائف في فنزويلا.
انهيار العملة الفنزويلية.
أغلب أساسيات الحياة غير متوفرة في الأسواق.
القبض على تجار يهربون شاحنات من الطحين الأبيض إلى داخل البلاد.
عدم توافر الملح في البلاد لشهرين.

هذه نتائج الاعتماد على البترول وحده. انخفض سعر البرميل، تكلفة الإنتاج أعلى من قيمة البيع. لا مصدر بديل. تحولت الطبقة المتوسطة كاملةً إلى طبقة فقيرة. فقدت أساسيات الحياة مثل الطحين والسكر والملح. وفوضى عارمة تعم البلاد. هل ألومهم على ترك البلاد؟

***

في الطريق إلى المطار، ركبت مع السائق الذي استقبلني مع أصدقائي. رأيت السكين بين الكراسي مرة أخرى. لم أجزع، إجراءٌ احترازي. أحدق في البيوت الشعبية الحديدية، كيف لا ينقذهم البترول والحكومة اشتراكية؟ شافيز يحبهم ويغدق عليهم. لكنه لا يطورهم. يعطيهم سمكةً ولا يعلمهم الصيد.

ابن شطوطة يخنقني. بقي الكثير من المتعة أمامك؛ أرض رورامي، قبائل اليانومامي، شعب الواراو، ديل روكس.. معك نقودٌ كافية. مدد لشهرٍ إضافي. هل سترجع

لوظيفة سخيفةٍ سخيفة؟ أكمل مغامراتك في هذا البلد المعقد. هل ستعود لشماغك وعقالك ورزانتك؟

في المطار استلمت ورقة الصعود، وقفت ملياً أمام بوابة الدخول، انحدرت دمعة ساخنة من عيني، غبشٌ في الرؤيا، الموظفة تناديني، الواقف من خلفي يتنحنح، ورجلاي ثابتتان في الأرض.

هل أعود إلى الملل أم تستمر المغامرة؟

تعرفون الإجابة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الكسيك

. . . . خط سير المؤلف.

- كانكون: سياحية ومثالية للاسترخاء.
- ميكسيكو سيتي: الطعام، الإزدحام، التحرر الفكري.
- واهاكا: الثقافة، الأصالة، الهوية المميزة.
- غواتيمالا: دخول جيفارا في الفكر الثوري.

المكسيك
كانكون
ميكسيكو سيتي
واهاكا
غواتيمالا

من سائحٍ إلى ثائر

المكان: غواتيمالا - المكسيك.
الزمان: ١٩٥٦.

استلم جيفارا شهادة الطبِّ. لكن بعد أن صقلتهُ الأسفار، لم يعدْ الشاب الذي بدأ الدراسة. هجر العروض الوظيفية. عاد للطريق من جديد، واعداً ألبيرتو بزيارته في فنزويلا. بدأ رحلته في بوليفيا مروراً بالإكوادور، التقى برحالة آخرين، والتقى بفتاة ثورية اسمها هيلدا. أقنعه أصدقاؤه الجدد بالسفر إلى غواتيمالا، ليشهد الثورة العظيمة التي تقام هناك ضد المصالح الأمريكية. سحرته الفكرة، ألغى مخططه لزيارة ألبيرتو، وأكمل طريقه في أمريكا الوسطى: باناما، كوستاريكا، غواتيمالا.

غواتيمالا دولة صغيرة قائمة على الزراعة، استحوذت على أراضيها شركة يونايتد فروت الأمريكية، استغلت سكانها للعمل بأجور تافهة ومذلة. صناديق الاقتراع أوصلت رئيساً محباً لشعبه: إرينس. الذي أراد أن يعيد الأراضي ويضع نظاماً للأجور الزراعية. غضبت الولايات المتحدة، قامت بتدريب جيش من المرتزقة في الهندوراس، زودتهم بالرشاشات والدبابات والطائرات، وضعتهم تحت إمرة الرئيس المعارض.

غواتيمالا في أوجِ غليانها. تعاطف جيفارا مع الفقراء ومع الرئيس المنتخب. تعرف على بعض الشباب الكوبيين، كوبا تعاني من وضع مشابه. يحكمها الدكتاتور

«باتيستا» حامي المصالح الأمريكية، قاتلاً نافياً الآلاف من معارضيه.

دخل جيش المرتزقة غواتيمالا. حاول الناس صدهم، نزل جيفارا مع الشعب، وجد نفسه عاجزاً بلا سلاح. المرتزقة عاثوا فيها فساداً. أطاحوا بالرئيس المنتخب. وأبقوا على المصالح الأمريكية. أعطت الولايات المتحدة درساً لكل من تسوّل له نفسه المساس بمصالحها. جيفارا ينظر بذهول وغضب لهذه المذلةِ الكبرى.

تواصل معه السفير الأرجنتيني. اخبره بأن المخابرات الأمريكية أدرجت اسمه. وأن عليه أن يلجأ إلى السفارة لكي يرجعوه إلى الأرجنتين. تسلل إلى السفارة، عَلِمَ أن المعارضين الكوبيين لجأوا إلى المكسيك، فطلب من السفارة في خطوة جنونية اللجوء إلى المكسيك بدلاً من العودة إلى الأرجنتين!

في المكسيك، عمل طبيباً. تغيّرت قناعته: الطبُّ يعالج حالات محدودة، وهو أمام قارةٍ مريضة، الثورة هي العلاج. توطدت علاقته بهيلدا، وبالكوبيين. تزوج هيلدا، وانخرط مع الكوبيين. الكوبيون ثاروا من فترة طويلة، جربوا الوسائل السلمية وانتهوا بالمعارضة العنيفة. الكثير منهم زجوا في السجن ثم عفت عنهم الدولة. تجمعوا في المكسيك من جديد، وهم على قناعة بالمعارضة المسلحة. كان على رأسهم أخوانِ شابان: فيديل كاسترو، راوؤل كاسترو. خرجا طازجين من السجن على إثر محاولة فاشلة لتفجير ثكنة عسكرية. مال جيفارا إلى التغيير المسلح، الطبُّ لا يغيّر كثيراً.

التقى راؤول أولاً، دخل معه في نقاشات مطولة، كان يراه شاباً عملياً، يحلم بالتغيير ويعمل على تطبيقه. راؤول فَشَلَ وسُجِنَ، لكن روحه عنيدة مستعدةٌ للثورةِ مجدداً. تمنى جيفارا لقاء فيديل. لكنه مرصودٌ من المخابرات الأمريكية والكوبية والمكسيكية. رتب راؤول لقاءً خاصاً في منزل امرأة كوبية، نذرت بيتها للثورة، فكانت تخزن فيه الأسلحة وتعقد فيه الاجتماعات السرية.

تستر جيفارا أمام هالة فيديل، عيناه تشعان ببريق قويّ، ينفث سيجاراً وفكراً

وبساطةً وثقةً. سهرا حتى الصباح، كان فيديل يتكلم عن عذاباته بمرح، كأن يقول مثلاً: «طالبت بالإصلاح الزراعي، لكي أغيظ الحكومة و.. والدي[٤٩]».

«أهدأ مكان للقراءة هو السجن. نحن - الثوار - مدينون لباتيستا على البعثة العلمية التي أعطانا إياها في السجن. فقد قرأنا كل ما كنا نجهله. تخيل أننا قرأنا كتاب "رأس المال"[٥٠]، أكثر الكتب الشيوعية سهرة لكارل ماركس، أدخلناه السجن أمام أعين الحراس! قلنا لهم بأننا تُبنا وسنبدأُ عملاً تجارياً فور خروجنا. هذا الكتاب سيساعدنا على عمل مشاريع تجارية مستقبلية».

وسط سحب السيجار، صرح فيديل:

«الثورة ليست كوبية، الثورة عالمية وتاريخية، لكنها ستبدأ من كوبا، وستعم أمريكا اللاتينية ثم العالم بأسره».

سقط جيفارا في حب فيديل. ليتحول من رحالةٍ إلى ثائر، ثائرٍ على بلدٍ لم يزرها قط.

---

٤٩. كان والد فيديل من أصل أسباني ويملك حقولاً للسكر. والإصلاحات الزراعية التي اقترحها فيديل من شأنها إضرار والده بالمقام الأول، وحين وصل فيدّيل كاسترو إلى السلطة، بدأ بقانون الإصلاح الزراعي، وأول أرضٍ أممت كانت أرض والده، وغضبت عليه والدته كثيراً، إلا أنه كان يرى بداية الإصلاح في نفسه وماله.

٥٠. كتاب رأس المال، أشهر كتاب الشيوعية للفيلسوف اليهودي كارل ماركس، ينتقد فيه الرأسمالية، داعياً للاهتمام بالعمال قبل الملاك، والكتاب من ٩ مجلدات، وهو ركيزة الأفكار الشيوعية والاشتراكية.

الكسيك

أهُـمُّ بِـشَيءٍ وَاللَيـالي كَأَنَّهـا ... تُطارِدُني عَن كَونِـهِ وَأُطارِدُ
وَحيـدٌ مِنَ الخِلّانِ في كُلِّ بَـلدَةٍ ... إِذا عَظُمَ المَطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ

«تحمل جميع الفتيات على ظهورهن أكوازَ ذُرة نمَتْ قبل عام، ثم يذهبن سيراً على أقدامهن لتقديمها إلى الآلهة شيكوميكوآتل. ثم يرجعن بالأكواز بعد أن باركتها الآلهة، ومنها يأخذن البذور لزرعها في العام المقبل، يحفظن أكواز الذرة في أعماق صندوق الحنطة، لأنها مباركة».

مخطوطات فلورنتاين

بلد من الذرة

كلما برز وجه المكسيك على الخريطة، أشحت بوجهي. سارعت في البحث عن دولة أخرى!

عامَلتُ المكسيك بهذا الجفاء والصدود اعتقاداً بأنها "متأمركة ثقافياً". نتيجة مسكنها الجغرافي المتاخم لأمريكا، والمسلسل الاستعماري الأشقر الطويل، بدءاً بالمستعمرات الأسبانية، ومروراً بحكم «المستوزوز»[٥٢] بعد طرد الأسبان، وانتهاءً باحتلال الولايات المتحدة لأكثر من نصف المكسيك. وَقَرَ في قلبي بأن هذا البلد ممسوح ثقافياً واجتماعياً، معطياً ظهري للمكسيك.

تعرفت على مكسيكيين في مراحل عدة، قوميتهم كانت عالية، ويغضبون من فكرة تبعيتهم أو تأثرهم بالولايات المتحدة. يحقدون عليّ حينما أتحدث عن أصالة بيرو مقابل تشوه المكسيك، استمتعت بإغاظتهم.

الحقائق كانت تتهمني، فكل شيء عن تاريخ أمريكا الشمالية والجنوبية يقودني إلى المكسيك: الحضارات الأمريكية القديمة (الأزتك والمايا)، الاستعمار الأشقر، الثورات التحررية، الاقتصاد الجديد، الكاثوليكية، الاحتفالات.. فأنَّى وجهت وجهي كانت

---

٥١. نشرت أجزاء من هذه المقطوعة في مجلة العربي الكويتية، الفتح كان لمرتين متتاليتين في عام ٢٠١٤، المرة الأولى للاستكشاف والثانية كمرشد سياحي مع شركة دروب.

٥٢. المستوزوز: أبناء الأسبان الذين ولدوا في المكسيك/ أمريكا اللاتينية لأمهات من السكان الأصليين.

المكسيك قبالتي، تبتسم في وجه جفائي وتدفع بالتي هي أحسن! وجدتني منجذباً لها بحنين داخلي غريب، اشتريت تذكرةً وسافرت لأثبت نظريتي:
المكسيك مجرد وجه مشوه من الولايات المتحدة.

***

مطار كانكون يؤكد نظريتي: الترتيب، المنظومة، اللوحات، لا أحد يشعل سيجارة رغم أنف القانون. كيف يمكن لمطار يحصد ١٧ مليون راكب بينهم ٤ ملايين سائح أن يسير بنظام وهدوء! إلا إذا اتبع قواعد الإدارة الأمريكية.

عند مكتب السيارات وقفت أنتظر جيب رانجلر المكشوف الذي استأجرته، اعتذر مني الموظف لنفاده. شعرت بالحنق، مدينة أمريكية يجب أن أركب فيها سيارة أمريكية. سيارةٌ أستحي ركوبها في الكويت! لكن وجود خللٍ في النظام، أشعرني بأني في بلدٍ لاتيني. النظام لا يعمل والأخطاء كالمطر. باغتني الموظف بعرضِ تعويضٍ أفضل: ميني كوبر موديل السنة، تأمين شامل، أميال مفتوحة، وكوبون بقيمة ١٠٠$ للمرة القادمة! كيف يمكن أن أحصل على كل هذا الدلال الأمريكي في بلدٍ لاتيني.

الطريق من المطار إلى البحرِ فسيحٌ، علاماته واضحة. وعلى جانبيه مجمعات تجارية جديدة وضخمة، لو أطلقت فيها فتاةً خليجية لما رجعت. انهارت قواي أمام لافتةٍ حمراء مكتوبٌ عليها Wendy's مطعم وجبات سريعة أقفل في الكويت منذ زمن، هناك سرٌ في مطاعم الصبا، نكهتها الرديئة تعيد لك شعور المراهقة.

تصل إلى كانكون البحرية، لسانٌ طويل من اليابسة يمتد في الماء، على جانبيه منتجعات، كأنها بجعاتٌ بيضاء ضخمة. الطريق بينهما مطرزٌ بأشجار جوز هند قطوفها دانية. والهواء رطبٌ يخترق شبابيك الميني كوبر، حياةٌ أمريكيةٌ سعيدة.

لم أحجز فندقاً، أردت أن أتجول وأختار بنفسي. كل منتجعٍ بداخله حياة متكاملة. مقدمين ما يسمى بـ "All Inclusive" بوفيه مفتوح طوال اليوم. مما يجعل الأجانب في غنى عن اكتشاف الحقيقة خارج أسوار فندقهم، فهم بين الملح والكلور طوال اليوم. شعرت بأني مراهقٌ أمريكي سخيفٌ في عطلة ربيعية Spring Break وأنا أتجول بين الفنادق.

منطقة كنكون عبارة عن كعكة قسمتها المكسيك بين الشركات الأمريكية والألمانية في السبعينات، لتحويلها إلى منتجعات بحرية. وقد وعدت الحكومة السكان المحليين (الذين ينتمون إلى قبائل المايا العريقة) بتحسين مستواهم المعيشي بعد نشر الاستثمارات على شواطئهم، وعليه تم إخلاء المنطقة وإعادة تركيبتها السكانية. في ٢٠٠٥ أصيبت المنطقة بزلزال دمر أغلب الفنادق، وتم إعادتها من جديد، لذا فإن فنادقها اليوم تكتسي بأثوابٍ جديدة كلياً.

***

كنكون حققت فرضيتي عن أمركة المكسيك. تعجُّ بالسياح الذين تغصُّ بهم الفنادق. وهو ما يضايقني، فمثلي يسافر من أجل الناس والاستكشاف، لا من أجل الاسترخاء والتمدد. أفضل أن «أسوح» في الأرض على أن «أسيح» من الشمس. وجدت ثلاثة عمالٍ على قارعة الطريق، عرضت عليهم «توصيلة مجانية». يعملون في تنظيف أحد المنتجعات، ومعتادون على السياح. دلوني على السوق الشعبي، مطعم التاكو الألذ، أماكن التوفير، الشواطئ المجانية، وأماكن للتخييم، وأخيراً اتصلوا مع صديق لهم يعمل في منتجع حجز لي ليلة بعشرة دنانير (١٢٠ ر.س.). تصرفهم أعاد لي الشخصية اللاتينية الخدومة التي أعرفها.

لكنهم أحرقوا قلبي بالحديث عن غلاء المعيشة وضعف الرواتب. المنتجعات الفخمة تستغلهم بأجور منخفضة. «الشركات» لا تهرول عبثاً.

تجولت ليلاً بالسيارة، هادئة كلياً، إلا من مركزها التجاري، الذي يعجّ بعشرات النوادي الليلية، نوادٍ لا تطرب إلا بموسيقى البوب الأمريكية وشيء من موسيقى الريقيتون اللاتينية، شخصيات كرتونية أمريكية عند الأبواب، شعور فيغاس. قضيت ليلتي في المنتجع، غرفة مطلة على المحيط والمسابح والنخيل. المنتجعات مع الوحدة، شرٌّ من خيمة في صحراء. تشعرني بالملل من الساعات الأولى. صباحاً توجهت إلى "تشا كارت" Xcaret، كل المراجع السياحية توصي بزيارتها. عبارة عن ممرات وكهوف صخرية طبيعية يجري بها الماء ويصب في البحر، تم تحويل المكان إلى حديقة مائية كبيرة، فيها مناطق غوص، حيوانات مائية، جلسات استرخاء، مغامرات مائية، استغلال ذكي للطبيعة مع الكثير من الكاتشب الأمريكي. مرة أخرى يبهرني النظام الأمريكي ويشعرني بالبعد عن أمريكتي اللاتينية.

لا يمكنك أن تخطئ أمريكا هنا، كانكون مجرد امتداد سخيف لفلوريدا!

***

بقيت أمنية كنكونية في داخلي أود تحقيقها؛ متحف «موسا» MUSA. حالة نادرة بين متاحف العالم، إذ لا يمكنك زيارته دون بدلة غطس. المتحف في قاع البحر؛ قطع ومنحوتات وسيارات كلاسيكية تزار من قبل الغطاسين. درجة كريستالية الماء عالية والبيئة البحرية ملونة بأطياف ربانية غريبة. لبست بدلة الغوص وغطست المتحف، رهيبةٌ تجربة التمتع بالفنون في المحيط الارتكوازي.

في خروجي منها قصدت مطعم التاكو الذي تحدث عنه العمال. وجدته مذكوراً

أيضاً في دليل سياحي أحمله معي، توجهت إليه لأجرب التاكو الحقيقي لأول في حياتي، وهم يقدمونها صغيرةً لذيذة تنتهي في قضمتين، معها عصير الرز، طلبت واحدة تلو الأخرى وأنا أسأل من حولي من السكان المحليين عن ألذ خلطات التاكو وماذا يجب أن أضيف لها، وتاكو بعد تاكو سقطت الكلفة مع رواد المطعم، ونصحوني بالذهاب إلى "بلد الوليد"، فهي لا تبعد سوى ساعتين ونصف غرباً.

***

لم أجد نفسي في الولايات المتحدة ولا المكسيك، وجدت نفسي في الشام!

بيوت عربية يزيد عمرها عن أربعمئة سنة. بحيراتٌ تتغنى بمقامات من الخرير وتتربع باحات البيوت. نُخيْلاتٍ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد. كيف يمكن للشام أن تزرع في قلب المكسيك؟ حتى اسم المدينة عربي؛ بلد الوليد **Valladolid**. أول مدينة بناها الأسبان في المكسيك. بعد سقوط الأندلس مباشرة. لذا نقلوا الأندلس كاملة - بشاميتها وعروبتها إلى هذه الأرض. السائح العربي سيظل مشدوهاً وهو يرى تراثه في المكسيك. وإن كان تراثه هنا يسمى باسم أسباني وهو «الكولوني». وتوجد في أمريكا اللاتينية مئات المدن الكولونية التي بناها الأسبان لا تزال محتفظة بأندلسيتها.

وصلتها ليلاً، لأجد المدينة ساهرةً تنتظرني. عشرات من الشباب يلفون شوارع المدينة يغنون أغاني جماعية. عزفٌ على منصة خشبية في الساحة الرئيسية وأمامها عشرات الكراسي تمتلئ بالعجائز، يستمعون لمغنين محليين يقدمون وصلات غنائية مختلفة. عشرات من عربات الباعة المتجولين، اشتريت لنفسي بوظة مانجا من البائع، ليضع لي عليها فلفلاً أحمراً مطحوناً ببعض البهارات المكسيكية!

الآن أُحِسُّ بالراحة، أُحِسُّ بأني فعلاً في أمريكا اللاتينية. وجدت امرأة تقف أمام

منزل معتق، طلبت منها الدخول. رحبت بي وأدخلتني بيتاً يزيد عمره عن ثلاثمائة سنة، إلا أنه لم يَتَسَنّه. صالون طويل مملوء بأثريات لها لون جذوع الشجر. سقف مرتفع مقوس مدعم بأخشاب. عجوز تجلس في آخر الصالون على كنبةٍ خمسينيةٍ مزخرفة. استفززت ذاكرة العجوز. حدثتني طويلاً عن المدينة والساحة والحب والكنيسة والطبخ والتربية وغرناطة. غرناطة حيث يعود أصلها. سألتها إن كانت لها أصول عربية، بحثت في ملفات ذاكرتها وقالت:

- أمي من أصول عربية قطعاً، اسماً وشكلاً ودلالاً. أما والدي فشكوكٌ في عروبته.

كعادتي، أقومُ بعمل مسح إحصائي في كل مدينة، فأسأل عشرة أشخاص يشترط فيهم السمنة والشحم عن مطعمهم المفضل. دلوني على مطعم محلي. جربت لديهم شوربة بيض النمل «أسكالتو» (يسمونه أحياناً الكافيار المكسيكي) مع تاكو البطاطا في القصدير، كان لذيذًا بحق.

***

منذ زمن بعيد وأنا أحلم بشيئين: السينوتي وتشيتشين إيتزا Cenote & Chichin Itza. وقد حققت هذين الحلمين في يوم واحد. السينوتي هي كهوف طبيعية مائية تصلح للسباحة. تجمعت فيها مياه عذبة وتحولت لمسابح طبيعية عمرها آلاف السنين. وهي تكثر في المايا ريفيرا. الكهف كان كبيراً من الداخل، دائري الشكل، قطره يزيد عن الثلاثين متراً. في أعلاه فتحة كأنها ثريا تتدلى منها جذور الأشجار وتَقْرِضُكَ منها الشمس، وماؤه أزرق فاتح عذب بارد. شعور السباحة فيه غريبٌ على حواسي وإحساسي.

أما تشيتشين إيتزا، فهي أشهر الأهرامات التي تقع في مناطق المايا. بناها أحد

ملوك الأزتك الأسطوريين. ثم اختفى هذا الملك في البحر، ولا يعرف أحد مصيره. حينما وصل المستعمرون الأسبان إلى المكسيك، سرت شائعةٌ بين الناس أن ملكهم الأسطوري قد عاد إليهم من جديد. وتعاونوا معهم ظناً أن المستعمر الأسباني "كورتيز" هو ملكهم. لم يكتشفوا غدرهم إلا بعد فوات الأوان. الهرم يشير إلى مدى التطور الذي عاشه المايا في هذه الأرض. الهرم على جماله إلا أنه كان مسلخاً للقرابين. يذبح عليه الغلمان والعذارى تقرباً للآلهة.

ولا شك بأن أهرام مصر أجمل هندسة وأكثر تعقيداً من أهرام المكسيك. فأهرام مصر ثلاثية القوام وبناؤها مُعجِز. بينما أهرام المكسيك رباعية الأضلاع سهلة البنيان. لكن البنية السياحية المكسيكية أعطت للمكان جمالاً وجلالاً بعكس الأهرام المصرية التي تفتقر للتنظيم السياحي اللائق بعظمتها.

***

حينما تنظر إلى قوام المكسيك في الخريطة؛ تبدو مثل امرأة عظيمة الصدر نحيلة الخصر، لها يدٌ واحدة، ولها ورمٌ شاذ عن قوامها. هذا الورم هو شبه جزيرة اليوكاتان، وقلبها النابض هو كنكون السياحية. وسبب تسميتها بـ "يوكاتان"، أن الأسبان وصلوا إليها، فسألوا أحد المايا - بالأسبانية - عن اسم المكان، الرجل لم يفهم حرفاً من سؤالهم فقال لهم بلغة المايا: يوكاتان (لم أفهم). فظن الأسبان أن اسمها يوكاتان! وأطلق المستعمر عليها هذا اللفظ المضحك الذي لا يزال سارياً إلى اليوم! غباء القوي يتحول إلى تاريخ، وذكاء الضعيف يحرق. تبين لي بأنه كلما ابتعدنا عن كانكون، تراجع المد الأمريكي وكشفت المكسيك عن نقابها. وكنت أود أن أتوغل في شبه جزيرة اليوكاتان وصولاً إلى محافظة تاباسكو. لكني عدلت الخطة، وقررت أن أبدأ من المكان

السليم: العاصمة.

***

أؤيد أن نبدأ استكشاف أي بلدٍ من العاصمة. عواصم اليوم، بوتقات تتجمع فيها عناصر الشعب وتذاب. مكسيكو سيتي، ثاني أكثر مدينة في العالم من حيث الكثافة السكانية بعد طوكيو[٥٣]، أكثر من عشرين مليون نسمة يتزاصون فيها ويزدحمون. (نيويورك يسكنها ٨ ملايين، وموسكو ١٢ مليون). أريحية الناس وانبساطهم (عدا سائقو التاكسي) كانت مفاجأة بالنسبة لي. الابتسامات ملقاة على قارعة الطريق. البشاشة تسبق السلام. التودد إلى الغرباء سليقة وطبع.[٥٤]

كل مدينة في العالم يمكن أن تختصرها بكلمة، بيروت مثلاً، أختصرها بـ«مظاهر». بوينس آيرس «فن». اسطنبول «شجن»، بغداد «حزن»، القاهرة «قهقهة»، دبي «تحدي»، وهكذا. أما مكسيكو سيتي فاختصارها «التناقض». سبقني لهذا الوصف الكثيرون، أشهرهم البارون ألكسندر هامبلوت[٥٥] في القرن التاسع عشر. أسبغ عليها التناقض نتيجة الفرق الكبير بين النخبة الأسبانية والسكان الأصليين ثروةً ونفوذاً.

أخذت القطار إلى قلب مكسيكو سيتي الحديث: «لا فورما».

نزلت من مترو الأنفاق، صعدت السلالم. قدماي تستشعران أساطير الأزتك المجنحة، أنفي يستنشق روائح خرافات آلهات الشمس والقمر والذرة. لكن عيني

---

٥٣. هناك عدة طرق لاحتساب الكثافة والزحمة السكانية، وأغلبها تجعل مكسيكو سيتي من العشرة الأوائل اكتظاظا بالسكان.

٥٤. على قناتي في اليوتيوب Q8BackPacker، قدمت سلسلة حلقات باسم: ٢٤ ساعة في مدينة، وهناك حلقة خاصة عن مكسيكو سيتي. وأنوي تقديم حلقة أخرى عن عيد الموتى، ومدينة واهاكا.

٥٥. عالم نبات ألماني، قام برحلة لمدة خمس سنوات في غضون عام ١٨٠٠ زار فيها أمريكا اللاتينية، وجمع معلوماتٍ عن كل نباتاتها. وهو من الأشخاص الذين أثروا على سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية.

تشاهدان ناطحات سحاب، أدخنة سيارات، تماثيل عالية تتوسط الميادين، آلاف من البشر المستعجلين، عيون فيها من ضيق آسيا، وعيونٌ فيها من سعة أسبانيا. سحنات تعجن القارتين ببعض. عادة ما تبدو المدن اللاتينية أكثر وهناً ومحافظةً، بينما تبدو مكسيكو سيتي حيوية وشابة للعين. تاريخها مطويٌ عن الأعين. لكنه يتسلل إليك لواذاً تحسه ولا تخطئه. شيءٌ في الجو يجمع بين تاريخ خفي وحضارة ظاهرة.

التجول بين ناطحات السحاب في شوارع مليئةٍ بعربات التاكو، يعكس درجة التناقض المعشعش فيها. مدينة يتجاور فيها أثرى أثرياء العالم (منعم كارلوس - ٧٤ مليار دولار) بأحياء جبلية كاملة مبنية من الطين والصفائح. بالرغم من الجوع، إلا أنها تمثل أكبر معدل نسبة سمنة في العالم. بسبب التاكو والكوكو كولا. المكسيكي أكبر مستهلك للذرة وللكوكو كولا في العالم! يستهلك المكسيكي الذرة بـ ٢٣ ضعفاً لاستهلاكه للرز. كل شيء من الذرة: الحساء، الخبز، المشروبات الباردة، المشروبات الكحولية، السلطات.. هناك ٧٠٠ طبق ومشروب مكسيكي يدخل فيها الذرة. تتنوع الأطباق المكسيكية وتتفق على الذرة. تختلف ألوان الذرة حسب المنطقة: بيضاء وصفراء وبنفسجية وحمراء وسوداء. أغلب عجينة التورتيا تصنع من خلط الذرة الصفراء بالبيضاء. الذرة في أوروبا كانت لا تؤكل وتستخدم للسماد. لكن المكسيك عرّفت العالم على الذرة. وخصوصاً الولايات المتحدة، حيث الذرة هي المنتج الأكثر زراعة. وهي قاعدة الهرم الغذائي في الولايات المتحدة؛ علفٌ حيواني وسماد نباتي وغذاء بشري. الذرة تزرع في كافة أنحاء المكسيك لكنها لا تكفي الاستهلاك اليومي للأفراد، وهناك ضغط من الشركات الأمريكية لاستيراد الذرة من أمريكا. المكسيك ترفض ذلك لما تعلمه من عملية تهجين لجينات الذرة في أمريكا **Genetically**

Modified Organisms، لذا فضلوا استيراد الذرة من غواتيمالا لهذا السبب[٥٦]. الذرة لها قدسية خاصة في المكسيك، في الماضي قدسوا آلهة الذرة، خصصوا لها عيداً خاصاً. الذرة قلبت نظريتي رأساً على عقب: المكسيك هي من أثرت على الولايات المتحدة وليس العكس.

المكسيكان فخورون بأكلهم كثيراً. يتضايقون من النسخة المشوهة من الأكل الأمريكي المكسيكي والتي تسمى تكس مكس Tex-Mex (تكس اختصار لتكساس). تحمل شكل الأكل المكسيكي لكن لا تحمل مضمونه بسبب اختلاف المكونات المكسيكية عن الأمريكية. ما دعا حكومة المكسيك في عام ٢٠٠٧ إلى إرسال طباخين مكسيكان إلى أكبر خمسين مطعماً أمريكياً يقدم التكس مكس، شرحوا لهم حقيقة الأكل المكسيكي. الذي يرتكز على ثلاث مكونات رئيسية: الذرة، الفول، والفلفل.

***

حملتُ شنطتي سمرقند على ظهري، وتجولت في المدينة، قابلتني ابتسامات ودودة. سألت عن أفضل تاكو يمكن أن نجربه، يجاوبني المكسيكي كمن ينظم شعراً:

العربة الفلانية. جاءت هنا قبل أن أولد؛ الجبن من الجنوب، التاكو من الذرة البيضاء، يخلطونه بالفول الأحمر.

تباغته العبرة وهو يقول: كان بودي أن أحضر معك لكن لدي ارتباط عملٍ مهم!

لا يمكن أن أخطأ العربة؛ نار لا تنطفأ، ازدحام، ناس تقضم التاكو على الرصيف، وجوه مجعدة لكبار السن، فتاة سمينة تعدت مرحلة XXXL منذ زمن، أنهارٌ من

---

٥٦. أخطر حماقة/جريمة لشركات الولايات المتحدة كانت بعبثها في جينات الذرة. لأنه عبث بقاعدة الهرم الغذائي. أنتج صحفي أمريكي فيلماً وثائقيا عن هذه الجريمة بعنوان: OMG GMO، أنصح بمشاهدته.

اللعاب تسيل من الشفاه، والأهم من ذلك طباخٌ سمين. وضعت سمرقند بجانب امرأة عجوز. اقترح عليّ الطباخ السمين تجربة «الجورديتا». جورديتا تعني الفتاة المنتفخة السمينة. كما نسميها باللهجة الكويتية «بوتمبه». جلست في خشوعٍ أقضم خبز الذرة المخلوط بالدجاج والجبنة الخشنة والفول والفلفل. اشتعلت الأحاديث مع العجوز ومع الجالسين. طلبت جورديتا أخرى وأكملت أحاديثي. من رأى منكم ساندويشاً مسكراً؟[٥٧] رحلتي مع الأكل المكسيكي اختلفت كثيراً حينما زرت «بولانكو» الحي الأرستقراطي في العاصمة، تحصل مع الأكل على الدلال والتنوع، فكل ولاية في المكسيك لها مطعم راقٍ يمثلها في بولانكو. جربت العديد من المطاعم هناك، تختلف نهائياً في الطعم، لكنها تتفق جميعاً على الذرة.

وهنا أود أن أسجل بأن الأكل اللذيذ في المكسيك يتمركز في المطاعم الراقية وأكل الشوارع، أما المطاعم المتوسطة فهي عادية الطعم.

بمقارنة الأطباق المكسيكية والأمريكية، اتضح لي بأن الأمريكان حاولوا سرقة المطبخ المكسيكي من خلال تحويره، كما أنهم سرقوا الذرة والصناعات القائمة عليها من المكسيك. المكسيك انتصرت.

***

المكسيكي في داخله رسام، والعربي في داخله شاعر.

---

٥٧. في عام ١٩٩٥ صدر كتاب «وصفات الذاكرة: خمس أجيال من النكهات المكسيكية» وحاز على جائزة أفضل كتاب طبخ في تلك السنة، ويجمع هذا الكتاب وصفات العائلة منذ ١٨٨٠ إلى تاريخنا المعاصر. ويعتبر المطبخ المكسيكي بالنسبة لي ثاني أفضل مطبخ في أمريكا اللاتينية بعد المطبخ البيروانى، وإن كانت نكهات تكس مكس هي الأكثر انتشاراً في العالم بسبب الشركات الأمريكية. وفي كتابي «تسكع على الخريطة» أفردت في فصل بيرو شيئاً عن الأكل البيروانى الذي بدأ ينتشر عالمياً الآن.

القصر الوطني[٥٨] له طراز كولوني. باحة كبيرة يدور حولها المبنى المربع الضخم. على ممرات المبنى هناك رسم كبير، يغطي كل الممرات. يشرح تاريخ المكسيك كاملاً من قبل وصول الأسبان إلى تحرير المكسيك من الديكتاتوريات. حينما بدأت بتسيير رحلات إلى المكسيك، كنت أحرص على زيارة القصر الوطني. لأشرح تاريخ المكسيك كاملاً في لوحة فنية، تتضمن في طياتها الكثير من اللمز والانتقاد للمستعمر الأسباني. في العشرينات تولى وزارة الثقافة رجل مثقف: «خوسيه فاسكونسيلوس»، الذي اجتمع بالرسامين وطلب منهم تكثيف التاريخ المكسيكي في قلب الشعب من خلال الرسم، فبدأت حركة فنية في عهده - لا تزال قائمة - وكان الفنانون يسربون ميولهم الثورية واليسارية من خلال لوحاتهم. منها لوحة القصر الوطني التي شارك في رسمها دييغو ريفيرا. زوج الرسامة - والوحيد الذي استطاع تحملها - «فريدا كاهلو». وهذه اللوحة شدتني كثيراً لزيارة «البيت الأزرق»، وهي فيلا غريبة عاش الفنانان فيها. زرقاء بما تحمله الكلمة من معنى، اختاروا لها أزرقاً داكناً، لا يرمز إلى صفاء السماء بل إلى غموض سكان البيت. الفيلا كانت عبارة عن حديقة كبيرة وغرف صغيرة. وهذا النمط ينتشر في المكسيك، تجد أكثر من ثلثي مساحة البيت عبارة عن حديقة عشبية، بينما يسكن الناس في غرف ضيقة. الجولة في البيت - التصوير فيه ممنوع - ستشرح لك سر الصور المعقدة التي كانت ترسمها فريدا لنفسها، ستشرح لك سبب احتفاظها بحاجبين غليظين بهذا الشكل.

تقديس المكسيكان للرسم شيء جديد علي. لعلهم استقوه من الأمريكان، فما رأي التاريخ في ذلك؟

---

٥٨ . لا بالاسيو ناسيونال La Palacio Nacional، وهو الديوان الجمهوري الذي تدار منه شؤون رئاسة الجمهورية. وكان في أصله قبل خمسمئة سنة قصر ملك الأزتك، وحين وصل كورتيز (قائد الحملة الأسبانية) غدر بالملك وقتله وهدم القصر، وبنى على أنقاضه قصراً كولونياً على الطراز الاستعماري، وبعد وفاته اشترته منه الحكومة الأسبانية وجعلته مركزاً إدارياً لها. ومع بداية حركة استقلال المكسيك قام القسيس هيدالغو بقرع جرس الحرية صارخاً: فيفا مكسيو (تحيا المكسيك)، لذا جعلوه القصر الوطني بعد الاستقلال.

في عام ١٥٣٥ أمر الأسقف الأسباني في المكسيك بجمع كافة المؤلفات والمخطوطات المكسيكية الأزتكية وحرقها. مؤلفاتهم كانت أقرب للكتب المصورة من الحروف المكتوبة، لكنها تشمل كافة علوم الحياة: الفلك، التاريخ، الطب، الهندسة. الكاثوليك يريدون تكرار تجربتهم في إنهاء الآخر كما فعلوا مع الثقافة العربية. بعد حرق المخطوطات، جاء قسيسٌ من أسبانيا اسمه: ساهاجون. وجد أن الأزتك ورثوا حضارة عظيمة امتدت لأكثر من ألفي سنة، ويجب تجميع هذا العلم. أنشأ مدرسة خاصة لتعليم بعض أبنائهم اللغتين اللاتينية والأسبانية[٥٩]، وطلب من الطلبة الجدد نقل العلم الأزتكي إلى الأسبانية. كانت النتيجة موسوعة علمية تسمى مخطوطات فلورينتاين. أكبر موسوعة شاملة عن تاريخ الأزتك تتكون من إثني عشر مجلداً. اجتمع ساهاجون مع كبار السن. سألهم عن علومهم القديمة. لم يجيبوه كتابةً، بل أجابوه رسماً، الرسم أسهل في التعبير عندهم من الكتابة! ويبدو أن هذا الإرث الجيني لا يزال يعشعش في الشخصية المكسيكية، وبذلك تكون المكسيك تفوقت على الولايات المتحدة في فن الرسم.

***

أمريكا لا تُشتم كثيراً هنا! برغم ألوان الاستغلال التي تمارسها الولايات المتحدة إلا أن الشعب يبدو هادئاً تجاهها. تحتاج لوقتٍ لكي تستخرج الكره الأمريكي من القلب المكسيكي. ملامحهم هادئة مستكينة لا تبدي حقدها. الولايات المتحدة تحتل نصف المكسيك، تستخدم عمالتهم، تسرق بترولهم، وطالما استأجرت السياسيين المكسيكان

٥٩. اعترض الأسبان على تعليم السكان الأصليين اللغة الأسبانية، لأن ذلك سيفضحهم أمام السكان الأصليين. لأن تصرفاتهم كانت مخالفة للمذهب الكاثوليكي، خصوصاً في زواج البطاركة أو تعدد الزوجات، أو معرفتهم بالتاريخ الدموي للأسبان وهزائم الأسبان التاريخية.

لصالحها. حتى السياسيين في المكسيك لا يتاجرون بالورقة الإمبريالية كثيراً، أما في باقي أمريكا اللاتينية فتسمع جلداً يومياً موجها للشيطان الأكبر وشركاته ومصالحه. هل صمتهم حكمة؟

العلاقة بين الشعبين معقدة، إذ إن تحويلات المهاجرين المكسيكان في الولايات المتحدة تشكل المصدر الثاني للدخل (بعد البترول). لكن الاقتصاد المكسيكي في تحسن بسبب انفتاحه على الأسواق الأمريكية. هذا التحسن بدأ يشجع المهاجرين على العودة. الهجرة العكسية تشكل خطراً على اقتصاد الولايات المتحدة القائم على الأساس الضريبي[٦٠]. لا ننسى أن الأسواق المكسيكية (١٢٠ مليون مستهلك) تشكل أهمية كبرى بالنسبة للولايات المتحدة. لذلك يبدو أن الشعب والحكومة يداهنان الولايات المتحدة بدبلوماسية منقطعة النظير. دبلوماسية أنعشت العباد والبلاد، وفتحت أبواب الرزق أمام الطبقة المتوسطة. المكسيك عضو في حلف «نافتا» الاقتصادي الذي يضم كندا والولايات المتحدة. كل صناعة السيارات الأمريكية انتقلت إلى المكسيك تقريباً. تبعتها الكثير من صناعة الخدمات. مما رفع إنتاجية الشعب وزاد من المدخول. العلاقة الاقتصادية بين البلدين غدت متشابكة ويصعب تفكيكهما عن بعضهما.

توقعت أن تكون اللغة الإنجليزية منتشرة كثيراً في المكسيك. كانت محدودة بقدر حاجتهم لها. الشعب فخورٌ بأنه أكبر دولة متحدثة بالأسبانية، أكبر من أسبانيا ذاتها، بثلاثة أضعاف العدد!

على العكس تماماً فقد نشر المكسيكان والكوبيون والدومينكانيون اللغة الأسبانية

---

٦٠. يشير جورج فريدمان (عالم جغرافيا سياسية) في كتابه "مستقبل العالم خلال ١٠٠ سنة" إلى أن التحسن السريع لأوضاع المكسيك والهند من شأنه تشجيع الهجرة العكسية، مما يدمر الاقتصاد الأمريكي القائم على الضريبة. خصوصاً مع توقع انخفاض حاد في الزيادة الطبيعية للبشر بعد ٢٠٥٠ بسبب استقلالية المرأة الاقتصادية في أغلب مناطق العالم، وهو ما يجعل العنصر البشري مرغوباً فيه.

في الولايات المتحدة حتى غدت اللغة الثانية هناك، وأحياناً الأولى. المكسيك لم تتأثر كثيراً باللغة الإنجليزية، وذلك راجع لتنامي القومية المكسيكية خلال الحرب الأمريكية المكسيكية التي استولت فيها أمريكا على نصف مساحة المكسيك: كاليفورنيا وتكساس ونيو مكسيكو، حيث تنامى الكره المكسيكي تجاه قياداته العسكرية المتخاذلة والولايات المتحدة.

***

زيارة واهاكا، كانت الضربة القاصمة لنظريتي عن التأثير الأمريكي.

واهاكا[٦١] مدينة تراثية وادعة بين جبال جنوب المكسيك. شكلت عبر التاريخ قومية وحضارة خاصة بها. مطوقة بجبال حمتها من الأسبان لأكثر من مئتي سنة. وحافظت على نكهتها الأصلية وتوابلها الحضارية.

في ساحتها الرئيسية، الأطفال يتحدثون بكلمات لا أستطيع فكها وتركيبها. يتحدثون بلغة الزباتيس. واهاكا محاطة بخمسة عشر عرق/قبيلة مكسيكية تعيش حولها أو فيها. لديهم لغاتهم وتراثهم وأكلهم الخاص. مما جعل واهاكا غنية بتراث فريد من نوعه لم تدنسه خيول الأسبان. ومن أشهر قبائلهم الزباتيكوز والمكستيكوز. وهذا القبائل لها ملابسها وأطعمتها ومشاريبها وأسلوب حياتها الخاص، وقد اندمج بعضهم في الحياة المدنية الحديثة ولا زال بعضهم يفضل الاحتفاظ بخلطته التاريخية. من الطريف أن حاكم المدينة السابق كان لبنانياً واسمه جوسيه قصاب (من قصاب إلى حاكم مدينة!).

توقفت لتجربة «المولي»؛ مرقةٌ مكسيكية تتكون من أكثر من ثلاثين خليطاً، لا

٦١. Oaxca وتنطق واهاكا أو واخاكا، الخاء فيها مخففة أقرب إلى الهاء، لذا كتبتها بالهاء.

تتوافر مكوناتها إلا في المكسيك. ويختلف لونها من من مكانٍ إلى آخر في المكسيك. وفي واهاكا لونها بنيٌ داكن، يضاف إليها شيءٌ من بودرة الكاكاو المر. قدمت لي بالدجاج والرز. طبقٌ من أرض كريمة ولآدة، وطباخون صبورون نجحوا في خلط ثلاثين مكوناً في قدرٍ واحد!

***

وصلت إلى واهاكا في ليلة عيد الموتى (لتعرفوا كم أنا محظوظ!). المدينة تضج بالوجوه الملونة والأقنعة المرعبة. في كل بيت توضع طاولة صغيرة؛ عليها صور الموتى، تفاصيلهم المفضلة، شموع. في الليل تشتعل الكرنفالات؛ تبدأ في الشوارع وتنتهي في المقابر. هذا العيد عمره أكثر من ٢٥٠٠ سنة، سنّته الحضارات القديمة لمساعدة «سيدة الموت» في العناية بعظام الأموات، وترطيب أرواحهم. وأثناء استمتاعي بالمشاهدة، يخرج من الكنيسة موكبٌ كبير. لا بد أنهم سينكرون على الناس الاحتفال بهذا العيد الوثني، سأسمع تقريعاً: بدعة، حرام، كفر، العقيدة، الأموات لا يحسون.. ظهر القساوسة في موكب احتفالي، يحملون صوراً ومجسمات كنيسية، معهم فرقة موسيقية، شاركوا بالكارنفال! لست أفهم! الفضول أكبر من الاحتفال. تبعتهم وأمسكت قسيساً لأتناقش معه (هذا وقته!)، قال القسيس:

- عيد الموتى يتزامن مع «عيد القسيسين»، في هذا العيد يلتقي قسيسو الجنة بقسيسي الأرض! ونحن هنا نحتفل بعيد القسيسين وليس عيد الموتى[٦٢].

- سافرت أوروبا كلها ولم أشهد احتفالهم بعيد القسيس في مواكب، الكنيسة لا

---

٦٢. All Saint's Day أو الهالوين، والهالوين له جذور متعلقة بما قبل المسيحية، حيث اعتقد الأوروبيون بأن في أول نوفمبر يفتح برزخٌ بين السماء والأرض، يسمح للأرواح بالانتقال. ومن الغريب تزامن العيد الأوروبي مع العيد المكسيكي، ولعل السبب أن هذا موسم حصاد سنوي للمزروعات (بما فيها الذرة) مما يستدعي البحث عن سبب للاحتفال.

تريد أن تمر عليها مناسبة دون أن تسيطر على الشارع المكسيكي، إذا كنتم تعتقدون بوثنية هذا العيد لماذا تشاركون فيه؟

نظر إلي القسيس مغاضباً، أعطاني ظهره. من الواضح أن توقيتي للنقاش كان فاشلاً. المدينة مبتهجة شوارع ودكاكين ووجوه. مواكب مختلفة لا تنقطع: كل موكب يمثل مدرسة، حزباً، تجمعاً، فرقة، حياً. ويستمر العيد معهم لمدة ثلاثة أيام. في آخر الليلة، يتوجهون جماعاتٍ للمقابر، كل عائلة تجلس حول قبر من تحب، تضيء الشموع، تغني، تشرب، ترقص، تسكر. الموت هو آخر شيءٌ يحتفى ويحتفل به، وحدهم المكسيكان، جعلوا من الموت أغنيةً.

قبل هذا اليوم، كنت أظن أن المكسيكان استوردوا هذا العيد من الهالوين الأمريكي، لكن تبين بأن عيدهم منفصل تماماً. والأمريكان سرقوا عاداتهم ومأكولاتهم في هذا اليوم وأضافوها على الهالوين الأمريكي! المكسيكان لهم الأثر الأكبر على ثقافة أمريكا.

***

خلاصة القول هو بطلان عقيدتي في تأمرك المكسيك، بل من الواضح أن المكسيك هي من أثر على الولايات المتحدة. الثقافات القديمة لا تزال راسخة وقوية فيها. بخلاف كانكون وبعض الأماكن السياحية، فإن باقي البلد (التي تبلغ مساحتها مليوني متر مربع) لا تزال بعيدة كل البعد عن الثقافة الأمريكية، المفاجئ بأن المكسيك قد غزت الولايات المتحدة في الكثير من مناحيها الاجتماعية والثقافية. يبدو أن الاستعمار والجوار الأمريكي، قد أضافا إلى المكسيك خلطات جديدة، وطرزا لها فسيفساء مميزة عن باقي العالم، دون أن يَسلُباها جوهرها المعتق. تظل المكسيك مثل كوز الذرة، تحتاج إلى تقشيرها أولا ثم تصل إلى لبها.

لذا أستغفر المكسيك من ظلمي لها طوال هذه السنوات، فالأرض تعبق بالتراث والتاريخ والأساطير والتطور والشواطئ.. والبشر الممتعين.

في العودة، توقفت في الولايات المتحدة. طلبت وجبة طعام أعطوني معها كوزاً من الذرة. وكان معي كوزاً آخر جلبته من المكسيك. وضعتهما بجانب بعضهما، الكوز الأمريكي أصفرٌ لامعٌ لعبوا بجيناته، بدون قيمة غذائية. المكسيكي أقل جمالاً لكنه طبيعي، لم يتعرض للتعديل الوراثي، محتفظٌ بنكهة أجداده وأصالته وقيمته الغذائية. أدركت الفرق بين البلدين. الآن أجهز شنطتي لتجربة مكسيكية أكثر عمقاً، ماذا تنتظر أنت؟[٦٣]

٦٣. سيلاحظ القارئ بأنني لم أسرد يومياتي وصداقاتي كما أفعل دائماً، والسبب أن المكسيك وبيرو بلدان مطّردان، والتجارب فيها غنية بحيث يحتاج كل منهما لكتاب منفصل أتحدث فيه عن يومياتي ومشاهداتي والتاريخ. وقد ترددت كثيراً في نشر هذه المقطوعة، لكني رأيت بأن كتاباً عن أمريكا اللاتينية يلزم أن يحتوي المكسيك. وهناك خمس دول/ مدن أعتقد أنها بحاجة إلى كتاب كامل للعمق الذي تحتوية ولتجربتي الفريدة فيها: القدس، المكسيك، بيرو، الصين، سوريا. لكن الوقت ضيق والهمة ضعيفة.

کوبا

خط سير المؤلف.

- هاڤانا: ممتعة في البداية، مملة في النهاية، الناس تفكر بأموالك.
- كايو: خلجان بحرية، وتخلو من السياح.
- ڤيناليس: كهوف نهرية وتسلق جبال. كل بيوتها فنادق.
- ڤارادیرو: منتجعات بحرية.
- ترينيداد: مدينة تراثية وعائلة استضافتني مجاناً.
- سانتياغو: الثقافة الإفريقية.
- غوانتانامو: السجن الشهير.

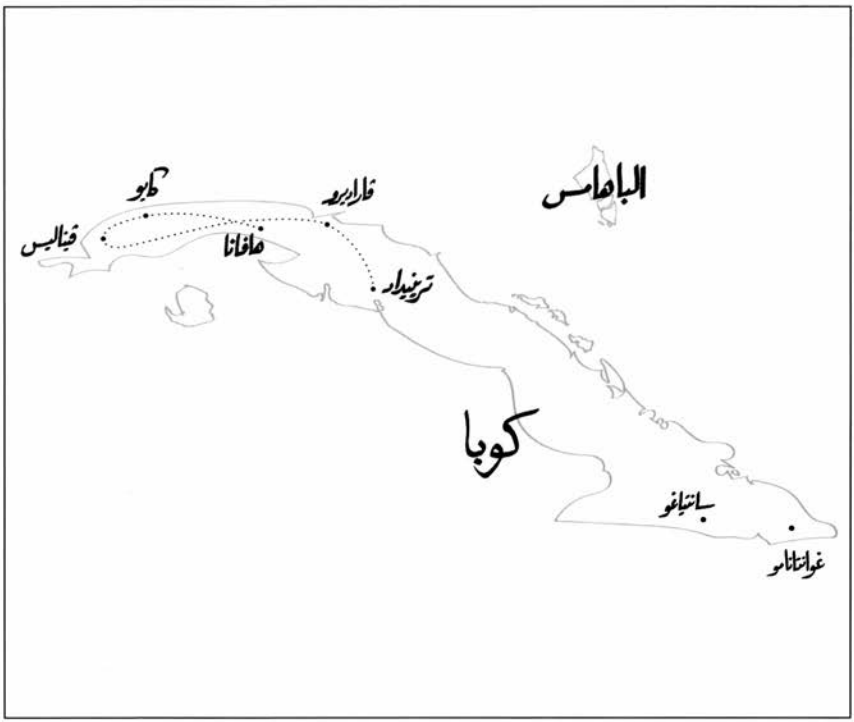
الباهاماس
كوبا
هافانا
ترينيداد
سانتياغو

ثورة حتى النصر

المكان : كوبا.
الزمان : ١٩٥٦.

بحرٌ مظلم، سفينة صغيرة تسير بليلٍ، تعبر خليج المكسيك باتجاه كوبا. تضم ٨٢ ثائراً متهوراً، كلهم كوبيون عدا أرجنتيني واحدٍ. أطلقوا عليه لقب «تشي جيفارا»، تطوع كطبيب فهو لم يحمل سلاحاً من قبل. يحملون حلماً ساذجاً بالنصر على جيش قوامهُ عشرات الآلاف ومدجج بالأسلحة. نظامٌ مدرب من الولايات المتحدة. انفضحت سخافتهم في لحظة وصولهم، إذ كانوا مخترقين من المخابرات، والجيش النظامي على اليابسة بانتظارهم. البحر المظلم من ورائهم، و الجيش المنظم من أمامهم. وقعوا في الكمين، وفتحت عليهم النيران.

***

وكالات الأخبار العالمية كلها أذاعت الخبر: الجيش الكوبي يسحق مجموعة ثورية إرهابية على سواحل كوبا. انهارت عائلة جيفارا في الأرجنتين، سوادُ العزاء بموت ولدهم يعمّ الجميع، عدا والده الذي يحسّ بشيء لا يعرفه. البيت الذي يعجُّ بالحياة

تحول إلى مقبرة خرساء.

وفي ليلة عيد الميلاد. رأوا يداً أجنبية تمرر ظرفاً صغيراً من تحت الباب. رفّت قلوبهم وهم يفتحونه؛ قصاصة ورقٍ صغيرة بخطِّ يدٍ يعرفونها، وأسلوب تهكمي لا يخطئونه:

أيها العجوزان،

أنا بخير، لقد استهلكت روحين فقط، ولا تزال لي سبعة أرواح.. تقوا بحبي للأرجنتين.

عناق حار

تيتو[٦٤]

صرخوا بهستيريا، هطلت دموع الفرح، أشرقت حيوية البيت.

***

على أرض المعركة، سرعان ما تفرق الثوار كالعصافير المرتجفة. الكثير منهم قتلوا وجيفارا أصيب. لاحق الجيشُ الفارين، بالمشاة والطائرات. دفعوهم باتجاه "لاسيرا"، منطقة غابات جبلية جافة. لا يسكنها بشرٌ لوعورتها، ليس فيها منابع ماء ولا مصادر طعام. حمل تشي جيفارا السلاح مع مجموعة صغيرة مثخنةً دماً وتعباً. هربوا إلى لاسيرا، باتجاه الموت الآخر. وجدوا قطرات من الماء متجمعة في بعض الحفر، شفطها جيفارا بالأُبر، وأصبح من حق كل مقاتل عدد محدود من القطرات في

٦٤. تيتو: اسم دلع أطلق على جيفارا في طفولته، عرف فيه داخل منزله فقط.

اليوم، ولا طعام تقريباً. رآهم مزارع، ارتعب من أشكالهم الوحشية. أمدهم بلقيماتٍ، ثم أخبر الجيش عنهم. بعد ليالٍ مضنية من المطاردات، يكمنون في النهار ويسيرون في الليل، التقوا بأصحابهم في الغابات الجبلية، فيديل لا يزال حياً!

اعتصموا بالجبال والغابات. نظموا أنفسهم جيداً، أحصوا المتبقي معهم من الطلقات والأسلحة. شنوا غارات مفاجئة على ثكنات الجيش الصغيرة. غنموا بعض الأسلحة. أخبار انتصاراتهم تنتشرُ بين المزارعين. بينما وكالات الأخبار العالمية تنشر أخباراً مغايرة. تعاملوا مع المزارعين برجولة، يدافعون عنهم ويحمونهم. أحبهم المزارعون وانضموا إليهم، بدأت المقاومة تكبر. وضعوا منهجاً للتدريب، بما في ذلك تعليم الأميين من المزارعين القراءة والكتابة. الثورة جسرٌ لبناء دولة حديثة، ولا دولة بغير علم. كانت هناك اختراقات دائمة وجواسيس، لكنهم ينجحون في كشفهم وتصفيتهم. زارهم صحفي أمريكي. هربته الرفيقات عبر الجبال. كتب أول تقرير صادمٍ للعالم عن ثبات الرفاق؛ حياتهم في الجبال، لحاهم الكثة، شظفهم، وتقشفهم. فازداد توافد المتطوعين. تطوع معهم مراهقون أمريكان. والأمريكان يتطوعون من باب المغامرة وفعل شيء جديد، لا من أجل رفع الظلم. لم يتحملوا شظف العيش فأرجعوهم لبلادهم. تشجعت المعارضة المدنية والسياسية والطلابية في هافانا. رفعت سقف المظاهرات والمطالبات وصولاً إلى محاولة لاغتيال الدكتاتور باتيستا. كسب جيفارا ثقة كاسترو، ليتحول من طبيب إلى مقاتل. نال ترقياتٍ سريعة بسبب بسالته وقدراته العالية على التحمل. نقطة التحول الكبرى في معركة سانتا كلارا، قاد جيفارا فرقة من ٣٥٠ ثائراً ضد كتيبة من الجيش فيها ٣٠٠٠ جندي، وانتصر جيفارا في معركة حسمت وضع الثورة.

بعد سنواتٍ من النضال، يهرب باتيستا وحاشيته بمئة مليون دولار إلى الولايات المتحدة. تنجح المقاومة في دخول هافانا، وسط احتفال مهيبٍ. احتفاءٌ صادقٌ من

آلاف الناس، يستقبلون ثلة من المقاومين، ثيابهم كاكيةٌ رثة، لحاهم طويلة، وجوههم قاسية، أبدانهم نحيلة، يحملون الرشاشات الروسية. وقف فيديل ليلقي خطاب النصر، تزاحمت هافانا كلها لتشهد الحلم، تسلق الناس أعمدة الإنارة لكي يشهدوا التاريخ، علا الصراخ في كل هافانا: ثورة حتى النصر. كل الثوار كوبيون أبناء هذا البلد، إلا رحالٌ طبيب مجنونٌ جاء من عُدْوَةِ الأرجنتين. جاء يعلمهم أن البشر بشرٌ أينما كانوا، والظلم ظلمٌ أينما حل. كافأته الثورة بمنحه الجنسية الكوبية.

هل وصول الثوار يعني انزياح الظلم وتطور البلد؟

كوبا

مَـا مُقـامي بأرْضِ نَخْلَةَ إلاّ ... كمُقامِ المَسيـحِ بَينَ اليَهُودِ
أنَا في أُمّـةٍ تَدارَكَهـا اللّـ ... ـهُ غَريـبٌ كصَالِحٍ في ثَمُودِ

«بعد خمسين سنة من حصار كوبا، فشلنا بنشر الديموقراطية، وتراجعنا في أمريكا اللاتينية. لذلك سنعيد العلاقات الدبلوماسية. نفتح باب التجارة والسياحة. ونثبت أرجلنا لتطوير الكوبيين».

باراك أوباما

٢٠١٥

بلد كرهته

كيف يمكن لرحالة أن يكره «كوبا»!

كوبا يجب أن تكون أخصب أرض للرحالة: دولة مغلقة - طبيعة استوائية - شواطيء زرقاء - تشي جيفارا - حصار اقتصادي - فكر اشتراكي - موسيقى - سيجار.. بلد يمارس كل الغواية والتبرج، كيف يمكن أن يكرهه؟

***

أغلب السياح يتصرفون كالقطيع، يسكنون، يأكلون، يفعلون نفس الشيء. يطبقون ما تمليه عليهم مكاتب وكتب ومواقع السياحة. هربت من السكن في معقل السياح: هافانا القديمة، لاجئاً إلى ضاحية تسمى: فيدادو. قريبة من بعض الأماكن الهامة ومن البحر، يسكنها السكان المحليون. فندق صغير، ليلة واحدة. عليّ أن أجد طريقي إلى قلب المدينة خلال هذا اليوم، بعدها سأحدد سكني. أكره الفنادق، الفنادق سجون راقية. تفصلك عن المجتمع والناس. تجعلك تحتفظ بوطنك في سفرك. تستنزف

---

٦٥. نشرت أجزاءً صغيرة من هذه المقطوعة في مجلة العربي الجديد، وعلى مدونتي الإلكترونية، فتح كوبا في ٢٠٠٧ امتد لقرابة الشهرين، وقتها كان فيديل كاسترو لا يزال في الحكم، والحصار الاقتصادي في ذروته، وصدرت قرارات من الولايات المتحدة بتضييق الخناق. واليوم في ٢٠١٧ بعد زيارة أوباما لكوبا وفتح تأشيرات السياحة للولايات المتحدة هناك ثورة سياحية في الجزيرة، أتوقع أن تزداد الأسعار ويزداد الانفتاح.

مالك، لتقصر رحلتك. عليّ أن أتعرف على أحد يستضيفني لأستكشف كوبا من الداخل.

تحركتُ بسرعة. وجدت صالة بلياردو في سرداب مملوءة بالشباب الهارب من المدرسة. يلعبون بطريق المراهنات، الخاسر يدفع. جلست في زاوية أراقبهم بعين نسر، عرّفتهم بنفسي وتعرفت عليهم، ظنوا أنني محترف وخافوا أن يلعبوا معي. أخبرتهم بأني مقيم في فندق لليلة واحدة، وبعدها على أن أجد سكناً. تقاتلوا عليّ، كلٌ يريد أن يستضيفني في منزله. أي كرم هذا. حذرتهم بأني سأظل هنا لأسابيع طويلة، ازداد قتالهم عليّ. فرحت بهذا البلد السهل الذي سأقتحمه بكل سهولة. بدأت أتدلل وأضع شروطي، أختار المنطقة، حجم العائلة، الأطفال، لا حيوانات.. وهنا سألتني فتاة:

- كم تدفع للسكن؟

- لدي بعض الهدايا من الكويت، وسأوزعها على أهل البيت.

خنسوا جميعاً. تلاشت حاتميتهم. حدّقتُ في عُيونهم، أطرقوا إلى الأرض. الفتاة حاولت أن تكون لبقة في شرحها:

- هل تعرف كازا بارتيكلارس؟ Casa Particulares

- لا.

- نحن هنا في بلدٍ لا يُسمح لنا فيه بالعمل التجاري، لذا فإننا نقدم خدمات متنوعة في الخفاء! ومنها السكن. نوفر لك سكناً في أحد منازلنا، لكن يجب أن تساعدنا وتدفع.

أدركتُ بأنني في بلد مختلف. خبرتي ليست كافية. لكن «إذا لم يكن إلا الأسنّة مركباً...».

***

بدت لي عائلة «جارسيا» هادئة. الأب من أصول أسبانية؛ سمين، أحمر الخدين، أبيض الشعر وناعم، له حنجرة غليظة. الأم من أصول رومانية؛ قصيرة، سوداء العين، شقراء قصيرة الشعر. عندهم ابنتان. الكبرى متزوجة. والصغرى دون الثانية عشر، سمينة، تشبه أمها وأبيها في آن واحد. ينادونها «نونيتا».

عرضا عليّ غرفتي نوم لا فرق بينهما - من وجهة نظري - لكن سعرهما مختلف. الأولى كانت بـ ٣٠ ديناراً (٣٦٠ ر.س.) في الأسبوع، والثانية بـ ٣٥ ديناراً (٤٢٥ ر.س.) في الأسبوع. كلاهما تشمل الوجبات الثلاث وغسيل الملابس. سألت عن الفرق بينهما؟ فقالت الأم:

- ألم تلاحظ الفرق بنفسك؟

لا لم ألحظ فرقاً.

هنا تدخل السينيور جارسيا بتعالٍ مضحك، وهو يقول لزوجته:

- يبدو أن هذا الشاب يأتي من بلد متخلف تقنياً، لا يعرفون هذه الاختراعات.

شعرت بأن هناك تطوراً لم ألحظه، فسألت على استحياء:

- وما هو الفرق بين الغرفتين؟

فأشارا إلى مروحةٍ عجوزٍ في طرف الغرفة، قائلين:

- الرطوبة في هافانا عالية. نستخدم "المراوح" في الغرفة. ولا أدري إذا كنتم تستخدمون مثلها في بلادكم! لكن إذا حجزت الغرفة بالمروحة، سأعلمك كيف تستخدمها؟

قررت أن أدلل نفسي وأستمتع بتكنولوجيا المروحة.

***

كيف يمكن أن يرجع بي الزمن إلى الستينيات دفعةً واحدة؟

السفر في حقيقته آلة زمن، تنتقل فيه من زمن لآخر قبل أن تنتقل فيه من جغرافيا إلى أخرى. حينما أقرأ وجه أي مدينة للمرة الأولى، فإنني أحاول أن أحدد في أي زمن أعيش. وفي هافانا سيكون شعورك حتماً أنك تعيش في الستينيات. كأن البلد أعجبتها حقبة الستينيات، فتوقفت عن النمو رافضةً الانتقال إلى الحقبة التي تليها. كل شيء هنا يوحي بالستينيات: السيارات، البيوت، الأكل، الوجوه، قصات الشعور، التكنولوجيا، ورائحة البشر. شكراً للولايات المتحدة على الحصار الاقتصادي، ذلك الحصار الذي جعل المدينة تتعتق وتحتفظ برائحتها وجلدها. وددت لو أن أمريكا تفرض حصارات على كل العالم، لنحافظ على أنفسنا.

حينما تنظر إلى كوبا في الخريطة من بعيد، ستبدو لك كـ«نمشٍ» متناثر على وجه المحيط. أرجع البصر كرتين، ستبدو لك كبندقية قديمة مغروسة في خاصرة أمريكا. وهي كذلك فعلاً، فمنذ دخولها في نزاع مع أمريكا اتخذت هذه الدولة قرارين كبيرين تحدت فيها أمريكا بشكل صارخ: منعت تصدير السكر إلى أمريكا، مما أدى إلى أزمة سكر في أمريكا. الثاني سماحها لروسيا بأن تضع رؤوساً نووية في الجزيرة موجهة إلى أمريكا! لتعلن عليها الولايات المتحدة حصاراً اقتصادياً عمره خمسون سنة.

***

في الطريق إلى هافانا القديمة ركبت باصاً صغيراً. دفعت مبلغاً زهيداً، لم ينتبه أحدٌ لهذا السائح. لكن في طريق العودة، ركبت التاكسي، والذي كشف لهجتي من الترحيبة الأولى. دفعت له المبلغ المتفق عليه بالدولار الكوبي. ضحك وطلب مني أن

أدفع له بعملة «الكوك». «الكوك» هو الدولار السياحي. السائح يدفع بالدولار السياحي. قيمة الدولار السياحي «الكوك» هي أربعة أضعاف الدولار الكوبي. السائح يدفع أربعة أضعاف المواطن.

بإمكانك أن تتذاكى مثلي في بعض المواقف وتتصرف كأنك كوبي. لكن لهجتهم صعبة وفاضحة. تبلع فيها الكثير من الحروف (وعلى رأسها حرف السين) ويمط فيها الكلام فيها بطريقة تشبه مط أهل البحرين والإحساء إلا قليلاً. حتى إن لبست وتصرفت كشابٍ كوبي، فإنك مكشوف لا محالة!

***

هافانا القديمة وصفة سريّة: بناءٌ كولوني. إيقاعات إفريقية لا يقاومها الخصر. روائح بحر كاريبية. نفوس ثائرة متفجرة. ألسنة سليطة كثيرة الضحك. وجوهٌ ملونة أوروبية وإفريقية. لا تحتاج أن تقدم لنفسك، فقط اشرع في الحديث، وسيردون عليك كأصدقاء طفولة. هل هي خلطة خاصة، أم أنّ الناس في الستينيات كانوا كذلك! لا أدري.

هافانا القديمة، لا شيء يشبهها. قديسةٌ تَلَبّسها شيطان. صلبان ترتفع على المباني وتتدلى من الرقاب، تقابلها موسيقى راقصة الإيقاع تعم الأرجاء. على الشرفة فتاة سوداء بدينة، عصبت رأسها وهي تراقص مكنستها الخشبية على وقع سالسا كوبية. ترد على نظراتك بابتسامة إغواء. تشير لها إلى الصليب الكبير المنتصب في السماء. فتضحك بشقاوة، ترفع الصليب المتدلي على رقبتها تُقَبِّله معتذرةً للمسيح. كيف يمكن للقديسة والإبليسة أن يتلبّسا جسداً واحداً؟

قرأت مقالاً عن كوبا، يثني صاحبه على قوة الحكومة الكوبية في ضبط هذا

الشعب الثائر بطبعه، وقدرتهم على نشر الاشتراكية والكاثوليكية بقوة بين أفراده، إلا فيما يخص الجنس! فقد دأبت الحكومة على محاربة العلاقات الجنسية وبيع الأجساد، إلا أنها لم تنجح!

***

تطورت العلاقة مع الأم باتريسيا كثيراً بسبب القهوة، تطحنها في المنزل. تطبخها في آنية حديدية ثقيلة القوام. وتقدمها في فناجين صغيرة تشبة الفناجين التركية. يخرج زوجها وابنتها كل نهار. تنطفئ الكهرباء. وتتوقف مروحتي. تتسرب الرطوبة إلى الغرفة. تبدأ باتريسيا في صنع قهوتها. توقظني الرطوبة والرائحة. أذهب إلى شرفة المنزل المطلة على الشارع لنشرب قهوتنا. القهوة التي أسميها «قهوة الكذب». نكذب بشكل مكشوف وممتع. يبدأ الحوار معي كل يوم بنفس السؤال:

- لماذا لا تدخن؟

صرت كل يوم أخترع إجابة جديدة. وذاتَ مرةٍ قلت لها:

- أحببت فتاة ماتت بسبب الدخان، فأقلعتُ.

فحزنت للكذبة (التي كانت تعلم أنها كذبة)، وتنهدت في تأثر:

- الكل يقف في طريق الحب، حتى السيجارة!

***

في نهاية الأسبوع الأول، وصلت ستيفاني، شقراء هولندية في التاسعة عشرة من عمرها إلى السكن في المنزل. في غرفة «اللامروحة». خلال أسفاري أقت لدى العوائل بوجود أجانب آخرين معي. وتكوّنت لدي الخبرة الكافية للتعامل معهم.

بالنسبة للفتيات الأوروبيات الصغيرات، فهنّ يبحثن عن شابٍ راقٍ ويجيد لغة أهل البلد. يستغلونه كـ«محرم» مؤقت. يمطرنه - بكل أدب - بطلباتهن وحاجاتهن: الدكان في وقت متأخر، مرافقتهن إلى مكان فقير، زيارة مدن بعيدة. اتخذت سياسة التحفظ معهن، أعاملهن بأدبٍ ولا أعرض عليهنّ المساعدات. وأبين بأن لدي طقوسي الخاصة ودائرة أصدقائي المحليين. فلا يستخدمنَ ضَعْفَهُنّ في تحويلي إلى مندوب/سائق/محرم مؤقت.

في اليوم التالي لوصولها، جلسنا في الشرفة نحتسي قهوة الكذب. جاءت ستيفاني، وعلى وجهها آيات التعب. اشتكت الرطوبة. لم تعرف جواً حاراً ورطباً. نظرت إلي باتريسيا بِتَعَتّب، كان عليّ أن أعرض عليها غرفتي أو مروحتي. النساء يدعّين أن سفرهن صعب وشاق، إلا أنهن يحصلن على ما يردن بحجة ضعفهن! قلت للهولندية بكل هدوء:

من الليلة ستكون لديك مروحة.

آه، شكراً كريم. هذا لطف منك. كيف ستنام من غير مروحة؟

- ومن قال أني سأنام من غير مروحة. سنعطيك مروحة السينيور والسينيورة جاريسيا.

نظرت إلي باتريسيا بحقد. ارتشفت رشفتي الأخيرة وغادرت بصمت.

***

كنت تعرفت على شخصيات كوبية مختلفة: مهندس اتصالات يعمل في تركيب شبكة الانترنت، شاب يعمل في إدارة تربية الكلاب الضالة، ثلاث طلبة جامعيين يدرسون الأدب اللاتيني، مهندس زراعي، عجوز متقاعدة. ذهبت إلى كشك التلفونات،

اتصلت عليهم واحداً تلو الآخر أسألهم عن مروحة. ومشكلة المراوح - مثل باقي المنتجات - في كوبا، يوجد نوع واحد، ومصنع واحد تملكه الدولة. تعرض المصنع لمشكلة أوقفت الإنتاج مؤقتاً. لا مراوح في البلد. السينيور جاريسيا، يعاني من السمنة المفرطة وينام شبه عارٍ والمروحة موجهةٌ إلى بطنه. لذلك كان علي أن أجد مروحة. قال لي أحد الطلبة بأن لديهم مروحة عطلانة منذ زمن، عرضها مقابل نصف دولار. كانت شيئاً هرماً يشبه المروحة. أخذتها لمهندس الاتصالات. عجز عن إصلاحها، طالبا مبلغاً من المال نظير محاولته الفاشلة! أخذتها للمهندس الزراعي الذي أحالني إلى صديق آخر، لكنه لم يفلح في إصلاحها!

مررت على العجوز المتقاعدة. تجلس كل صباح على كرسي هزاز في شرفتها، لتترك الحياة تسير من أمامها. الشرفة في حقيقتها سينما خماسية الأبعاد. تشاهد فيلم الحياة فيها بدون مخرج ولا مقصات الرقيب ولا خدع المنتجين. حينما رأت المروحة في يدي فرحت. هذه أول نوع مراوح صنع في كوبا، يثير ذكريات كبار السن. يذكرهم ببدايات العمل والإنتاج. شكوت لها الحال. صرخت على رجل مسنٍ يجلس على قارعة الطريق. صعد إليها. نظر إلى المروحة بافتتان وغزل. أخذها غاب لربع ساعة. وجاء بها أمامي، وضعها على الكهرباء واشتغلت!

رقصنا ثلاثتنا فرحاً، يااااه هل يمكن أن تصنع مروحة كل هذه السعادة!

وسط الفرحة الغامرة، لم تنسَ العجوز ولا المسن أن يطلبا مني مالاً.

***

خدمة «المروحة» حولتني إلى فارس شهم من فرسان الفايكنغ بنظر الهولندية. لم تكف عن تقديم مقترحات لبرامج أو أنشطة داخل وخارج المدينة، بصحبة بعض

الهولنديين (طلبة أو رحالة). أتحججُ بالانشغال، ثم تفضحني باتريسيا في اليوم الثاني؛ قضى يومه متسكعاً في الجامعة أو في هافانا القديمة، وباقي اليوم قارئاً على الشرفة. وهو ما زاد الهولندية تصميماً على التقرب مني.

عزمت زيارة قرية خارج هافانا اسمها كابانياس Cabanas. رتبت أموري للخروج باكراً. لم تكن لدي خطة واضحة. فقد أبات في القرية عدة أيام أو قد أعود في نفس اليوم، كل ذلك يعتمد على ما كتب ليّ في اللوح المحفوظ من أحداث ووجوه أقابلها. في الصباح، وجَدْتُ ستيفاني - المسكينة - أعدت شنطتها وجلست في الصالون، هللت لقدومي:

- صباح الخير، لم أعرف ماذا أحضر معي بالضبط، لأنك كنت نائماً عندما أخبرتني باتريسيا بأنني سأرافقك إلى كابانياس!

حاولت إبعادها:

لا أعرف إن كنت ذاهباً إلى كابانياس أم غيرها. سأستقل الباص غرباً، ولا أدري ما هو المكان الذي سأنزل فيه! قد تعجبني قرية أخرى أو أتعرف على أحد في الطريق، قد لا يعجبني شيء وأعود.. ليس لدي مخططات.

ألن نعود قبل نهار الأثنين؟

لا أعلم!

ظننت أني أقنعتها بالعدول، لكني تفاجأت بها تحمل شنطتها وتضع نظارتها السوداء الدائرية وهي تقول بابتسامة عريضة وبلهجة بريطانية ملكية ثقيلة القوام:

You are making it even more fun! أنت تجعل الأمر أكثر متعةً!

بقي القليلُ على موعد الباص، يجب أن نركض لكي نصل هناك.

حملنا شنطنا على ظهورنا وانطلقنا راكضين، وأنا أردد بيني وبين نفسي «إنك لن تستطيع معيَ صبراً».

هذا ما كان ينقصني! مراهقة أوروبية تحلم باكتشاف العالم على كتفي!

***

وصلنا إلى المحطة لاهثين، اشتريتُ تذكرتين. تأخيرٌ - كالعادة - على موعد المغادرة. تجولنا حول المحطة لنصف ساعة. سألتني ستيفاني:

لماذا تسافر؟

الناس.. البشر هم أكبر معجزة على وجه الأرض. أتلمس تجاعيدهم، أخشع في أفكارهم الساذجة، أسمع حكاياهم المكررة. الناس يلهمونني، يدفعونني للتفكير والكتابة.

إنها الرحلة الثانية لي دون والديّ. الأولى كانت منذ سنتين في مخيم صيفي، كنت محاطة بزملائي. هذه المرة الأولى التي أسافر وحيدة.

ولماذا كوبا؟

- تربيت في حضن عائلة أرستقراطية، جدي كان كاهناً بروتستانتياً كبيرًا. والدتي متحررة من الدين تماماً، ولا تؤمن بالمسيح. كنت أجد إجاباتها مختلفة جداً عن إجابات جدي، أمي كانت أكثر إقناعاً لكنها أقل سعادة من جدي. ما أوقعني في حيرة كبيرة في الحياة. وهذه بالنسبة لي Gap Year، وقد قرأت مذكرات جيفارا، وكتاباً عن حياة كاسترو، وأريد أن أعرف الفرق بين مجتمعاتنا المدنية المعقدة، وهذه المجتمعات الثورية المتحررة.

لم أفهم ما تبحثين عنه تحديداً، هل تبحثين عن الله أم الاقتصاد؟

- لا، أنا أبحث عن ستيفاني، ستيفاني فقط[٦٦].

رأيت طفلاً يطل من نافذة في الدور الأرضي. ذهبتُ لملاطفة الطفل، ارتابت أمه مني. تدخلت ستيفاني. ابتسمت للأم بعذوبة. اطمأنت الأم لرؤية أنثى، دعتنا للدخول. كم هو مريح سفر الصبايا!

***

الطريق أزرقٌ عن يمينك أخضرٌ عن شمالك. سهول عشبية نُصِبَتْ فيها رايات النخيل. موج وخلجان صخرية صغيرة. وصل الباص إلى كابانياس. بينما نتأهب للنزول، لاحظت أن خمسة سياح كنديين يستعدون للنزول، فقلت لستيفاني آمراً:

اجلسي، لن ننزل هنا.

- لكنها كابانياس.

- غيّرت رأيي لن ننزل في كابانياس!

إذا أين سننزل؟

لا أدري، لكن حتماً ليس هنا.

نظرت إليّ شرزاً. الأوروبيات لا يحببن الرجل المسيطر. لا يهم، لن أنزل في مكانٍ فيه سياح. قلت مستفزاً:

---

٦٦. في المجتمعات الغربية يحبون تعقيد البسيط. يتحدثون بأسىً عن محاولة اكتشاف ذاتهم. وبالتعمق في الحوار معهم يتبين لي بأنهم يرددون كلاماً سمعوه من الآخرين دون أن تكون لديهم أسئلة محددة يبحثون عنها! بينما في المجتمعات الفقيرة لا أجد عندهم التيه وفكرة البحث عن الذات ولا يرددون هذا المصطلح. هل هذا البحث عن الذات موضة أم نتيجة الترف المادي؟ اليوم بدأ بعض العرب بطرح مثل هذا المفهوم «البحث عن الذات» في الحياة الجديدة، ولا أعلم إن كانوا جادين أم أنه مجرد «جحر ضب». إن كان جحر ضب، فسيكررون تجربة الغربيين بالاتجاه إلى معابد البوذا الهندية والصينية للبحث عن ذواتهم، مستغنين باليوغا عن الصلاة.

- نزل هنا مجموعة من الشقر أمامنا، وأنا أصاب بالحكة من الشقر.. ألا يكفيني أني بصحبة شقراء في بلاد سمراء!

ازدردت غضبها. ثم قالت بجدية:

- أنا أعرف أنك لا ترغب بوجودي. فأنت هنا من أجل الناس، وأنا أعرقلك.

- لم أقل شيئاً من ذلك، فلماذا... ؟

لا تحتاج أن تشرح، أنا أتفهم موقفك تماماً، لو كنت تريد أن تتعرف على هولنديين لذهبت إلى هولندا. راقبتك خلال الأيام القليلة في المنزل. لا تسهر ولا تخرج ليلاً. تقضي يومك في الأزقة مع الناس. حدثتني باتريسيا عنك. لن أكون ثقيلة عليك. أريد أن أفعل ما تفعله أنت. لكنني فتاةٌ صغيرة في بلد أجهله ولا أعرف لغته. وأنت مركبي الوحيد لأخوض غماره.

أعجبتني لباقتك، وقدرتك على الفهم. من الآن تصافينا، لن أعتبرك حملاً.

***

كان الركاب - ببركات ستيفاني - يسألوننا عن وجهتنا وبلادنا، الأسئلة توجه بوضوح وصفاقةٍ إليها، لكنهم مضطرون للاستعانة بي لأتولى الترجمة. لعبنا معهم لعبة الاختراعات، كلما سألها شخص عليها أن تخترع شخصية جديدة: اسماً وبلداً ووظيفة وشخصية، وأحياناً أساهم أنا في رسم هذه الشخصية الجديدة. جاءنا شاب صغير ادعينا بأننا علماء آثار نبحث عن الديناصورات في المنطقة. فرحَ الشاب لأن عالم آثار يجلس بجانبه. حينما ناداه وجاء إلينا، كنا غارقين في النوم. انطلت الحيلة عليه. توقف الباص في منطقة اسمها Cayo، وبعدها ينقطع الطريق ويكون التنقل بالحمير والخيول. لحظة وصولي أدركت لماذا لم أحب هافانا. هنا القرية والبحر شيء واحد

بينما هافانا - مثل بيروت - مدينة مطلة على البحر، ويفصل بينها وبين البحر شارع وممشى. الناس في هافانا/بيروت لا تندمج مع البحر. وإن استمتعت بمشاهدته. تمضي عليهم أشهر دون أن يتذوقوا ملوحته. أما هنا، فلا فرق بين الأصداف والبيوت؛ يعومون، ينظفون، يغتسلون ويمرحون في البحر. تماماً كما هو الفرق بين الكويت القديمة والحديثة؛ عاش أجدادنا «من» البحر، بينما نعيش نحن «على» البحر. البحرُ هو؛ الطعام والنظافة والتجارة والسفر واللؤلؤ، أما اليوم فهو مجرد إطلالة ترفع من إيجار الشرفات الإسمنتية المطلة عليه.

وأهل البحر الحقيقيون مملحون. أجسادهم كستنائية رشيقة برتها الشمس. يبتسمون وتجاعيد الشمس قسّمت وجوههم. صحتهم صلبة بفضل زيوت الأسماك. ملابسهم عارية أو فضفاضة تأذن للعليل بالتسرب في كل وقت. متحدون ضد البحر بطبيعتهم، لذا يعرفون بعضهم جيداً وإن اختلف مشربهم.

قلب القرية، كأي قرية لاتينية بناها الأسبان، تتوسطها ساحة وكنيسة. كنيسة صغيرة، بيضاء بخطوط زرقاء، متماهية مع البحر، استبدلت راهباتها بحوريات البحر. كنت جائعاً (وأنا شرهٌ بطبعي)، والأكل عامةً في كوبا سيئ، وخياراته محدودة. وجدنا مطعماً رديئاً يبيع عجينة تشبه البيتزا وإمباناداز (سمبوسك لاتينية). وقفنا أمام محل سمك، لديهم كائنات بحرية تدخل ضمن فئة الأخطبوطات الصغيرة والكالاماري، اشترينا منها الكثير، كانت رخيصة وكنا ندفع بالدولار الكوبي وليس الكوك السياحي. سنشويها بأنفسنا على البحر. الزقاق الذي يقودك إلى البحر، بيوته لها أبواب خشبية ضخمة ومفتوحة. يمكن للمار أن يشاهد كبار السن الجالسين في الصالون. كنا نلقي التحية على كل بيت، لحق بنا ولدٌ نحاسي البشرة، لا ندري من أين جاء، سألنا ماذا نفعل. أجبناه عن رغبتنا في الشواء. عينهُ معلقةٌ على ستيفاني (عالمة آثار الديناصورات). سحب كيس السمك من يدها، وأدخلنا منزلهم، أحد المنازل التي حيناها. عجوز في

الثمانين شعرها أبيض قصير على كرسي هزاز، امرأة ثلاثينية شعرها كستنائي وسمينة تجلس على الأريكة تحيك شيئاً. يسكن معهما الغلام النحاسي وفتاتان صغيرتان دون الثانية عشرة. أعطى كيس السمك للصغيرات. أمرهن بشيء لم أفهمه. أشار الغلام إلى ستيفاني مخاطباً جدتهُ وأمهُ بحركة مسرحية:

- هذه هي المغنية «مادونا»!

ابتسمت الأم بخفوت، ورحبت بنا. نظرت إلى ستيفاني أحدثها بإنجليزية سريعة:

- يبدو أننا سندفع قيمة الغداء هنا.

لا عليك سأتدبر أمر هذا المغروم الصغير، وستحصل على معاملة خاصة.

- حسناً يا مادونا.

التفتت ستيفاني للغلام، وغنّت:

Time goes by so slowly for those who wait

No time to hesitate

Those who run seem to have all the fun

I'm caught up

I don't know what to do

(أغنية شهيرة لمادونا في ٢٠٠٥)

صوتها عادي. لكن أداءها جيد. تهز رأسها وشقرتها بطريقة تجعلك تصدق أنك في حضرة «مادونا»، والعياذ بالله. انتشى الشاب طرباً، أخذ يغني الكلمات بالإنجليزية ويرقص طرباً. جاءت الأخت الصغرى، وضعت كاسيتاً في مسجل أسود مهترئ. أعادت الشريط إلى الوراء، لتبدأ أغنية مادونا. وتتحول الصالة إلى مرقص. جاءت الأخت الثانية من المطبخ، وسحبت جدتها الثمانينية من كرسيها الهزاز واشتعل المكان

بفضل مادونا!

***

البيتُ صغير. بابان خشبيان مقوسان، ينفرجان عن صالون مقوس ممتد يأكل أكثر مساحة البيت. أطقم خشبية معتقة، كنبات خشبية عمرها لا يقل عن الخمسين سنة. الصالون مدعم بثلاثة أقواس خشبية ضخمة ولامعة، الأخشاب هنا لها رائحة نفاذة. لسببٍ أجهله، أحب البيوت المقوسة.

الجدة طيبة. لا تملك إلا أن تعانقها، فرحت بعروبتي. فهي أندلسية من أصول عربية عاشت في سرقسطة، وتتمنى الحج إلى القدس. الأم أحبتني أكثر، وهي تسألني عن الأكل العربي. وَجَدَتْ ستيفاني طريقها مع الفتيات والغلام النحاسي «روميرو». قامت الأم للطبخ، الغداء كان رزاً ومرق لحم. أخبرتنا الأم بأنها ستؤجل السمك للعشاء، ما يعني أننا - على الأرجح - مدعوون للمبيت عندهم.

أخذنا روميرو وأخواته لجولة تعارفٍ في القرية. بيوت القرية كلها مفتوحة الأبواب، بإمكانك أن تدخل أي بيت دون قرع الجرس! (الغريب أن ترجع إلى وطنك لتجد أصدقاءك يقسمون بأن بلادنا هي آمن بلاد العالم). كل الأزقة هنا تقودك إلى شيء واحد: البحر، وهو ما يذكرني بالكويت القديمة، كانت كل شوارعها تقودك إلى محور الحياة، إلى البحر. صعقني جمال البحر الارتكوازي الصافي، لم أفق إلا على صراخ ستيفاني راكضة بثيابها إلى البحر، صراخ أشبه بجسد ينتحر من ناطحة سحاب. كانت تهيل الماء الدافئ على جسدها وهي تصرخ:

- كريم .. هنا عدن! هنا عدن!

روميرو وجدها فرصة سانحة ليسبح برفقة مادونا فركض نازعاً قميصه راكضاً للماء،

ركضت الفتاتان خلفه بمرح هستيري وأصبحوا جميعاً في الماء. أخذت أتأمل المكان، تكون محظوظاً حينما تلتقي بالجمال المحتجب، الجمال يزدان بالندرة، حينما يتاح يرخص ويخفّ سحره، مثل هذا الشاطئ في عين روميرو. لو كان هذا الشاطئ في بلد سياحي، لوجدته مكتظاً بالسياح حتى يفسد. البحر في كايو، آية زرقاء ارتكوازية، لا تحتاج فيها إلى نظارة سباحة لتشاهد سكان البحر. الألوان تتمشى تحت قدميك بزهو. أسماكٌ بألوان الزيبرا والنمر ورشاقة الثعابين، سفاري[٦٧] مائي تحت قدميك. الصدف والمرجان يتكوم ببذخ على الشواطئ في تلال صغيرة.

سألتنا الفتاتان إن كنا نحب السلطعون (القبقب/السرطان)، وهنّ يحركن أيديهن ويمشين كالسلطعون، ضحكنا دون أن نفهم مغزى السؤال. ركضتا إلى تلة صخرية قريبة. رجعتا وبيد كل واحدة منهن سلطعون ضخم يركل الهواء.

***

مائدة العشاء عامرة بالأسماك المشوية والسلطعونات. توفي زوج الأم من شهرين في حادث سيارة. كان خبير تربةٍ، يشرف على حقول الدولة للتبغ. الأم تخيط نوعاً من القبعات الشهيرة[٦٨]. الجدة جاءت من هافانا مع زوجها إلى هذه المنطقة حيث اشتريا أراضي كبيرة لزراعة التبغ. لكن الدولة أممتها بعد الثورة الكوبية، مما أدى إلى وفاة الجد بسكتة قلبية.

الحوار مع الأم والجدة أعطاني مسحاً جغرافياً عن المنطقة. الشمال عبارة عن شاطئ

---

٦٧. حين زرت الصومال وشواطئ كينيا حيث يتحدثون بالسواحيلية، تبين لي بأن كلمة «سفاري» السواحيلية مشتقة من كلمة باللغة العربية.

٦٨. هناك قبعات قش للمزارعين، وهناك قبعات قش بحرية، القبعات البحرية يطلق عليها في أمريكا اللاتينية «قبعات بنما» وتعد الأصلية منها في بوليفيا.

بحري وخلجان صغيرة، تستخدم للصيد. يأتيها الغواصون المحترفون. يمكن الوصول إليها بطريق رملي أو على ظهر الخيول. أما جنوب المدينة، فهي مزارع التبغ، وبعض التلال الخضراء والجبال والأنهار. مع وجود بعض الكهوف النهرية التي تستطيع دخولها بمراكب صغيرة. هناك قرى سياحية في المنطقة اعتاد أهلها على تأجير بيوتهم والطبخ للأجانب، ويزورها السياح باستمرار. كان الأمر مغرياً بالنسبة لي. لكن كيف يمكن التنقل في ظل عدم وجود مواصلات. سألت الأم:

- وكيف تزورين هذه الأماكن؟

تذكرت زوجها فأطرقت حزناً:

كان يأخذنا دائماً بسيارته على الطريق الرملي. رحلات عائلية سعيدة. نذهب في الصباح الباكر، ونعود قبل الظلام.

التفتت الأم إلى روميرو:

- أحببت هؤلاء الناس. أريدك أن تُخرج جوليانا غداً. آمل أن لا تكون مريضة. على خوسيه أن يفحصها. كريم يقودها، لا تبتعدوا كثيراً وعودوا قبل المساء. اهتموا بجوليانا، كان المرحوم يعشقها.

تهللت أسارير روميرو فرحاً. هززت رأسي شاكراً، من الواضح أن جوليانا هي حصان يجر عربة صغيرة تكفي لأربعة أشخاص. وسيلة التنقل الأساسية في القرى الكوبية. شرحت لستيفاني الفكرة، ذهبت للنوم في غرفة الأولاد. نمت في الصالون حالماً بجوليانا.

***

مع بزوغ خيوط الشمس الأولى، انطلقنا جميعاً برفقة خوسيه. إلى ساحة صغيرة خلف الزقاق، توقعت رؤية حصانٍ بنيٍ، يجرّ عربة خشبية زرقاء. لكننا توقفنا أمام

العظمة كلها، سيارة شيفروليه أمريكية زرقاء صنع الخمسينيات. ضخمة حديدية الهيكل. منتفخة الأوداج: جوليانا!

وقف خوسيه ماسكاً بفوطة قذرة، يعرفنا على جوليانا:

حينما قرر جد الأطفال أن ينتقل من هافانا. اشترى جوليانا، كان موفقاً في اختياره، لإنها قوية كالجمل. انتقلت إلى الابن وغداً تنتقل إلى روميرو وتعيش معه مئة عام.

أنا وستيفاني محاطان بضبابِ الدهشة. حقاً سنركب هذه القطعة الكلاسيكية! أي كرامةٍ سماويةٍ تتنزل علينا. لمست السيارة العجوز، كانت مطلية بطلاء جدران أزرق. تتحسس تجاعيده. عيونها واسعة. كل ما فيها قوي وكبير وكريم، كما كان البشر في الستينات. منذ وفاة المرحوم لم يلمس أحدٌ السيارة، آسف أقصد «جوليانا». وأنا الآن أول من يعبث معها. روميرو كان يعرف عن الميكانيكا والسيارات أكثر مني بمراحل. اعتادوا في كوبا على صيانة سيارتهم بأنفسهم. لأن أمريكا - بعد الحصار الاقتصادي - رفضت تزويدهم بقطع الغيار، ومنعت دخول السيارات الجديدة، لم يجدوا بداً من اختراع وتأليف قطعٍ بديلة. ألقيت نظرة على الماكينة، شرح لي خوسيه فسيفساء القطع: البطارية صينية، الدينمو روسي، ناقل الحركة مصنع محلياً.. ومع ذلك فإن السيارات تمشي وتؤدي الغرض منها.

لحظة الجلوس الأولى مدهشة، الكرسي أريكة كبيرة ووثيرة. المقودُ جلدي تفوح منه رائحة حيوانية. ديكور السيارة الداخلي خشبيٌ مصبوغٌ بلون أحمر فاقع. العدادات كبيرة، والنافذة شرفةٌ ضخمة تجلب الشارع إلى حضنك. ستيفاني تقفز بجنون وتطلب منهم إيشارباً/منديلاً تضعه على رأسها لتعيش أجواء السيتنيات. عرض عليها خوسيه فوطته القذرة! ركبوا جميعاً، السيارة واسعة بشكل فارهٍ ومترف. لففت ساحة المدينة. أقود متبختراً كطاووس. لا أحد ينظر إلينا، فهم معتادون على هذا المشهد كل يوم.

خرجنا من المدينة متجهين غرباً، ستيفاني والأطفال يغنون أغاني مادونا، وروميرو أسعد صبيٍ في الدنيا.

***

طريق رملي صغير. يكفي سيارة واحدة. على اليمين شاطئ لا يبعد عنك أكثر من مترين، وعلى يسارك مناظر مختلفة: أراضي خضراء يتخللها جوز الهند، بيوت خشبية ملونة، مزارع تبغ، تلال مكومة. اعترضنا بحرٌ، يقطعه طريقٌ رملي في منتصفه. قطعناه - كوسى وبني إسرائيل - البحر عن يميننا ويسارنا، نقودُ سيارة ستينية.

توقفنا عند كوخ مطل على البحر. مطعم عائلي. أمامهُ شاطئ غريب التكوين. البحر هنا قرر أن يستعمر جزءاً من غابة خضراء، والتي جفت فأصبحت جذوعاً وأغصاناً عارية في وسط الماء. وجدنا أنفسنا في غابة أخشاب في وسط الماء الأزرق الفاتح.

في المطعم نفسه، طلبنا منهم ملء الخزان بالوقود، أحضروا خزاناً صغيراً، أخذه روميرو وملأ السيارة بالوقود.

***

توقفنا عند صياد سمك، أخذنا بجولة في قاربه. نرى الكائنات البحرية بوضوح. نجم البحر متوفرٌ ببذخ لم أشهده في حياتي.

مررنا بحقل تبغ. فيه رجل كبير السن، يرتدي قبعة قشٍ، ويمضغ شيئاً ما في فمه. منهمكٌ في إصلاح أرضه، صرخت الفتيات الصغيرات:

كواخيرو .. كواخيرو.

سلمنا عليه من بعيد فأشار لنا بالتوقف. نزلنا وتعرفنا عليه، دعانا للغداء عنده. كان يعيش في كوخ صغير. تكوّم أطفاله داخله كالأرانب. شيء يذكرك ببيوت "غزة"، تصغر مساحتها ويكثر أطفالها. أهل الزراعة وأهل الجهاد بحاجة إلى المزيد من الأطفال. إما لوضع بذورهم في الأرض أو لإرسال شهدائهم إلى السماء.

تشتهر الأرضُ بزراعة التبغ. يسمى المزارع بـ«كواخيرو»[٦٩]. أشبه بأهل الصعيد في مصر، كرماً وزراعة وطيبة.. وسذاجة أحياناً. لذا لا يتورع أهل هافانا من إطلاق النكت على الكواخيرو دائماً وأبداً. فرح أهل البيت بوجودنا. أكرمونا بالقهوة، لم تكن لذيذة مثل قهوة باتريسيا، لكنها كانت جيدة. طلب الكواخيرو من اثنين من أولاده إحضار الغداء من الخارج. تجولنا مع الكواخيرو في الأرض، شرح لنا طريقة زراعة التبغ وتجفيفه ولفه. مسألةٌ معقدة، السيجار الواحد يتطلب أكثر من ٨٠ يوماً من العمل. مرت ساعة وقلقنا على موضوع الغداء. حاولت الاعتذار، لكن أصر على بقائنا للغداء. طلب من زوجته أن تقدم لنا شيئاً. أحضرت لنا ذرةً من الحقل، قال:

أينما وجدتم التبغ ستجدون الذرة، لأننا نزرع الذرة مكان التبغ من وقت لآخر كي لا تفسد التربة، التبغ يفسد التربة والذرة تصلحها.

الذرة جافة مُشبعة. نريد أن نرجع قبل أن يحل الظلام، والكواخيرو مصمم على استضافتنا. بعد قليل أطل الولدان وهما يحملان قطعة قماشٍ في داخلها أسماكٌ مختلفة، اعتذرا لأنهما لم يجدا الصيادين في المرسى. فذهبا إلى بيوت الصيادين وأحضرا السمك! استغرق الأمر ساعة أخرى للشواء. نحن في حرجٍ من كرمهم وفي خوف

---

٦٩. مصطلح كواخيروا يستخدم في كوبا فقط دون أمريكا اللاتينية. والكلمة مشتقة من لغة قديمة يتحدثها السكان قبل الاستعمار الإسباني.

من فوات الوقت. لم يكن الحديث معهم سهلاً، فهم جميعاً غير متعلمين، ولا يعرفون أكثر من حدود قريتهم وما حولها، الأب سبق له وأن زار هافانا مرتين في حياته، وهو مذهولٌ من تقدمها وتطورها وزحامها! ويفكر في إرسال اثنان من أبنائه للتعلم فيها.

أصر أن يقدم لنا سيجاراً، لم يكن ملفوفاً بإتقان. ليّن القوام. رائحته نفاذة. فرحت ستيفاني بالسيجار، وأنا محرج. بالرغم من كل جنوني في الحياة لم يسبق لي أن دخّنت سيجارة، فكيف أبدأ خطيئتي الأولى بسيجار كوبي طازج!

الشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة ساخرةً من ثقتي في هذا الكواخيرو الذي أضاع علينا أكثر من أربع ساعات لأجل وجبة غداء. على مواجهة أشباح الظلام مع أطفالٍ وسيارة كلاسيكية لا أعرف إن كان فيها أضواء أم لا. على طريق رملي محفوفٍ بالحفر، ومرشد صغير السن متولع بـ مادونا. أدرت مفتاح السيارة لأتفاجأ بأنها لا تعمل. حاول روميرو التدخل فنهرته. سألت الكواخيرو المساعدة؟ أشار إلى حظيرة الحمير، كيف أسأل سائق حمير أن يصلح سيارتي! فتح روميرو غطاء السيارة، تمتم بأشياء لا أدري إن كانت صلواتٍ أو تحليل. وفي ثوانٍ أمرني - بصيغة رجل - أن أدير المحرك، وحصلت المعجزة. وحصل على قبلةٍ شجاعةٍ من ستيفاني، جعلته سعيداً لبقية حياته.

طريق الليل نصف مظلم، لأن النجوم كانت تملأ سقف السماء وتتساقط في أحضان حدائق التبغ. أحداث اليوم وإثارته تنسيني رهبة الظلام وصعوبة قيادة هذه السيارة الديناصورية. وصلنا في وقت متأخرٍ قليلاً لنجد الأم والجدة والجيران في انتظارنا بكل قلق، ركضت الأم إلى أطفالها في مشهد يفيض رقة وأمومة.

لم نتبادل تحايا النوم في تلك الليلة، فقد سقطنا في هوة النوم فوراً.

***

اليوم المتعب يجعل من اليوم - الممل - الذي يليه يوماً لذيذاً. وهذا هو برنامجنا في اليوم التالي، خرجت مع الجدة، إلى منزل صديقتها. تجلسان على كرسي هزاز أمام البيت. صمت طويل، ونزرٌ من الأحاديث الباردة. الحياة لا تكف عن الحركة أمامهما. يتوقف المارة في الباحة، ينقلون الأخبار للعجوز، أخبارٌ مفككة تشكل فاكهتهم اليومية. كل المارة ملزمون بأن يتوقفوا لتقديم خبر، ثم يسألانهما عني. أكتفي بالتحديق الصامت. كنت سعيداً، تغطيني هالة من الراحة النفسية لا أعرف مصدرها؛ القرية، الوجوه، رحلة البارحة، شعوري بأني خارج المكان الزمان. هذه الراحة النفسية تعني بأن الرحيل عن هذا المكان قد اقترب. حينما أرتاح في مكان لا أطيل المكوث فيه، لا أخدشُ ذكراه الجميلة. والأشخاص، إذا أحببت لقاءهم الأول، فلا تطل معهم حتى لا تنكشف عوراتهم. في المساء وضعت ستيفاني أمام الأمر الواقع، سأذهب إلى فينياليس Vinales، وعلى ستيفاني أن تعود إلى باتريسيا. هذه الفتاة - برغم صغر سنها - ذكية. أدركت حاجتي للانفراد وفرد جناحي دون أحمال وأثقال. أخذتها في الصباح إلى الباص. أجلستها بجانب أم. وأوصيتها كما لو كانت أختي الصغيرة، طفرت دمعة صغيرة من زرقة عينيها، لاقت ابتسامةَ أخٍ حنون.

غادر الباص، ترافقه تلويحة من خلف الزجاج، أحسست بالحرية المطلقة.

***

دعونا من الشّقر، ولنركز على السفر.

فينياليس قرية صغيرة، لا يوجد فيها شيء، لكنها مدهشة. هي أكبر فندق في العالم، لأن كل البيوت فنادق. جرى العرف بين أهلها أن يخصصوا غرفاً للقادمين، كما

هي القرى على طرق الحج القديمة. القرية طولية، عبارة عن شارع رملي واسع، تمتد البيوت على جانبيه. اخترت بيتاً صغيراً. استأجرت الغرفة بدينارٍ من امرأة سوداء. واستأجرت منها دراجة هوائية. تجولت في المدينة سائلاً عن الكهوف النهرية والأنشطة المحيطة بالمنطقة. عدت إلى المنزل عصراً، لأجد صاحبة المنزل قد نقلت أغراضي إلى غرفة في الباحة الخلفية بجانب قفص الدجاج. كوبا مدرسة في فن إدارة الأعصاب، لذا حملت أغراضي بكل أدب، وأنا أقول لها مازحاً:

أعلم أن شكلي يشبه الديك، لكني لن أسكن عند قفص الدجاج.

تفاجأت من برودة أعصابي، وقالت وهي تبتسم في هبل:

- غرفتك فيها سريران، والغرفة التي نقلتك لها فيها سريرٌ واحد. وهناك فتاتان وصلتا للتو، فأعطيتهما غرفتك، لأني أعلم أن رجلاً شهماً مثلك لن يقبل أن يناما مع الدجاج.

- ونبلك لن يسمح لك بأخذ مالٍ من ضيف وضعته عند غرفة الدجاج.

اشتاطت غضباً. تبرمت من المصاريف وغلاء الحياة. لتخرج الفتاتان من الغرفة، وهما ينظران إلينا لمعرفة ما يحدث. فتاة بيضاء طويلة القامة وطويلة الشعر، تنورتها سوداء وبلوزتها بيضاء وتضع منديلاً حريرياً أسود. والثانية فتاة سوداء طويلة القامة وقصيرة الشعر، وترتدي بنطالاً فضفاضاً وقميصاً حريرياً سكريُّ اللون، وتغطي نفسها بوشاح عسلي، في منتصف العشرينات. منظرهما راقٍ ومهذب، لا ينسجم مع المكان الرث. ذوقهما جعلني ألتمس العذر لصاحبة المنزل أن تنقلني إلى حظيرة الدجاج. نسيت أمر صاحبة المنزل والحظيرة، وقدمت نفسي بطريقة راقية للسينيورات المحترمات:

آه، أنت من الكويت، كم هو جميل أن نلتقي كويتياً في هذا المكان البعيد.

كانت الفتاة البيضاء تتحدث بلهجة بريطانية ملكية، تفخم الحروف وتعطرها.

أردفت قائلة:

أنا من اليونان، وهذه صديقتي من أنغولا (بلد إفريقي)، درسنا معاً في بريطانيا.

شرحت موضوع طردي إلى غرفة الدجاج. عرضتا علي بكل أدب الخروج من المنزل والبحث عن منزل آخر، ولاما صاحبة المنزل على ما فعلت. والنتيجة أني حصلت على عرض نقل السرير إلى صالون الضيوف وتحويله إلى غرفة خاصة بي، وميزة صالون الضيوف وجود مروحة سقفية معلقة، وباب مطل على الخارج مباشرة.

في المساء وجدنا أنفسنا على طاولة طعام في منزل يشتهر بالطبخ. انضمت لنا فتاة مكسيكية (لا أذكر اسمها)، لتتكون تشكيلة: اليونان، الكويت، أنغولا، المكسيك. الفتيات كنا على قدر عالٍ جداً من الثقافة العالمية (وهو شيء نادر هذه الأيام). تحدثنا عن الاشتراكية التي غزت العالم وبدأت تتقهقر الآن. عن تراجع الحدود الجغرافية بين البشر. عن الدول الواعدة. عن اختلاف الثقافات في أمريكا اللاتينية عن بعضها.. حواراتٌ تصاحبها أطباق لذيذة، لم يسبق لي وأن أكلتها في كوبا. صاحبة المطعم عجوز عاشت في المكسيك، وتمكنت من إعادة طبخ الأطباق المكسيكية بمواد كوبية. السرّ كان في تلك القدور الحديدية السوداء المعتقة، يبدو الطعم فيها معتقاً لكثرة الطبخ اليومي، أنا أؤمن بأن الطبق يكتسب عطر التوابل مع كثرة الاستخدام، كما يكتسب الوجه نضارته مع كثرة السجود. الجذع الخشبي الضخم الذي أدخلته من النافذة الخشبية وصولاً إلى القدر، كانت ناره هادئة حانية على النكهة.

تنهدت الأنغولية السمراء وهي تمسك بكوب خشبي لمشروبٍ عشبي دافئ:

- لم آكل هكذا من فترة طويلة.

آه، وأنا كذلك، من الصعب أن تجد أكلاً طيباً في كوبا.

- حينما جربنا الأطباق العالمية مثل البيتزا والبيرجر والباستا، كان طعمها سيئاً

جداً.

طبيعي أن يكون كذلك، لأن المكونات تصنع في مصانع الدولة، ولا يوجد منها إلا نوع واحد. الكاتشب مثلاً لا يوجد منه إلا نوع واحد (سيء الطعم) والخبز والباستا كذلك.

أما هذه الطباخة فهي تعتمد على الطبيعة أكثر من مصانع الدولة.

يقولون أنها كانت في المكسيك، لذلك جاء الأكل مكسيكياً بهذا الشكل.

تدخلت الفتاة المكسيكية في حدة:

- ماذا! أتسمون هذا الأكل "مكسيكياً"، هذا الأكل ليس مكسيكياً، ولا علاقة له بطعم الأكل في المكسيك.

هتفت بحماس وثورية شعارات الثورة الكوبية:

- تحيا كوبا.. إلى النصر.. Viva Cuba .. Hasta la Victoria..

نزعت الفتيات وقارهن مرددين هتافات الثورة. كان عشاءً لا ينسى.

***

فينالیس محاطة بعالمٍ باهر. قضيت أياماً في زيارة كهوفها النهرية، ومزارع التبغ (دون تكرار تجربة الغداء عند الكواخيرو)، وصعود الجبال. اعتمدت كثيراً على المشي والتأشيرة وعربات الخيول كوسائل للتنقل. أعود في المساء لأجد اليونانية والأنغولية قد عادتا من رحلاتهما الجماعية الجاهزة مع مرشد سياحي. تشاهدان أكثر، تدفعان أكثر، بلا إحساسٍ بالمغامرة.

وفي يومي الثالث، صعدت تلة صخرية ضخمة. صعود الجبال اختفاء. احتفاءٌ بالاختفاء. اختفاء مؤقت يجعلك ترقى أعظم وأضخم وأصلب المخلوقات. أوتاد الأرض.

هذا الاختفاء المتعالي يشعرك بالعزلة والعظمة. فلا يكون لتسبيحك معنى إن لم يكن فوق جبل يعصمك من الناس.

التلة الصخرية لم تكن مرتفعة، لكنها صعبة التسلق، صعودها يعني أن أبات الليلة في المنطقة القريبة دون العودة إلى فيناليس. في كوبا لديهم ما يسمى بـ«كامبيسمو»؛ شاليهات صغيرة تؤجر فيها سريراً، غالباً ما يستخدمها السكان المحليون في رحلاتهم البعيدة. وهناك كامبيسمو قريب مني، إن تأخر الوقت أبات فيه.

جرحت نفسي أكثر من مرة متسلقاً، وتأخرت كثيراً في الصعود. لكن في النهاية، وجدت أمامي منظراً خلاباً ممتداً. تمنيت ناراً وشاياً عراقياً ثقيلاً، وأثمل. لكن هيت لي، كل ما كان معي هو قارورة ماء وبساط وتمر وأكياس شاي ومعجنات وكتاب صغير.

وفجأة، أرى شعراً ذهبياً مرسلاً، وقوام أنثى طويلة منحوتة القوام، ومن خلفها يطل الوادي الأخضر الممتد، في منظر أسطوريٍ حالم. أَحَسَّت بوجودي فالتفتت مذعورة ثم مبتسمةً. ابتسامتها عذبةٌ فوق العادة، بشرتها صافية حليبية. قاتل الله الطبيعة والرشاقة حينما يجتمعان، لمحت من ورائها خيمة بلاستيكية زرقاء. نصبت قريباً من حافة مطلةٍ على وادي. يبدو أنها ستقضي الليل هنا!

تلاشت ابتسامتها وهي تنادي:

- كريس .. كريس.

في ثوانٍ خرج غولٌ أشقر طويل من الخيمة. رحب بي، كانا حبيبين من الدانمارك. متسلقي جبال محترفين، ينويان المبيت هنا. قدمت نفسي لهما كسندبادٍ تائه، طلب كريس مني الشماغ الذي أضعه حول رقبتي، كان معجباً به، تمت الصفقة، هو يأخذ الشماغ، وأنا.. أبات معهما الليلة.

***

لا أشعر بجلال الليل والنهار إلا في الجبال. روعة التناقض الذي يصنعانه في الروح حينما يتأرجحان بين الأبيض والأسود في أربع وعشرين ساعة. لا يعرف ذلك إلا متسلقو الجبال، فهم منقطعون عن كل شيءٍ، عدا الشمس والقمر.

أشعلا النار، أعطياني كوباً حديدياً، أخرجت أكياس الشاي التي معي، ووزعت التمر، وصنعت الشاي في الكوب الذي تشاركنا فيه جميعاً. أخذ كريس نفساً عميقاً وهو يحتسي من الشاي في الكوب المعدني:

التقيت "نورما" على حين غرة. على صهوة جبل في الصين. أسيرُ مع مجموعة تتجه غرباً، وسربها يشرق. تركت سربي وانضممت لهم. في المدينة، يمر الحب بمراحل: نظرة، ابتسامة، سلامُ، موعدٌ، موعدٌ ثانٍ، علاقة، سكنٌ.. وانفصال. أما في الطبيعة، فهو نظرةٌ.. وإنجاب! الطبيعة تجعلك أسداً تشتهي النساء، أما في المدينة فأنت ترى من النساء ما يكفي لتشتيتك وضمورك. وقعنا في الحب من المساء الأول، ابتعدنا عن مضارب الخيام، واتحدنا فوق الجبل، ومرت علينا الآن ثلاث سنوات، كأنها ثلاثة أيام. ننتقل من جبل إلى جبل ونطلعه على أسرار عشقنا.

واليوم يأتي غريبٌ، ويفسد عليكما متعة الحب الجبليّ!

كانت النجوم متدلية وتعم السماء بغزارة، السماء دافئة ترسل بعض نسماتها، حفيف أوراق، صرير حشرات، نشوة في داخلنا، راحة نفسية عميقة. لا شيء يحدث في هذا العالم غير السلام، لو أخبرتني أن حرباً تدور في مكان ما فلن أصدقك، حجم السلام الذي يلفنا يجعلنا نؤمن بأن هذه الليلة: سلامٌ هي حتى مطلع الفجر.

***

نمت جنب الخيمة. دغدغتني خيوط الفجر الأولى، فتحت عيني أريد أن أشهد

الشروق لوحة. لأجد أمامي كريس ونورما يجلسان على حرف الوادي. لم يحتا بي؛ رجلاهما متدلية للأسفل، يتشابكان، ذراعه على رقبتها، وذراعها على خصره، ينتظران الشمس، تاركان الهواء يعبث بشعورهما الذهبية. وقفت من ورائهما: الشمس، الصخور، الوادي الحاد، رماد نار الليل، عاشقان متسلقان. في يبتسم وقلبي يبكي، أدركت لحظتها أن الذي يجمع هذين يختلف كلياً عن ما يجمع أبناء المدن!

كانا في صلاة عميقة خاشعة. لم يلتفتا إليّ إلا بعد أن اكتملت دائرة عظمة الشمس، وجهاهما أكثر نضارة، كأنما هبت عليهما ريح الجنة. أعدت لنا نورما الفطور: توست وزبدة الفستق، بودرة قهوة في الكأس الحديدي المشترك. رؤيتهما بهذا الشكل بعثت فيّ ألواناً من الأمل. رؤية عشاق في وسط الطبيعة؛ بعيداً عن الماديات والإسمنت والماركات، عشق لؤلؤيٌ لا تخدشه نوايانا المادية ومظاهرنا الخادعة. هل يمكن لي أن أقع أنا الآخر في حب طبيعي في الخليج!

***

قفزت إلى مؤخرة سيارة نقل كبيرة، تمتلئ بأكياس التبغ، يقودها كواخيرو رآني أشير على الطريق العام. الهواء عليل والتمدد على أوراق التبغ مريح جداً. لا أعرف لماذا لا أستطيع نسيان صورة كريس ونورما، تعودت أن أشاهد أصناف البشر وأنا مسافر. لكن بعض البشر لديهم إشعاع غريبٌ على روحي، إشعاع يجعلك تريد أن تقول قافية، تضحك، تغور، تحزن، ترسم، تصرخ. تعبر عن ذاتك بطريقة سريالية، لا يفهمها أحد، ولا يهمك أن يفهمها أحد، المهم أن تخرجها فقط.

أنزلني الكواخيرو على أطراف فيناليس. صرخت عليّ عجوزٌ تجلس على كرسي هزاز أمام بيتها: يبحثون عنك، إذهب إلى المنزل حالاً. ما إن اقتربت حتى صرخت

الفتاة الأنغولية التي كانت واقفة بجانب الباب:

- كريم، إنه هنا، كريم هنا.

هرعت إلي راكضةً، أمسكت كتفي بقوة، وهي تعنفني:

أين كنت أيها المجنون؟ لم ترجع البارحة إلى البيت! متنا من الخوف.

آه.. كنت في جبل قريب، وجدت متسلقين وقضيت الليل معهما..

خرجت اليونانية مرتدية بيجامة داكنة:

أين كنت، بحثنا عنك في كل القرية، لم يشاهدك أحد..

عرفت أن الفتاتين قلقتا لتأخري. الأنغولية التقطت صورة جماعية للعشاء، فأخذت تري وجهي للناس وتسأل المرشدين السياحيين والشرطة عني، وتركا باب البيت مفتوحاً طوال الليل! هدّأت من روعهما، وحكيت لهما ما جرى، وأنا أشعر بالغبطة العارمة من حرصهما: ربُّ أخ لك التقيته في كوبا!

***

عدنا إلى هافانا، لا شيء تغير. إذا كانت المدينة لم تتغير منذ الستينيات، كيف ترجو تغيّرها في أسبوع.

باتريشيا الأخرى لم تتغير! سمعتها تهمس لستيفاني:

ألم أقل لكِ بأنه رجل نبيل!

(المضحك أن ستيفاني لم تفهمها وطلبت مني أن أترجم لها العبارة!)

الوحيدة التي تغيّرت هي ستيفاني. تخرج كل مساء، وتعود متأخراً. تستيقظ صباحاً تأخذ دروساً في اللغة الأسبانية في رقص السالسا. الدروس تأخذها سراً في بيت مدرسة متقاعدة، ودروس الرقص في شقة صغيرة في حارة ضيقة، ظننت أني ارتحت

منها. لكن باتريشيا أسرت لي في ذات قهوة صباحية، بأنها قلقة جداً على ستيفاني. لكنها لا تستطيع أن تخبرني بالسرّ، أظهرت اللامبالاة. فقالت سأخبرك بالسرّ بشرط أن لا تبوح لها. رفضت، لا يهمني سرها. انهارت وأخبرتني بالسرّ:

الحب هوّة، النجاة منها أن تتجنبها من البداية. وإلا تماديت في السقوط. لكن الحب في كوبا هو حبل، حبل معلق في سماء متعالية، تنجيك من الاشتراكية، تنجيك من الخيار الواحد، إلى سماء الخيارات المتعددة. ستيفاني تعيش بلا رجل منذ سنة، فتاة بلا حب، أباجورة بلا كهرباء. الحب كذبة، كذبة تنسجها عقولنا الباطنة، لذا ما إن نلتقي الإنسان الناقص، حتى تبدأ عقولنا الباطنة بالوسوسة، تزييف لنا كل النقص على أنه كمال. مسكينة ستيفاني، تعثرت برجل ناقص، لكن الوسواس يصور لها السقوط على أنه رحلة! الرجل الكوبي، يحتاج للحب أكثر من المرأة، لأنه من خلال الحب يحصل على فيزا وتأشيرة لمغادرة البلد! عليك أن تساعدها يا كريم. الأنثى تسمع من الرجل في الحب، ولا تسمع من الأنثى.

لن أتدخل في حياتها.

أنت لا تدرك خطورة الرجال هنا، يبحثون عن الغربيات لكي يهربوا من البلد! هل تعلم بأن الكوبيين ممنوعون من السفر! هل عرفت شعباً كاملاً منع السفر، منع السفر لأن حكومته مثل العجوز الذي يخشى على ابنه المراهق أن لا يحذو حذوه. الحل لديهم هو الزواج من غربيات ليهربوا ويؤمنوا عيشهم في الخارج.

- قلت لك لن أتدخل، يعني لن أتدخل.

***

العالم العربي وأمريكا اللاتينية توأمان.

كلُ ما في الأَمرِ أَن أمريكا اللاتينية تسبقنا زمنياً، لذلك كلُ ما يحدث فيها، يحدث لدينا بعدها بفترة زمنية. كل دولة لاتينية لها توأم عربيٌ يشبهها. فما هي الدولة العربية التي تشبه كوبا؟

سأصف لكم الشعب الكوبي، تاركاً لكم تحديد توأمه العربي:

الكوبيون لديهم تلك الثقة العالية، بأنهم أفضل الأفضل: أطيب طعام، أجمل شواطئ، أفضل موسيقى، أجمل نساء.. إلخ. وهم يدّعون هذه الأفضلية دون أن يكلفوا أنفسهم تجربة ترابٍ أو توابل أو جغرافيا جديدة. يعتقد الكوبيون؛ أن كوبا محور العالم وأن العالم كله يدور حولها، أمريكا لا تستطيع النوم بسبب كوبا. يتميزون بخفة الدم وسرعة الكلام، مضيفين إلى مرارة الحياة جرعات من الفكاهة تجعل طعم الحياة مستساغاً. مستعدون للإفتاء في أي موضوع يجهلونه والإجابة عن أي سؤال لا يعرفونه. بطريقة مدهشة وبتسلسل موضوعي مقنع ومضحك! إن أكبر صفعة يمكن أن توجهها لسائق تاكسي في هافانا أن تقول له: أنك لا تعرف طرق هافانا، يبدو أنك جديد على المدينة!

باختصار، يكاد يقول لك الكوبي بأن كوبا هي «أم الدنيا»!

***

الشيء المريح والمتعب في كوبا؛ ندرة الانترنت. لا يوجد مقاهي للانترنت، والأشخاص الذين يمتلكون اتصالاً بالنت، يعملون في وظائف تتطلب الانترنت. دلوني على بيت المهندس «دانييل»، تسمح له الدولة باستخدام الانترنت في منزله، واتفقنا على مبلغ دولار سياحي (كوك) لكل نصف ساعة انترنت. غرفة صغيرة، فيها كمبيوتر يعود إلى

العصر الأموي. هذا التخلف مريح لذهني وجسدي، ويمنحني العزلة لأندمج أكثر مع المجتمع اللاتيني. يجب أن أطمئن والدتي. اضطرت أمي لفتح إيميل لتطمئن عليّ أثناء سفري. مسكينة هي الأم، لا تتوقف عن الطَلَقِ والقلقِ منذ ولادتنا حتى نموت.

رافقتني ستيفاني. الجفوة بيننا واضحةً. أشعر بالخوف عليها بعد أن أخبرتني باتريسا. تذاكرنا رحلتنا: مادونا، روميرو، السمك، الكواخيرو، السيارة الكلاسيكية، الشواطئ، الغداء الغبي.. حتى ذاب الجليد تماماً. صارحتني:

الحب كالفطر البري، لا تعرف أين يولد. الحبّ غباءٌ لا بد منه! تعرفت على شاب أسود، موسيقيّ قارع طبول. هنا لا يقدرون الفن. يعمل يومياً في بار مرموق، مقابل راتب لا يتجاوز ٥ دنانير (٦٠ ر.س.) شهرياً. الحب لا علاقة له بالراتب واللغة. إنجليزيته أضعف من أسبانيتي. الحب يتجاوز الأبجدية. أقسم لي بأنه مستعدٌ للزواج والسفر إلى هولندا.

أدركت أن هذه الصغيرة الشقراء متورطة.

لن أتدخل.

***

النساء لهنّ طرقٌ ذكية في كسر قرارات الرجل. الرجولة - كل الرجولة - أن تصمد أمام وسائلهن. يستخدمن وسيلة «التكويك»؛ يحشينك بالأفكار والمخاوف تدريجياً حتى تنفجر. على قهوة الكذب بدأت باتريسيا تتلاعب بي:

ستيفاني نائمةً. سيفوتها درس لغة. رجعت بعد منتصف الليل، حالتها لا تسرُ.

لماذا؟

قالت وهي تخفض صوتها:

- أنا «أم». أحسُ بأن ستيفاني حامل!

تسمرت مكاني لثانيةٍ. تذكرت بأني أتحدث مع باتريسا "ملكة الدراما". ضحكت رغماً عني. قلت:

تَعَرَّفَتْ عليهِ منذ أسبوعين، كيف يمكن أن تظهر عليها أعراض الحمل!

- أنت لا تصدقني! ماذا تتوقع من قارع طبول!

باتريسا تكذب. تريد أن تبين لي تطور العلاقة وعواقبها الوخيمة. لعبة التكويك التدريجي. أخذتني باتريسا إلى باب الحمام على أطراف أصابعها. استمعنا إلى نشيج ستيفاني في الحمام، قالت لي بهمس:

ألم أقل لك بأنها حامل!

***

استخدمت باتريسيا كل وسائل الإغواء الذكية والغبية لحضّي على حضور حفل تخرج ابن ابن خالتها من كلية الطب. حفل عائلي ضخم تحضره أغلب العائلة. لإقناعي بالحضور عزفتْ على أوتار: اكتشاف المجتمع الكوبي، فهم الهاڤانيين، الاندماج الحضاري. بينما كانت تقنع ستيفاني من خلال تشويقها في الموسيقى؛ السالسا الكوبية الأصلية، أجيال موسيقية مختلفة، موسيقى تراثية لا تعزف.. حتى ظننت أن «شيليا كروز» ستغني. باتريسيا مسوقة خبيثة.

ستيفاني اشترت بدلة خاصة لهذه المناسبة. حاولت باتريسيا إقناعي بشتى الطرق بأن أرتدي بدلة سوداء (استعارتها من ابن اخوها) لها بابيونة على رقبتي.. لا وألف لا. لو أصرت على البدلة سألغي حضوري تماماً.

يومياً كنت أسمع أسباباً أخرى للحفل (بخلاف التخرج من الطب). مثل بلوغ نورا

الخامسة عشر، وداع ميغيل الذي اختاره الحزب للدراسة في الصين، شفاء العمة تاليدا من ماء العين.. لم يعد يهمني معرفة سبب الحفل. إصرار باتريسيا واهتمامها بكل التفاصيل يخيفني. سأنفذ الطقس الاجتماعي وإن لم يعجبني سأهرب.

في اليوم الموعود. ركبنا باصاً كهلاً. يضم كل الأعمار: من الرضّع وصولاً إلى أهل القبور. تحاشرنا جميعاً منطلقين إلى خارج هافانا. أجلسوا في حضني طفلة شقراء مجعدة الشعر. لم أعرف والديها. السنيور جاريسيا يكاد يموت من فرط السمنة والضيق. وصلنا إلى المكان. لا هو مطعم ولا صالة أفراح. باحة مفتوحة في الهواء وسط بستان. الأرض مكسية ببلاط أبيض قديم مزركش بنقش بني. طاولات مستطيلة موزعة على كافة أرجاء الباحة وحولها كراسي بلاستيكية رخيصة. باصان آخران وصلا قبلنا. سيارات كوبية كلاسيكية مكتظة ببشر أنيقين. لسبب ما، فإن العَجَنَ داخل السيارات لا يؤثر على أناقتهم. فَرِحْتُ بالوصول لأني سأستنشق هواء حراً. لكن الرطوبة كانت خانقة جداً. ستفسد الرطوبة حفلاً في الهواء الطلق. شعرتُ بالأسى على الرجال بطبقات بدلهم السوداء والرمادية. ستتعفن أجسادهم. كل شيءٍ يتفصد عرقاً؛ الطاولة، الكراسي، البلاط، الوجوه. بدا الحفل فوضوياً، لا مركز فيه. لا شخص تهنئه. لا أحد يستقبلك. كأنك في مطعم تعرف كل رواده. رويداً تتكشف لك الصورة. هناك إدارة مركزية مخفية حازمة تدير هذه الفوضى دون أن يلاحظها أحد: السنيورة «تيتا» (لا أعرف إن كان هذا اسمها الحقيقي). والدة خريج كلية الطب وابنة خالة باتريسيا وملهمتها في الحياة. عمرها يتجاوز الخامسة والستين. لا تكف عن الابتسام والتبذل في الكلام. لكنها حكيمة وقيادية.

وزعوا علينا عصائر بالحليب؛ افوكادو، موز، فراولة، فواكه استوائية. بينما يحمل نادلٌ واحدٌ كؤوس الموخيتو الكوبية ويوزعها بإشارة من «تيتا» على بعض الحاضرين المنتقين. في الزاوية شابٌ وفتاة يضعان سماعةً كبيرة على الأرض ويوصلانها بمسجل

ومدمج أقراص (سي دي). يبدو أنه «مستر دي جي». قبل أن أبدأ في التعرف على الحاضرين وشوشت باتريسيا للسنيور جاريسيا الذي نبه عليّ وعلى ستيفاني بإن لا نخبر أحداً بأننا «مستأجران». نحن مجرد أصدقاء لصديق صديقه ونسكن عنده مجاناً! في الواقع كلهم يعرفون الحقيقة، لكن لا أحد يُكَذِبُك. لأنهم جميعاً يفعلون أشياء مشابهة. بعد التداخل مع الكوبيين تجد أن وراء وظيفة كل كوبي وظائف أخرى؛ تهريب سيجار، تهريب كتب، تهريب تحف، تهريب بشر.. سنيور جاريسيا أقلهم جرماً.

اقترب فتى بروزي طويل من ستيفاني. صدرت إشارةٌ من تيتا إلى فتاة تجلس بعيداً. طارت سريعاً إلى ستيفاني وسحبتها من الشاب بلباقة. راقت لي شخصية «تيتا» كثيراً. سأتفرغ الليلة لمراقبتها.

بإشارة من «تيتا» بدأت الموسيقى. موسيقى سالسا صاخبة. حنجرة عالية الصوت. تصرخ أكثر مما تغني. قاموا جميعاً من مقاعدهم. عادة ما يقوم الناس للرقص تدريجياً. لكنهم هنا قاموا فجأة. كما لو كانوا ينتظرون الموسيقى. عادةً ما يبدأ الحفل بموسيقى هادئة تنقل الناس من الحوارات إلى الموسيقى. الكوبيون وحدهم يدخلون في الموضوع بدون مقدمات: موسيقى عنيفة والكل يرقص بنشاط. كيف سيرقصون في هذه الرطوبة الخانقة. لكنهم على عكسي تماماً. يشعرون بأن الرطوبة تمنح الأجساد انزلاقاً واحتكاكاً انسيابياً. في الخليج قلوبنا في أنوفنا. تتقدم حاسة الشم على كل الحواس الأخرى. نتقبل ونكره بناءً على أنوفنا. نحتفي ونكتفي بالرائحة. هنا الرائحة لا تهم. وإنْ بَلغتْ مرحلةً لاتطاق أشعلوا سيجاراً تطغى رائحته على التفصد والتعرق.

في الرقص اللاتيني، يتنازل اللاتيني عن غيرته المفرطة. يسمح لجميلته أن تتداولها الأيدي والصدور. تتنازل الجميلة عن طمعها وحبها ومعاييرها. تبحث عن الراقص المحترف بغض النظر عن وسامته ومنصبه. كونه راقصاً في تلك اللحظة يجعله أفضل

الرجال قاطبة. الرقص غايةٌ بالنسبة لهم وليس وسيلة. المذهل أنهم جميعاً يجيدون الرقص بلا استثناء: من الرضيع إلى الكهل. والد السنيور جاريسا ثمانيني على ما يبدو لي. عكازٌ خشبي. مقوس الظهر. لا يبدو بعيداً عن قبره. اختصته ثلاثينية بيضاء بالرقص. كانت زوجة حفيده وتحب أن تراقصه أكثر من حفيده! يعرف كيف يديرها ويتلاعب بها من مركزه. لم يكن كثير الحركة، لكنه خبير الحركة.

بدت ستيفاني تائهة في الرقص. تحاول أن تطبق دروس الرقص من خلال المشي في خطوات معدودة. بدا شكلها أوروبيا ساذجاً وهي تعد خطواتها. بينما الفوضوية الكوبية لا تسمح بعَدِّ الخطوات. تسمح فقط بالانخراط في الموسيقى. وجدت نفسي عاجزاً عن الانسحاب، فأنا في منطقة مقطوعة ولا طريق للعودة.

زادت الموسيقى صخباً. انهزمت الرطوبة. لم تعد تؤثر فيهم. تلاحمت الأجساد وتداخلت الأذرع. الرقص اللاتيني هو أكثر الرقص إباحية في العالم. يقوم على الثنائية: الرجل يدير ويدبر، والمرأة تدور وتفجر. يجب على الراقصان أن يقتنعا بأنهما زوجان طوال فترة الأغنية. حتى لو كانا عدوان. إذا انتهت صحيا من خيالهما. صرحٌ من خيال فهوى. والكوبيون هم الأعنف في الإيقاع والرقص بين اللاتينيين. المكسيكان والكولمبيين يميلون إلى الانتقال من الانسيابية إلى العنف تدريجياً. لكن عنفهم لا يقارن بالعنف الكوبي. الراقص هنا في كوبا يسبح عرقاً ولا يبالي. كلما زاد العنف زانت الرقصة. لطالما وجدت أن الموسيقى والرقص في المكسيك وكولومبيا أرقى وأجمل. لعل الأرجنتينيين وحدهم تميزوا برقصة التانغو. وهي رقصة حسية مبالغٌ فيها تتعارض مع رقي الشخصية الأرجنتينية. والتانغو كرقصة بدأت في مواخير الدعارة. حيث كانت فتيات الليل يغوين الزبائن من خلالها. فكانت منبوذة في المجتمع الأرجنتيني حتى الثلاثينات تقريباً. لكن عدداً من المومسات نقلن هذه الرقصة إلى باريس. أعجب بها الباريسيون ومدحوها. فسارع الأرجنتينيون إلى التباهي بها وعدها من

تراثهم. غاضين الطرف عن تاريخها القذر. إذا أردت أن تصنع من أي «زبالة» موضة، انقلها إلى باريس أو ميلانو.

«تيتا» مخرجة المشهد بامتياز. تتلاعب بالجميع كدمى في مسرح العرائس. ترسل شاباً ليسحب فتاةً تراقص شاباً محجوزاً لأخرى. تجمع - من خلال رقصة - بين شابين متباعدين. كانا على علاقة لثلاث سنوات وانفصلا. تتابع توزيع المشروبات واختيارات الدي جي بإشارات من بعيد. ترفع نخباً خاصاً لرجل منزوٍ بعيد يتهامس مع صاحبه. فجأةً تطلب من الجميع الهدوء. ترفع نخباً لعيون «لوريتا»:

نحتفي بـ«لوريتا». صانعة ألذ يخنة في التاريخ. لسنة كاملة وأنا أزعجها بطلب اليخنة. ابني تحمل كتب الطب بفضل يخنتها...

يصفق الجميع لليخنة و «لوريتا». ويتضح لي بعد الحفل بأن ميغيل الذاهب إلى الصين يعشق اليخنة. تيتا أعطت دورات خاصة في عمل اليخنة لـ «لوريتا» لكي تفتح لها باباً على حياة ميغيل! يشتد الحفل. ينزع الرجال وقارهم. يكثرون من الشراب الرخيص والسيجار الغالي. ينزعون الجاكيتات ويرخون البابيونات. وتتضح الصورة أكثر. كل فتاة ومن يستهدفها. تستقر العلاقات أكثر. لا تبديل بين الفتيات والفتيان. كل مستقرٌ عند صاحبه. لا أحد يستطيع مغادرة المكان ولا أحد يستطيع أن يتخفى في زاوية عن الآخرين. تيتا بعبقريتها العسكرية اختارت مكاناً بعيداً عن هافانا. وأصرت على النقل الجماعي. حتى يظل الجميع في مكان واحد. اختارت أرضاً مفتوحة تشاهد فيها الجميع. لا مجال للكمائن والإختباء للعشاق الجدد. باتريسيا ترافقها وتتلمذ على يدها. المرأة اللاتينية تعيش صراعاً صعباً. مجتمع مفتوح تتعالى فيه درجات الإثارة. تتسابق الإناث فيه لحجز أزواج المستقبل والحفاظ عليهم. على المرأة أن تكون أنثى لا تتخلى عن دلالها و زوجها. حالات الرجال الذين يطلقون أو يتركون عشيقاتهم (خصوصاً بعد الإنجاب) لا حصر لها. والمسئوليات التي تترتب

على المطلقة ضخمة جداً. الشباب هناك قابلون للحب بشكل لا يصدق. ويبدو الحب محور حياتهم الأول. وهنا يأتي دور الأم في التدخل في حياة أبنائها وإدارة الدفة من بعيد. الرجل الشرقي يتملك أنثاه ويخفيها عن الأعين، بينما اللاتيني يحب أن يتملكها ويتباهى بها أمام الأعين. أما الغربي فهو يدخل في علاقة أشبه بتأسيس شركة لها عقد والتزامات محددة دون أن يتملك أحدٌ منهم الآخر.. علاقة واضحة ومملة.

في آخر الليل. توجهت إلى تيتا. شكرتها على الفوضى الممتعة. صارحتها معجباً:

أتمنى أن أحصل يوماً على امرأة بمثل دهائك. توظف عبقريتها من أجل بناء الأسر والحفاظ عليها.

- لدي فتاة تناسبك. لكنها ليست هنا.

لا شكراً. أنا لا أتزوج من خارج مجتمعي.

- جيد. هذا أدعى للاستقرار والانسجام الممتد. هذا ما أؤمن به تماماً. يصعب على الكوبي الارتباط بغير الكوبية. هل تترجم ما قلناه للشقراء الجالسة إلى جنبك؟

قاتلها الله، تعرف بعلاقة ستيفاني مع الكوبي الأسود وتحاول تشكيكها بطريقة ذكية!

علقت ستيفاني:

الحب أقوى من الجغرافيا. وفي وطني حالات كثيرة لمن تزوج من الخارج وهم سعداء.

ربتت تيتا على كتفها ضاحكة وهي تقول:

الكوبي شخصية متطرفة. تحب وتكره بعنف. لا تجربي الحب معه. سيمنحك لذة سريعة وعذاباً طويلاً.

أشارت تيتا إلى الدي جي. توقفت الموسيقى. هدأت الشياطين. ركبوا الباصات.

عـرقي. ثيابهـم مطعجـة ووجـوهم سـعيدة. أخـيراً سـأعود إلى غرفـتي ومروحـتي.

***

ضقـت ذرعـاً بـ هافـانا، لأن الصداقـات الـتي نسـجتها كانـت واهيـة، وكل محـاولاتي في اخـتراق المجتمـع، تنـتهي بطلبـات ماديـة. حملـت شـنطتي واتجهـت إلى منطقـة تسـمى ترينيـداد Trinidad.

إذا أنكرتني بلدةٌ أو نكرتها خرجت مع البازي على سوادِ

تبعـد هـذه المنطقـة ٥ سـاعات بالبـاص عـن هافـانا، وتقـع في منتصـف الطريـق بـين هافـانا وغوانتانامـو. وغوانتنامـو تقـع ضمـن محافظـة تسـمى سـانتياغو، تشـتهر بثقافتهـا الخاصـة الـتي تسـتمد جذورهـا الإفريقيـة مـن بواخـر العبيـد الـتي كان يشـتريها الأسـبان مـن إفريقيـا للعمـل في زراعـة السـكر في كـوبا. ترينيـداد تقـع في المنتصـف، فهي تحمـل خليطـاً كبـيراً بـين الثقافتـين، ثقافـة أسـبانيا وثقافـة إفريقيـا.

مدينـة «كلونيـة» هادئـة؛ بيـوت عربيـة يتوسـطها الفنـاء، لا تزيـد قامتهـا عـن الطابقـين. كنائـس، حدائـق صغـيرة، نخيـل، بيـوت ملونـة. عـلى ظهـري سمرقنـد وفيهـا ولحـافي. أقـرأ مذكـرات تـشي جيفـارا (مـاذا يمكـن أن تقـرأ في كـوبا؟).

وصلتهـا باكـراً. تركـت الخريطـة جانبـاً متسـكعاً دون هـدف: مـن السـاحة الرئيسـة الفخمـة إلى الأزقـة الضيقـة المتعبـة. الابتسـامة تمـتزج بالعـرق. الشـيخوخة تمـتزج بالطيبـة. عـادت لي روحي مـرة أخـرى، شـعبٌ مختلفٌ عـن هافـانا. أكـثر طيبـة وأقـل رأسماليـة. بعـد المغيـب، سمعـت صـوت غيتـار يأتي مـن أحـد الحدائـق، تبعتـه لأجـد شـاباً أسمـر يعـزف بخشـوع دون أن يغـني، وقفـت قبالتـه أنظـر بأذني لعزفـه. وإذا بيـد تربـت عـلى كتـفي مـن الخلـف، كان رجـلاً أسمـر هـو الآخـر ويشـبه الصـبي، تعرفـت عليـه. كان والـد الصـبي،

طلب مني أن أنضم لعائلته التي تجلس في طرف الحديقة.

رجل أسمرٌ. زوجته شقراء. وأولاده الخمسة كانوا سَلَطَةً مُشّكلةً. التزاوج بين الألوان والأعراق في كوبا مسألة عادية جداً، تكاد تشعر أنها الأصل. على عكس أمريكا (بلد المساواة) التي يندر أن تشاهد فيها هذا المشهد. وحينما سألت الزوجين - بعد سقوط الكلفة - عن الزواج المختلط، قالا:

- في كوبا ما يهم هو «الحب».

لكن ألَمْ تَشْعرا بالغرابة من الموضوع؟

وما الغرابة في الموضوع، كل شيء يَنجذبِ لعكسه!

وبعد جلسة مطولة مع العائلة، سألوني أين أقيم، فأجبتهم بالإجابة المعتادة:

أنا خليفة الله في الأرض، لذا فأنا أنام في أي مكان يحلو لي.

يبدو أنهم استطابوا معشري، فدعوني للنوم في بيتهم.. مجاناً!

***

أكرمتني العائلة الجديدة بسرير ابنتهم الصغيرة. بعد الإفطار، دعتني الأم إلى «كرنفال القمر» في أحد ضواحي المدينة. الكرنفال بسيطٌ، من إعداد البلدية ومن تنفيذ طلبة المدارس. تشعر بسعادة الناس المنتشرة أفقياً وعمودياً. كلهم يعرفون بعضهم. يتبادلون الأكل والشراب. يطربون لموسيقى الشارع ويصفقون لأبنائهم المشاركين في الاستعراضات. كان لدي كاميرا ديجيتال (بجودة ٢ بيكسل)، وخلال ساعة أصبحت أنا وكاميرتي حديث الكرنفال كله. الأطفال يتحلقون حولي لمشاهدة المعجزة التي جاء بها العربي من وراء البحار.

عوضتني ترينيداد عن جفاف هافانا وجشعها. أعادت لي إنسانيتي وانفتاحي وثقتي في الآخرين. نحن نظلم العالم حينما نعتقد أن كل مدينة تشبه جارتها. السفر يعلمك

بأن كل شارع يختلف عن الذي يليه.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

العودة إلى هافانا، أعادت لي الضيق النفسي. جلست فيها يوماً واحداً، وأخذت الباص إلى «فارادیرو»؛ «الحلم الكوبي» بالنسبة للأمريكان والكنديين. لسان طويل من اليابسة يمتد في عمق المحيط. المنتجعات عن يمينك ويسارك. في كل منتجع تلبس سوارة بلاستيكية، لتحصل على بوفيه مفتوح من المشروبات والأطعمة. مطار صغير. خمسون رحلة أسبوعياً من كندا والمكسيك في المواسم. المدينة تذكرني بكنكون في المكسيك وشرم الشيخ في مصر. الشواطئ جميلة وخلابة، لكن المدينة لا علاقة لها بكوبا، فهي سجن سياحي سعيد، يعزل السياح عن كوبا الحقيقية. حاولت أن أتهرب من السياح باللجوء إلى هوستيل صغير، غالبية سكانه من الكوبيين الأثرياء المتخفين، الذين لا يبدون ثروتهم حتى لا تصادرها الدولة. أصبحت قريباً منهم، نخرج من مكان إلى آخر. أغلب الشواطئ محتكرة للمنتجعات الكبيرة، إلا أننا نجد طريقة للمرور. في المساء وجدنا أنفسنا في مطعم صغير. قابلت فتاة بلجيكية بيضاء قبل أن تطليها شمس كوبا بالذهب. اللحم الزائد في جسمها ينبيك أنها قد تعدت الثلاثين بقليل. معها شابٌ كوبي، زنجي الأصل، شعره مدبب، خبيث النظرة، يبدو في أواسط العشرينات، تشاركنا في الطاولة والطعام. تحدثت معي بالإنجليزية. لم يتضايق الكوبي من حديثنا بلغة لا يعرفها. الفتاة في حالة نصف سكرٍ، فقد كانوا في المنتجع طوال النهار يتلذذون بالموخيتو المجاني. تعيش حالة حبٍ مع هذا الشاب لها أكثر من شهر. وهي الآن تشعر بالأسى لأنها ستعود إلى بلجيكا خلال أيامٍ. يقضيان آخر أيامهما في المنتجع. سألتها:

- ثم ماذا؟

- سأبحث له عن وظيفة في بلجيكا. اقترح عليّ مراراً أن نتزوج لكي تسهل عليه الهجرة. رفضت برغم حبي له. أحاول إحضاره بلا زواج. لكن إذا لم تنجح المسألة، عليّ أن أتزوجه في السنة القادمة.

تخيلتهما في ملابس زفاف، الصورة كانت بائسة بلا انسجام بينهما. تصرفت كخليجي؛ أدعي الذهاب إلى الحمام لأدفع الفاتورة. لما علمت الفتاة "طائيتي" أطنبت في شكري. تنحنحت كخليجي وأنا أقول:

- هذا لا شيء، الواجب لدينا إكرام الضيف.

- لا تلمني، أنا أصرف على عشيقي منذ تعرفنا. تعرف ضعف مدخولهم. حتى هذا المنتجع على حسابي! تخيل كان يفترض أن تكون إقامتي هنا لثلاثة شهور، لكن منذ تعرفت على هذا الشاب صرفت مخصصاتي في شهر، انسحبت من دروس الرقص. كان يصرّ أن أحمل منه كي لا أنساه! ياه، كم هو جميل وساخن العشق الكوبي!

هنا أدركت شيئاً واحداً، أدركت أن ستيفاني في خطر عظيم.

***

رجعت إلى هافانا، ذهبي اللون، قلقاً على ستيفاني. وصلت مساءً، ولم تكن قد رجعت بعد. أخبرتني باتريسا بأنها تركت دروس اللغة والرقص بسبب صديقها، لأنها تبرعت لعلاج أمه المريضة.

- وهل تصدقين هذه الرواية؟

- بصراحة لا أصدقها، لكن ستيفاني مُغرمة غير قابلة للنقاش.

- هل لديك معلومات عن الصبي؟

- عرفت اسمه والمطعم الذي يعزف فيه، والمنطقة التي يقيم فيها.

في تلك الليلة اتصلت ستيفاني بالمنزل، أعطتني باتريسيا السماعة لأنها لم تستطع التفاهم معها بشكل جيد:

- جيد أنك رجعت يا كريم، فأنا في ورطة ومحتاجةٌ إليك.

أين أنت؟

- أنا في مخفر الشرطة.

- مخفر!

لا تخف أنا بخير، لكن الشرطة اليوم اقتادوا رينو.

ولماذا اقتادوه؟

لأنه كان بصحبتي، وأنت تعرف أن القانون لا يسمح للكوبي بالخروج مع السياح.

حسناً أنا قادم إليك.

لم أكن قادراً على اصطحاب باتريسيا أو السينيور جارسيا. سيتعرضان لأسئلة عن علاقتهم بنا. في الطريق، أدركت سرَّ «أمن وأمان» كوبا، فالبلد آمنٌ جداً، أكثر أماناً من أي عاصمة أوروبية، والسبب منع الشعب من التحدث مع السياح. وأدركت في نفس الوقت سبب تعقد الصداقات في هذا البلد.

مخافرهم لم تكن مخيفةً أبداً، لا أسلحة آلية، ولا أصوات إزعاج، الشرطي يتعامل مع السائح بابتسامة ومع المواطن بتقطيب. تحدثت مع الضابط بكل هدوء، نصحني بالخروج مع ستيفاني الآن، ورينو سيبقى لديهم ثلاثة أيام كعقوبة على خروجه مع سائحة:

رفيقي العزيز (يستخدمون كلمة رفيق في مناداة بعضهم تأثراً بالاشتراكية). صديقكم في أمان، عادةً ما نحتجزهم لمدة أسبوع، ولكننا سنفرج عنه بعد ثلاثة أيام. هذا لمصلحة الفتاة. الكثير من المشاكل تحدث بسبب التواصل بين السياح والشباب.

في قرارة نفسي كنت سعيداً بخبر الحجز، فهو سيبعدهما قليلاً. طمأنتُ ستيفاني، وأخذتها للمنزل، شعورٌ أبوي غريب انتابني في طريق العودة!

***

في الليلة التالية، ذهبت إلى المطعم الذي يعمل فيه رينو، كان شيئاً مخلوطاً بين المطعم والبار والمقهى، «بتاع كلو». أكرمتُ نادلاً شاباً لأسأله:

- يقال أن فرقة تعزف هنا كل مساء؟
- نعم يبدؤون العرض بعد ساعة تقريباً.
- عندي فكرة إنشاء مطعم كوبي في بريطانيا، وأبحث عن "طبّال" جيد، وسمعت بشابٍ يقال له رينو؟
- للأسف لن يكون موجوداً الليلة.
- هل هو مشغول مع عائلته؟

لا، إنه غير متزوج.

- لعله مشغول مع أمه؟
- لا أمه توفيت منذ ثلاث سنوات!

ألم تدفع ستيفاني تكاليف علاج أمه المتوفاة من ثلاث سنوات!

***

في صباح اليوم التالي، كنا أنا وباتريسا وستيفاني نقف أمام باب شقة رينو. شقتهم في حيٍ متهالك، مليء بالأطفال والشباب. ممتعةٌ الأحياء الفقيرة، مملة أحياء الغنى، لا

أدري لماذا العلاقة عكسية بين الفقر والمتعة.

تخفينا وراء الباب. انفردت باتريسا بالمشهد، قرعت الباب بقسوة تأكد فيها عدم ترددها. فتحت أخت رينو الباب، ونحن متخفيان ونسمع، قالت باتريسا:

أنا من الكنيسة المجاورة، ولدينا برنامج ترفيهي وثقافي للمتقاعدات والكبيرات في السن. هل من الممكن أن أقابل والدتك؟

للأسف والدتي توفيت منذ سنوات.

كشّرت باتريسا عن أنيابها. انهالت عليها سباً ولعناً. البنت المسكينة لم تفهم شيئاً. جذبتها باتريسا خارج الباب، لتريها ستيفاني. التقت العيون الزنجية الغامقة بالعيون الزرقاء الفاتحة. أطرقت الفتاة، تعرف ستيفاني، وشاركت أخاها في مهمة النصب عليها!

بكت الفتاة وانهارت. أخوها أجبرها على أن تمارس كذبة الأم المريضة والدواء المستعجل، لم تكن تملك خياراً لأن أخوها سيضربها. صفعتها ستيفاني برقةٍ أوروبية. لم تقنع الصفعة باتريسا. صفعتها باتريسا بصفعة سمعنا صداها في درج العمارة! تحمست للمشاركة في الصفع، لكني تذكرت أنها فتاة. في الطريق، كانت الدموع تسح على خد ستيفاني، ونظرة ظفر وانتصار تلمح في بؤبؤ باتريسا!

***

قهوة الصباح كانت هذه المرة مختلفة، أنا وباتريسا وستيفاني بعينيها المنتفختان بكاءً. في محاولة لتخفيف الوضع، قالت باتريسيا:

- عليك أن تشعري بالسعادة الآن يا ستيفاني. أنقذك هذا الموقف من ورطة كانت ستطول.

ارتشفت ستيفاني قهوتها بمرارة، لتقول في مرحٍ مصطنع:

- كل ما خسرته هو أسبوع من الدروس في الأسبانية والسالسا.

فقلت في تهكم:

- هكذا هم أهل الغرب، ولدوا في بيئة منظمة لدرجة التعقيد. لديهم دورات ودروس لكل شيء، تخيلي يا باتريسيا، لديهم مدارس لتعليم الطبخ.

- دروس لتعلم الطبخ! تزوجي رجلاً سميناً مثل زوجي، ستصبحين طباخة رغماً عنك.

(لم يكن طبخ باتريسيا لذيذاً، لكن احذر أن تنتقد أماً في أطباقها).

نظرت ستيفاني إلينا باستغراب طافحٍ على عينيها الزرقاوين:

إذاً كيف نتعلم من غير دروس؟

أكلمت بتهكم (كأني حكيم زمانه):

- لا كابي.. الشارع..

نظرت باتريسيا إلى حكمتي بإعجاب، فهي شوارعية من الدرجة الأولى.

- الشارع. الشارع يا سيدتي هو المدرسة الأكبر والأشمل في الحياة. الشارع هو الحقيقة المطلقة: أطفال يلهثون خلف الكرة، شبابٌ يتغطى بضباب السجائر، صبايا تحاول أن تثبت أنوثتها للعابرين، نساء يحملن أكياس المونة، رجالٌ يتفيهقون في السياسة. الشارع هو جامعة الحياة الكبرى، تتعلمين منه اللغة بأدبها وسبابها، تتعلمين منه الضحك والبكاء، تتعلمين منه طموح الناس. فقط انزلي إلى الشارع وذوبي فيه، بعدها لن تحتاجي إلى مدرسة أو معلم.

تنهدتُ كأنّ وحياً يأتيني من خلف الغيمة يملي عليّ اعترافاً خطيراً أمام باتريسيا وزرقة عين ستيفاني. أكملتُ:

- بدأت حياتي كـ«دودة كتبٍ» محترفة، أقرأ بنهم. قرأت البداية حتى النهاية.

كنت غلاماً في الثانية عشرة من عمري، لا أعرف غير الكتب، أسافر إلى مصر كل سنة وحيداً لأشتري كتباً تكفيني مؤنة سنة. ظننت أن الكتب وحدها ستوصلني. لكني حينما خرجت من عزلتي الأولى في السادسة عشر، اكتشفت أني لا أعرف شيئاً، وأن هناك علماً وعالماً أكبر. لجأت إلى الشارع، ثم الحي، ثم المنطقة، وصولاً إلى باب الطائرة. أدركت أن الكتب مفيدة جداً، لكنها لا تسمن، وأن عالم التسكع والشوارع، في نهاية الأمر، هو العالم الحقيقي الذي يجب أن تغور فيه، ثم تكتب عنه.

سكونٌ ساد المكان، كأنهم ينتظرون أن يرتفع الوحي إلى غيمته. يبدو أن كلامي كان مقنعاً لستيفاني، إلا أنها باغتتني بالسؤال:

أعدك بالتوقف عن التفكير عن رينو، لكن قل لي بشجاعة، ما هو رأي مدرسة الشارع في ما فعله رينو؟

لا أدري من أين جاءتني الإجابة، لكنها كانت تنبع من زاوية في داخلي لا أعرفها:

الفقر والغنى غرفتان متطابقتان تماماً، لكن غرفة الفقر مظلمة داكنة، وغرفة الغنى مشرقة تطل عليها الشمس. لذا يحرمنا الفقر من رؤية الأشياء الموجودة حولنا، لكننا في الغنى نملك الضوء والمشاهدة. ومن ينجح في اجتياز غرفة الفقر إلى الغنى، يكتشف أن كل شيءٍ كان موجوداً ومتوفراً في غرفة الفقر، لكننا عاجزون عن رؤيته. ما الذي يريده الإنسان من الحياة: الله، الحب، الأبناء، السقف، النكتة، الأصدقاء، العائلة، العقل، الشعر، السرير.. كل ذلك موجودٌ في الغرفة المظلمة.

كانت ستيفاني مصغية وغارقة. أردفت بصوت عميق:

- من يعش بين حفر الفقراء، يلتمس العذر لتصرفاتهم. فهم يريدون الانتقال إلى الغرفة الزجاجية المشرقة، والتي تبدو الأشياء فيها برّاقة ولمّاعة: أسرّة وثيرة،

منتجعات كبيرة، موسيقى صاخبة، صرعات الموضة، شاشات كبيرة، اجتماعات مهمة، أربطة عنق، شعور مسرجة، عري على الشواطئ... يشعرون بالحرمان.

لكنهم يا كريم باردون جداً، لا تشعر معهم بسخونة الحب ولا دفء القلب.

هكذا هم الأوربيون، ولدوا في الجليد، وتطبعوا ببرودته لكن صيفهم أخضر ولطيف. أما الشعوب الدافئة ونحن منها، فإن صيفنا حارقٌ وعاطفتنا متقلبة. لا تقلقي ستجدين يوماً شاباً مثلك، هجر الصقيع باحثاً عن الرمال.

***

ذهبت إلى منزل دانييل «ملك الانترنت». شابٌ وسيم طويل القامة أسود الشعر. وجهه يشبه سوبرمان إلا قليلاً. فتحت لي الباب فتاة سمراء سمينة. ترحيبها ساخن، وابتسامتها حاضرة. اعتذرت لأن سائحاً آخر يستخدم الانترنت وسينتهي بعد نصف ساعة، أعدت لي قهوة وجلسنا نتحدث. استغربتُ حينما علمت بأنها زوجة دانييل الوسيم. لا أفهم أذواق الكوبيين في الجمال، الأبيض يتزوج سمراء، الرشيق يتزوج سمينة، ناعم الشعر يتزوج مجعدة الشعر، قصير يتزوج طويلة. تجرأت سائلاً:

لاحظت تناقضاً في الأذواق هنا؟

كل شيء يحب عكسه، أليس هذا طبيعياً؟

تماماً كما قالت لي الزوجة في ترينيداد.

لا أدري، لكن ما هي معايير الجمال عندكم؟

مم.. لا توجد معايير. بل توجد أذواق مختلفة. زوجي مثلاً يحب الكنبة ولا يحب الكرسي الخشبي الصلد!

- فهو مقتنع بأنك..

أحسست بالإحراج من قول «سمينة»، إلا أنها أكلت بكل ثقة:

- جورديتا (سمينة بالأسبانية)، هذا هو ذوقه. تخيل أنه يرفض أن أخسر كيلواً واحداً من وزني! وفي بعض الأحيان يقول: لم يزد وزنك منذ زمن! والدي أبيض من أصول أسبانية، تزوج ثلاث مرات من نساء سوداوات، ويكره البيض ولا يرى فيهن أي إثارة. إنها مسألة ذوق ليس أكثر. كنت أتخيل أن العرب يفضلون السمينات؟

- بصراحة في الماضي كنا كذلك. وكانت الأشعار كلها تصاغ في السمينة، لأنها دلالة على الترف والغنى. أما النساء اللائي يعملن في المنزل ويجلبن الماء كل يوم، لا يجدن فسحة لتربية الشحم، فكنا ننظر إليهن على أنهن خدم.

- وما الذي غير في أذواقكم إذاً؟

سؤالها أثار في داخلي الكثير، لماذا كرهنا السمينة اليوم؟

***

لا توجد دعايات تجارية في كوبا. لأنه بكل بساطة لا توجد شركات تجارية، فكل شيء مملوك للدولة ويصنّع في مصانع تملكها الدولة. الدعايات تقوم بعمل جبار في نخر عقولنا وتغيير تفكيرنا الباطن. خذ مثلاً معايير الجمال عندنا. تعرضت عقولنا لهجمة شرسة من دعايات الشامبو والملابس والموضة والمنتجات الاستهلاكية التي تصور الأنثى الجميلة بمعايير محددة: الطول، الخصر، الشعر، الوجه. دعايات تمطر من كل مكان: جرائد، تلفاز، انترنت، شوارع، موبايل.. عقولنا مغسولة تماماً. كل أذواقنا في الحياة رهنٌ لهذه الدعايات: ملابسنا، سياراتنا، قهوتنا، تعبيراتنا، تصرفاتنا. أما الكوبي، فعقله حرٌ من هذه التأثيرات الإعلانية، ولا يتعرض لهذه الهجمة الشرسة التي تصور له الكماليات على أنها أساسيات، أو تفرض عليه نمط حياةٍ معين. لهذا

السبب كرهنا السمينة وعشقنا النحيفة.

***

مهندس الاتصالات صديقي الأخير في هافانا. لم يطلب مالاً ولم يعرض خدماتٍ من أي نوع. أما الباقون فكانوا ينظرون إليّ كـ«صراف بنكي» له رجلان. لا ألومهم فأنا مصدرهم الوحيد للدخل في هذا النظام الاشتراكي.

دعوته إلى الخروج معي، تردد روديو كثيراً. لكنه قبل دعوتي إلى فندق "هافانا"، الفندق الأفخم والأرقى في هافانا كلها. فندق رخامي عظيم البنيان يطل مباشرة على البحر. لكن، «ويا فرحة ما تمت»، رأى الشرطي الكاميرا في يدي فأوقفنا. أدرك من لهجتي بأني سائح. اعتقل روديو بتهمة المشي مع سائح. ليقضي في ضيافتهم ثلاثة أيام!

الغريب أني تصرفت ببرود تجاه آخر أصدقائي. لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً في هذا البلد. أكملت طريقي نحو الفندق. في الفندق وجدت كويتيين جاءا من البرازيل لقضاء يومين في كوبا. توليت أمرهما، ومارست هوايتي المفضلة: الإرشاد السياحي. وهي هواية تمكنك من استعراض عضلاتك التاريخية والسياحية، ومن تفجير غضبك وانتقاد البلد الذي أنت فيه. أخذتهما إلى متحف الثورة، معامل التبغ، البرلمان. في كل مكان أسمع منهما نفس التعليق: البرازيل أحلى! إلا عند صورة جيفارا مع جمال عبدالناصر، تلذذا بالشرح عن العلاقات الاشتراكية بين مصر وكوبا. الاشتراكية قد تكون مهمة في بعض المراحل المفصلية من تاريخ البلد، لكن لا بد من الانفتاح التدريجي بعدها، ولا بد من دعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة.

برحيل الكويتيين، لم يتبق لي في هذا البلد إلا شيء واحد: روديو، المحتجز في المخفر. وقفت عند باب المخفر حاملاً وردة، منتظراً خروجه، في منظر سخيف. راودني السؤال:

ماذا لو اعتقلوه مرة أخرى عند باب المخفر بسببي؟ لم أبالِ. استقبلته باعتذار ووردة، أمام أعين الشرطة. كنت أستخف بهم، وأثبت سخافة قانون عزل الناس. الشرطة لم يبالوا بمنظري ومحاولتي لإثبات سخافة قانونهم. ما أغاظني أكثر، كنت أتوقع بعض الإثارة والشجار، لكن الأمور جرت ببرود قاتل.

***

دخلت غرفتي الرطبة؛ لونها شاحبٌ، حائطها مليء بالتجاعيد، سرير خشبي يأزّ، مخدة صلدة. شعور الاختناق يتصاعد. دخل ابن شطوطة، يغني أغنية شيليا كروز[٧٠]:

- غوانتانامیرا.. کواهیرا غوانتانامیـــــرا..[٧١]

الأغنية الأشهر في إقليم غوانتانامو. الخنّاس يريد أن يقنعني بزيارة الإقليم. طردته شر طردة. شغّلت المروحة العجوز. المروحة التي سعيت في إصلاحها بنفسي. تأملت دورانها المهترئ، ريشاتها الصدئة، لكنها تدور وترقص، تماماً مثل هذا البلد الصدئ الراقص. المروحة تمارس عليّ التنويم المغناطيسي، ترسم لي الوجوه متتابعة: الفتاة في صالة البلياردو، جيفارا على الجبّارة. باتريسيا تسأل بفضول، جيفارا في المنجم. سنيور جاريسيا يحذرني من ذكر اسمه، جيفارا نائماً في شاحنة. دانييل الوسيم وزوجته البدينة، جيفارا ثائراً في غواتيمالا. روميرو يرقص على أغاني مادونا، جيفارا يصرخ: ثورة إلى النصر. صورتي وأنا أقود الشيفروليه الكلاسيكية، جيفارا مع عبدالناصر. السمراء تراقص مكنستها على الشرفة، جيفارا جريحٌ في لاسيرا. رينو الطبّال النصاب، جيفارا وزيراً للمالية. البلجيكية في فخ العشق، جيفارا يقاتل في الكونغو.

---

٧٠. Celia Cruz حنجرة كوبا الأشهر. أغانيها لا تباع في كوبا لأنها هاجرت مع نظام باتيستا إلى فلوريدا وعارضت الثورة.

٧١. من أشهر الأغاني الكوبية، التي تصف فتاة صغيرة من منطقة غوانتانامو.

في غمرة السُكْرِ المغناطيسي. سألت جيفارا:

- هل هذا ما ثرت من أجله؟ كل هذه الدماء من أجل بلدٍ متخلف؟

بنصف ابتسامة هازئة، دخان سيجاره أفاعي في الجو، قال:

لولا الثورة لكانت البلد أشقى. لامتدت الإمبريالية إلى كل بقعة في الأرض. لكانت الصهيونية بلعت العالم العربي. لاستحال الظلم ظلاماً دامساً.

استسلمت لدوار المروحة. لم تكن مروحة ستينيات. كانت شريطاً سينمائياً بالأبيض والأسود، كنت أعيش الستينيات. أدركت أني أكره هذا البلد، ولن أعود إليه مرةً أخرى.

المسيح

المكان : بوليفيا.
التاريخ : ١٩٦٧.

انتهت الثورة، لكنها بدأت في الحقيقة. أن تكون ثائراً يعني الصمود والخشونة والإيمان بالمبدأ. وأن تكون حاكماً للبلاد يعني أن تكون إدارياً ودبلوماسياً واقتصادياً ومرفهاً وداهية. كيف يمكن للثوار أن يتكيفوا مع حياة النفاق والسياسة. كيف يمكن لهم أن ينقذوا الجزيرة الصغيرة التي تعاني من الجهل وسوء توزيع الثروة وضعف الخدمات[٧٢]، الجزيرة تعتمد على السياحة الأمريكية: شواطئ وقمار ودعارة، وتعتمد على توريد السكر لأمريكا كذلك، وهم أعداءٌ لأمريكا.

دخل الثوار في معترك إداري صعب، تولى جيفارا وزارة المالية وعدة حقائب أخرى. رفض امتيازات الوزارة، واحتفظ بتواضعه وشظفه. زار الحكومات المعادية لأمريكا حول العالم، خصوصاً الاشتراكية منها، أعجبه النمط الصيني كثيراً، بينما أعجب فيديل بالنمط الروسي. قامت كوبا بخطوة متهورة جداً، وضعت رؤوساً نووية روسية على أرضها ووجهتها لأمريكا، جن جنون العملاق الأمريكي. وقف جيفارا في المحافل الدولية وأعلن بأنهم سيعملون على إنشاء «فيتنام»ـات جديدة لكسر الغطرسة الأمريكية!

---

٧٢. كانت نسبة الجهل في كوبا ٤٠٪ تقريباً، لكنها اليوم أقل دولة في نسبة الجهل، والسبب أن الثورة جعلت التعليم إلزامياً مجانياً لكل طبقات الشعب التي كانت محرومة منه.

***

دعا فيديل أصدقاء الثورة المقربين إلى عشاءٍ خاص، على شرف رجل أعمالٍ أجنبي يزور البلاد، رجلٌ أبيض حليق الوجه، جميل الملامح، أسود الشعر، يرتدي نظارة طبية. على العشاء دارت حوارات بين الثوار ورجل الأعمال، وفي النهاية كشف فيديل عن حقيقة رجل الأعمال، إنه زميلهم في الغابات والجبال: تشي جيفارا!

أعلن فيديل بأن جيفارا متنكرٌ على هيئة رجل أعمال، وأنه يعزم حرب عصابات جديدة في الكونغو ضد الإمبريالية الأمريكية. وذهب جيفارا إلى هناك، حاول تحريك الثوار لعدة أشهر، لكنه اكتشف الفروقات الجغرافية الهائلة في العقلية الإفريقية، فترك الكونغو وعاد بعدها إلى كوبا سراً. قضى وقتاً قصيراً هناك، وقرر الذهاب إلى بوليفيا، التي يحكمها دكتاتور يتبع الولايات المتحدة، فقرر التنسيق مع الحزب الشيوعي البوليفي، الذي أبدى تخوفاً من العمل المسلح، ومال إلى السلمية. لكنه كان يؤمن بتصدير الثورة إلى قلب بوليفيا[٧٣]، وأن بخاصه في بوليفيا من شأنه أن يحرك الأحرار في بقية دول أمريكا اللاتينية المجاورة. ذهب، وكالعادة كانوا مخترقين من قبل المخابرات الأمريكية، والتي دربت فرقةً خاصةً من الجيش البوليفي. لجأ جيفارا وثواره إلى غابات بوليفيا، والتي سبق له أن زارها في شبابه، وبدأت حرب العصابات من جديد. وبعد معارك عديدة نجح الجيش البوليفي في تقسيم الثوار وتطويقهم، واستنزاف ذخيرتهم، حتى قبضوا أخيراً على جيفارا، كان مصاباً، طال شعره، اكفهر وجه، الضابط المدرب في الولايات المتحدة أمر بالإسراع في قتله، وقف هازئاً في وجه

---

٧٣. في العشرينيات من القرن الماضي نشأت علاقة قوية بين الولايات المتحدة وبوليفيا، حيث قررت بوليفيا دخول حرب مع الباراغواي لاحتلال منطقة تشاكو، منطقة بترولية في الباراغواي، مقابل إعطاء حقوق امتياز لشركات البترول الأمريكية بعد الاحتلال، وكان الجيش البوليفي يفوق جيش الباراغواي، لكن الحمية الوطنية استثارت شعب الباراغواي الذي قاتل مع جيشه وهزم بوليفيا.

الضابط، وطلب منه أن يقتله. لم يصدق العالم أن الأسطورة جيفارا قُتِلت، لطالما أعلنت وكالات الأخبار العالمية (الأمريكية) موت البطل لكنه لم يمت قط.

أخذوا جثمانه إلى بيت في وسط الأحراش، نظفوا الجثة وغسلوها ليتأكدوا من ملامحه، كان يرقد وعيناه مفتوحتان، حاولوا إغلاقها بلا جدوى، لم تنجح فلاشات المصورين في جعله يرمش، كان يرقد بثقة وهدوء وعظمة. إحدى القرويات التي دفعها الفضول لدخول الغرفة ورؤيته، اعترفت:

«لقد رأيت اليسوع! بلحيته وشعره. أنزلوه من الصليب. لقد كان هو المسيح المضحي بنفسه ليكفّر خطايا البشر.. لقد رأيت المسيح مسجى!»

مكتبة
t.me/t_pdf

خاتمة

يَقولونَ لي: ما أَنتَ؟ في كُلِّ بَلدَةٍ
وَما تَبتَغي؟ ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى

فَلا عَبَرَت بي ساعَةٌ لا تُعِزُّني
وَلا صَحِبَتني مُهجَةٌ تَقبَلُ الظُلما

وألقت عصاها

أُلقي عصا التسكع في العالم العربي. بلادُ العرب أوطاني. واحدة من مراكش إلى عدن، لغة، سحنة، ديناً، تخلفاً. روحٌ واحدة في أجساد سياسية متفرقة. الأحلام العربية متواطئة مع الأحلام البوليفارية. الحالة العربية قريبة من اللاتينية: استعمار، دكتاتوريات، فقر، بترول، شمس، ضحك، قبائل، دويلات. هذه التوأمة في المصائب والحسنات، جعلتها قارة سهلةً بالنسبة لي. اسْتَبْدِل الأبجدية باللاتينية، الهلال بالصليب، لتجد توأمين متشابهين. غير أن الجسد العربي فيه ندبة في قلبه اسمها فلسطين. والجسد اللاتيني شعرهُ كثيفٌ بأمازونه.

الحياة مدرسةٌ والسفر جامعة. في جامعة الرحلة تتعرف على جدتنا الكبرى الحنون القاسية: الجغرافيا. التاريخ أبو البشر، والجغرافيا هي أم التاريخ. الجغرافيا هي جدتنا جميعاً. الجغرافيا: علاقة حبٍ بين ميلان الشمس والتضاريس. درجة ميلان الشمس (دوائر العرض) تحدد دفء وبرودة المكان، بالتالي دفء وبرودة ساكنيه. ميلان الشمس يحدد المزروعات، الماشية، المعادن وخيرات الأرض التي تشكل طبائع الإنسان. أما تضاريس الأرض تتولى جمع البشر في محاضن مختلفة: جبلي، صحراوي، بحري، ثلجي، غاباتي..

الجغرافيا تقسم البشر وتفصلهم، تربيهم بمعايير مختلفة: كرمٌ وحسدٌ في الصحراء، شجاعة وجفاء في الجبل، تكاتف وشكٌ في البحر، طيبةٌ وسذاجةٌ في الحقل. تمارس

الجغرافيا دورها التربوي ببطء يمتد لآلاف السنين. تصقل الثقافات البشرية وتمايزها: لساناً، ديناً، فكراً، تقاليداً.. إلى أن يتشكل الإنسان ويبيس طينه متحيزاً لجغرافيته. لكننا لا ندرك هذا العمق الجغرافي فينا. حتى الأديان تنتشر وفق الجغرافيا، الإسلام مثلاً: ظهر في بقعة دافئة، فانتشر الإسلام في دوائر العرض الدافئة. وصل المسلمون شمال أسبانيا الجبلية الباردة، فألقوا سيوفهم، لم يتجرؤوا على إدخال الثلج في الإسلام. الكاثوليك أيضاً انطلقوا من حوض المتوسط، أسبانيا وإيطاليا، فكانوا مثل المسلمين يبحثون عن الدفء، وصلوا أمريكا اللاتينية، تركوا أطرافها الباردة، وركزوا على دوائر العرض الدافئة: من صحراء المسكيك إلى جبال الأنديز في بوليفيا. ولا يزال شمال القارة أمريكا (الولايات المتحدة وكندا) بروتستانتياً بامتياز، لأن المهاجرين البروتستانت جاؤوا من برودة بريطانيا. الجغرافيا جدتنا الحنون، تحكمت في رحلاتي أيضاً، تحركتُ في دوائر العرض الدافئة، لا خوفاً من البرد، إنما طمعاً في شعوبٍ ربتها الشمس، شعوبٍ سعيدة دافئة توزع مشاعرها كأشعة الشمس. الشعوب التي دللتها الشمس، لا تحب العمل كثيراً، وتجد في الحياة متسعاً للفرح. بينما يفكر الغربي بالمستقبل، يفكّر العربي/اللاتيني باللحظة. نحب أن نحتسي لحظاتنا متعةً دون التفكير في الغد. وجدت نفسي مغروساً بسعادة معها. كل قلبٍ في أمريكا اللاتينية له قلبٌ عربي يماثله، وكل أرض في أمريكا اللاتينية لها أرض عربية تماثلها، عدا الأمازون فلا توأم له.

***

أجاءني التفكير إلى جذع نخلة. مخاضٌ من المقارنات بين العالمين. في مراكش الحمراء، التي لا يشابهها أحد. تعديّت حدود السياح المزركشة إلى بيوت المدينة

الحقيقية. على أطرافها عشٌّ لعوائل لا تعرف القراءة والكتابة. تقابلها مزارع وبساتين تقطر عذوبة ودراهماً. نسبة الأمية في المغرب الجميل مخيفة.

في تونس الخضراء. كان عليهم أن ينتظروا الربيع العربي ليعرفوا كيف يعيش أهل الجنوب. لم يكن التوانسة يعرفون الفقر المدقع في بلدهم. اكتشفوا أن الرئيس السابق كان يشتري المنظمات الدولية لتقول لهم بأن تونس طبقة متوسطة ولا فقر فيها.

في لبنان. نستقبل اللاجئين السوريين ونضعهم في مخيمات. أهل الغوطة لم يسبق لهم أن تعرفوا على أهل داريا (كلهم من ريف دمشق). الكل يستغرب من عادات ولهجات الآخر. المخيمات جعلتهم يدركون تنوع المجتمع السوري. الثورة أرغمتهم على التعرف على جيرانهم وأبناء عمهم.

المشهد العربي مخيف: انقلابات عسكرية، مطالبات بالحرية، تنامي النزعة الفردية، هجران العادات، مهاجمة المتدينين، الطعن في المتحررين، تفشي الماديات.. نفس المشاهد التي حدثت في أمريكا اللاتينية من ثلاثين سنة. كل هذا القبح القاني أصبح تاريخاً عندهم.. يبدو أن دورة حياة أمريكا اللاتينية تسبقنا بثلاثين سنة. يعتقد بنو قومي بخصوصية العالم العربي، لكن أمريكا اللاتينية علمتني:

الدهرُ أوله شبه بآخرهِ ناسٌ كناسٍ وأيامٌ كأيامِ

كل المشاهدات التي رأيتها في العالم العربي. وجدت شيئاً مماثلاً لها هناك. كأنهما جسدٌ ومرآة.

***

أتأمل سيرة مناضليهم، من السجون إلى كراسي الحكم. من كراسي الحكم إلى الفشل. من الفشل إلى التوحد. خيزرانهم كان يتكسر بسهولة على يد الإمبريالية الأمريكية.

لما تكاتفوا، أبتِ الرماح تكسراً. خلقوا منظومة تبادل اقتصادي بين الحكومات اليسارية الزاهدة؛ بين البرازيل وفنزويلا والأرجنتين وكوبا. تبادل حقيقي للمنافع والخبرات: كوبا ترسل أطباءها، فنزويلا تقدم بترولها، البرازيل تعرض قهوتها وأبقارها. أبواب السياحة مفتوحة بينهم، أبواب الهجرة متاحة لهم. تحولوا إلى قوة متوسطة تواجه الإمبريالية وتحسن وضع شعوبها. الفضل للمجانين من أمثال: بوليفار وجيفارا وكاسترو وشافيز.

جيفارا، طبيب أرجنتيني، يثور في كوبا، ويستشهد في بوليفيا. شافيز الأحمق يأخذ بترول شعبه ليعطيه للأرجنتين. في هذا الزمن لا مكان للكيانات الصغيرة. التكاتف والتحالف فرض عين على الجميع.

الأحلام العربية، قابلة للتحقيق. إذا تعاونا وتكاتفنا. اليوم نساعد السوريين وغداً يساعدون الفلسطينيين. نشتري زيتون المغرب. يشترون غاز قطر. ننشر علماء اللغة الموريتانيين. ندعم السياحة المصرية. نرفع الحصار عن غزة. ندعم جامعات الأردن. نقوي المشاريع النفطية. نبني الإعلام العربي. شيئاً فشيئاً نبعد الوحوش الأمريكية والصهيونية والإيرانية عن أراضينا.

سأطلعكم على سرٍ صغيرٍ. احفظوه ولا تشهروا بي: تطوعت في كنيسة في إحدى القرى الكوستاريكية. عرضت عليّ فتاة أمريكية التطوع لتعليم اللغة الإنجليزية مقابل السكن المجاني، قبلت. هذه الفتاة جاءت من كاليفورنيا إلى هنا لمساعدة المومسات! تزورهن في بيوتهن، تصادقهن، تعرض عليهن وظائف بديلة. يدعمها رجلٌ أمريكي متوسط الثراء. يدفع لها تذكرة سنوية وخمسمائة دولار أمريكي شهرياً. تقدمُ له تقارير شهرية عن عملها وإنتاجها. ظلت لستة شهور تتعلم اللغة الأسبانية وتتعرف على مجتمع المومسات ودوافعهن. أتقنت اللغة وأخرجت العشرات من النساء من هذا الوحل. حاصرتها: لماذا؟ لأنها تحب الله والبشر والمسيح. تريد أن تصنع فرقاً على

هـذه الأرض قبـل أن ترحـل إلى قيامتهـا. أمامهـا أدركـت هشاشـتي وسخافـتي. أدركـت معنى السفر الحقيقي. أدركت معنى الإشارات الإلهية التي ألقت بي في وعثاء السفر.

مـن السـذاجة أن ترحـل لتتغيّر فقـط. يجـب أن تتغيّر لتغيّر. يجـب أن ترجـع وتصنـع فرقاً. وإلا كنـت طالبـاً مجتهداً علّق شهادتـه عـلى الحائـط.

ارحل. تغيَّر. غَيِّر.

***

جامعـة الأسفار علمتني درساً عميقاً؛ لماذا عشقت واهاكا أكثر من مكسيكو سيتي؟ لأن واهـاكا حافظـت عـلى ثقافتهـا الراسخـة، بينما مكسـيكو سـيتي تنامـت فيهـا النزعـة الفرديـة، نزعـة الأنانيـة الغربيـة. لم يعـد لديهـا الكثير لتقدمـه لي. أدركـت أن قيمـة المجتمـع في تمسـكه بأصالتـه وهويتـه. عـليّ أن أبـدأ بنفـسي. أقلعـت عـن الحديـث بالإنجليزيـة، افتخـرت بلبـاسي الوطـني، حافظـت عـلى صلاتي، حرصـت عـلى تماسـك أسرتي، رجعـت إلى الشـعر العـربي. هـذه المجتمعـات التـي تكبر فيهـا النزعـة الماديـة والاسـتقلالية والأنانيـة تتشـوه وتتحـول إلى مسـوخ قبيحـة. شـبابٌ سـاذج يتحـدث كالأمريـكان، يؤمـن بسـذاجة اليوغـا، يتجشـأ الكـولا، يمتـلئ مـن البرجـر. اعتقـدت أن السـفر سيكوّن لي هويـة عالميـة ليـس لهـا وطـن. لكنـه عـزز شرقيـتي وانـتمائي العـربي والإسـلامي. فخـورٌ بالنـبي صـلى الله عليـه وسـلم والخلفـاء وصـلاح الـدين والعـزّ والمتنبي والمعـري. نحـن ننحـر مجتمعنـا باللهـث وراء الماديات، تقليـد الأجانـب، نبـشِ جحـر الضـب. عـليّ أن أقاتـل مـن أجـل الحفـاظ عـلى هويـتي. في السـفر أتماهى مـع المجتمعـات مؤقتـاً بحسـب عاداتهـا. وفي الحـضر أرجـع شرقيـاً يفخـر بشـاربه وعقـاله.

علمتني المكسيك، أن بنـاء المشـاريع الصغيرة والمتوسـطة أسـاسٌ لا يجـب التخـلي عنـه.

حذرتني فنزويلا من مغبة الاعتماد على البترول. أرتني بيرو دور السياحة في إنقاذ آلاف العوائل والأسر، ولا سياحة دون أصالة وتاريخ. علمتني الأرجنتين أن الحكومات العسكرية لا تبني اقتصاداً. علمتني كوبا أن قلب نظام الحكم والعدالة الاجتماعية ليسا كافيين للرخاء.

***

يقترح علي ابن شطوطة السفر إلى تشيلي. أعتذر منه بكل أدبٍ على غير العادة. سأقدم خدمةً للعالم العربي، علي أن أسدد ديوني للعالم العربي، وإلاّ فما فائدة التخرج من جامعة الأسفار. وبعدها أعود للسفر من جديد. يسألني ابن شطوطة:

ما هو أجمل بلدٍ لاتيني؟

- قطعاً البرازيل.

- لكنك لم تزرها. كيف تقيّم بلداً لم تزره؟

الحدس يا صديقي، مثل حدس المشرد في مطار بانكوك. تعلم أن تطلق العنان لحدسك، وتترك جسدك وراءه.

يربت على كتفي متنهداً:

أنتَ التلميذ الذي تفوق على أستاذه! لم تعد بحاجة إليّ، سأبحث عن ضحية أخرى.. قارئ هذا الكتاب!

هاأنذا أحذرك أيها القارئ. ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

منذ تذوقت أمريكا اللاتينية،
وأنا أعمل بجدٍ لسنة ونصف.
ثم أستقيل ببرودٍ، مسافراً
كالمسحور: الأرجنتين النائية،
فنزويلا الخطرة، المكسيك
الملونة، كوبا المعقدة. هل
على هذه الأرض ما يستحق
الجنون؟

الكتاب يجيبك...

المؤلف

منشورات
ذات السلاسل
الكويت